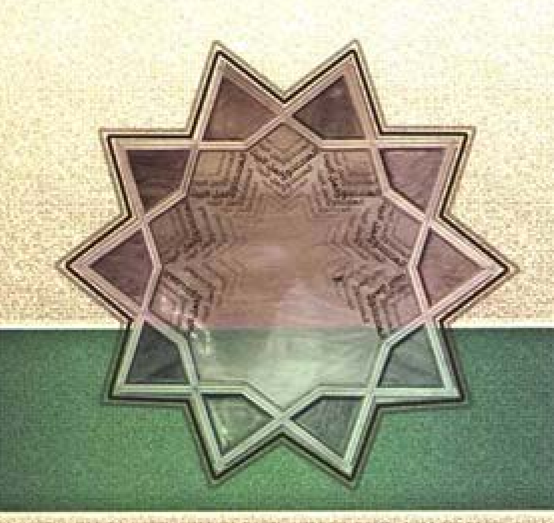
الهوى

في حديث أهل البيت عليهم السلام



محمد مهدي الآصفي



الهوى

في حديث أهل البيت عليهم السلام

محمّد مهدي الآصفي

الكتاب:................................. الهوى في حديث أهل البيت عليهم السلام

المؤلف: ....محمد مهدي الآصفي

إخراج: ....حليم حرز الدين

الطبعة السادسة: ....١٤٣٢ هـ / ٢٠١١م

الكمية: ....٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:..............مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام ـ النجف الأشرف

كلمة المجمع

في حديث أهل البيت عليهم السلام كنوزٌ من المعارف لا تحصى، وأنوارٌ ساطعة من الحقائق لا تقف أمامها ظلمات أهل الدنيا ودعاتها.

ومن يتناولها بمنطق المعرفة والعلم، كحقائق مطلقة يجد فيها من الشمولية ما تستوعب كل واقع الإنسان، في نفسه وما حوله، وجوداً ومسيراً ومآلاً، ومن تلك الحقائق التي عجز عن سبرها والاحاطة بها علماء ومفكرو النظريات الوضعية في علم النفس والاجتماع هي الهوى، في معناه وحقيقته، وفي جذوره وحركته وآثاره، وفي نظمه وتسييره نحو الخير والكمال.

ولعلنا لا نجانب الواقع لو قلنا إنّنا يندر أن نجد من كتب في هذا الموضوع، من علماء ومفكري الإسلام قبل كاتب هذا السفر الجليل سماحة العلاّمة الشيخ محمّد مهدي الآصفي حفظه الله، بلغة تحليلية علمية، يستنطق بها النص، وينطلق منه في جولة شاملة لحقيقة الهوى وجوداً وحركةً وآثاراً، ليضعه في النهاية على هديٰ القرآن الكريم وسيرة أهل البيت عليهم السلام في مساره الصحيح الذي أراده الله سبحانه لهذا الإنسان وهو يخوض غمار الصراع من أجل تحقيق الهدف من خلقه وخلافة الله في أرضه.

وقد انساب الكاتب، كعادته، مع النصوص يستنطقها قبل أن ينطق عنها، حفظاً لها من دسيسة الرأي، وتحميلها من الدلالة ما لا تدل عليه، فابتدأ بتحديد معنى الهوى في الكتاب والسنة، ثم انطلق لتفصيل حقيقته وخصائصه في نفس الإنسان، ودوره البنّاء في تقويم حياته، بعدها انتقل الى بيان عوامل التحريف والحطّ التي تعمل عملها الحاسم في بروز الدور التخريبي للهوى تحت عنوان «من يؤثر هواه على هوى الله»، مرتّبة على مراحل تتناسب ودرجة التحريف والحط للهوى في

نفس الإنسان وواقعه، ثم ينتقل الكاتب الى علاج الهوى من أدواته التخريبية تحت عنوان «من يؤثر هوى الله على هواه».

وهنا يجول بنظره في آفاق روايات أهل البيت عليهم السلام، خصوصاً ما جاء عنهم من حديث قدسي في هذا المضمار، ليحيط بكل الأدواء ما دق منها وما ظهر، ثم يطفق يستخرج من كنوزها الدواء الناجع والعلاج الحاسم لتلك الأدواء بلغة مباشرة لا تجد بينها وبين المنطوق القدسي فاصلاً يُحدث في النفس تأمّلاً أو تردداً يخرجها عن حالة التعبدية والتسليم له.

هذا والمعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام إذ وجدت في هذه الدراسة القيّمة العلمية التي تصبو إليها في إصداراتها والحاجة الأساسية التي تسد نقصاً في مجال مهم يحقق ملؤه هدفاً من أهداف وجودها وعملها، ارتأت ان تقدمها لأبناء الإسلام واتباع أهل البيت عليهم السلام سائغةً تُشبع تطلع طلاب المعرفة والعلم، قشيبةً تأنس بها النفس لتعانق معانيها، وتشرب من مضامينها القدسية ما تروّي به ضمأها في عصر الجدب الروحي والانحطاط الخلقي، ليقوم للدين عود تعلو له كلمة، ومن الله التوفيق والسداد.

المعاونية الثقافية

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام



﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

النازعات/ ٤٠ - ٤١



بين يدي القارئ طائفة من التأملات حول الحديث القدسي الشريف الوارد في الهوى، واتّباعه، ومخالفته، وآثاره في حياة الإنسان.

وكانت هذه التأمّلات - في الأصل - مجموعة من المحاضرات، ألقيتها في حينها على طلبة العلوم الإسلامية في حوزة قم العلمية، ثمّ يسّر لي الله تعالى تجميعها وتدوينها ونشرها بهذه الصورة.

ولله تعالى الحمد في ذلك كلّه، واسأله تعالى أن ينفع بها المؤمنين، وينفع بها كاتبها، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

محمّد مهدي الآصفي

قم المقدّسة في ٢٨ شوال ١٤١٢ هـ

عن الإمام الباقر عليه السلام: عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**يقول الله عزّ وجل:**

وعزتي، وجلالي، وعظمتي، وكبريائي، ونوري، وعُلُوّي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبد هواه على هواي إلاّ شتّتُ أمره، ولبّست عليه دنياه، وشغلت قلبه بها، ولم أُوته منها إلاّ ما قدّرت له.

وعزتي، وجلالي، وعظمتي، وكبريائي، ونوري، وعُلُوّي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبدي هواي على هواه إلاّ استحفظته ملائكتي، وكفّلت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة»(1).

هذا الحديث الشريف من الأحاديث القدسيّة الذي اشتهر روايته واستفاض في كتب الفريقين.

وقد روينا هذا الحديث عن طرق مختلفة، صحّ عندنا بعضها. وحاولت أن أضع شرحاً لهذا الحديث الشريف ضمن ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: في تعريف الهوى، وتشخيص أعراضه وطرق علاجه، والسيطرة عليه تحت عنوان (الهوى) في القرآن والحديث، وهذا الفصل يعتبر مدخلاً لدراسة

---

(١) عدّة الداعي لابن فهد الحلّي: ٢٨٧، أصول الكافي ٢: ١٣٧ و٢: ٣٣٥، بحار الأنوار ٧٠: ٧٨، بحار الأنوار ٧٠: ٨٥ ـ ٨٦، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية للحرّ العاملي: ٣٢٢. ورواه الشيخ محمّد المدني بلفظ قريب منه في: الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية: ٣٧ ط٢. ومشكاة الأنوار/ ٧٥ للطبرسي ط دار الحديث ١٤١٨هـ المدرسين ـ قم وتفسير الثقلين ٥/ ٥٠٧ ط ١٤١٢هـ للحويزي، والحدائق الناضرة ١٨/ ١٢ منشورات جامعة المدرسين ـ قم، والمحاسن للبرقي ٥٣٥/٢ دار الكتب الاسلامية طهران ١٣٧٠، وبحار الأنوار ١/ ١٥٠ و٦٧/ ٧٥ ـ ٨٢ ـ ٨٦، وجامع أحاديث الشيعة ٢٧٢/١٣.

هذا الحديث الشريف.

الفصل الثاني: فيمن آثر هواه على هوى الله.

الفصل الثالث: فيمن آثر هوى الله على هواه.

* * *

الفصل الأول

الهوى
في القرآن والحديث


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مصطلح «الهوى» في الكتاب والسنة

«الهوى» مصطلح إسلامي، تكوّن من خلال استخدام هذه الكلمة في الكتاب والسنّة. وأصبح له معنىً محدودٌ في الثقافة الإسلامية.

وقد ورد ذكر الهوى كثيراً في الكتاب والسنّة يقول تعالى:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)[1].

ويقول تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إنّ أخوَف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل».

وقد روى الشريف الرضي هذا الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة.

وعن الإمام الصادق عليه السلام :

«احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»[3].

وأيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام :

«لا تدع النفس وهواها، فإن هواها رداها»[4].

---

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

(٣) أصول الكافي ٢: ٣٣٥.

(٤) أصول الكافي ٢: ٣٣٥.

المصادر الستة داخل النفس

ولكي نعرف موضع «الهوى» في النفس ودوره في حياة الإنسان نقول: إنّ الله تعالى أودع في نفس الإنسان طائفة من المصادر والمنابع لحركة الإنسان ووعيه، وكلّ حركة للإنسان - فعلية أو انفعالية - وكلٌّ وعي له يصدر عن هذه المصادر، وأهم هذه المصادر ستة، ومن أهمها «الهوى» وهذه الستة هي:

١ - الفطرة: وفيها أودع الله تعالى الميل والنزوع والانجذاب الى الله تعالى ومعرفته، والى الفضائل والقيم الأخلاقية كالوفاء، والعفة، والرحمة، والكرم،...

٢ - العقل: وهو مركز التمييز والتشخيص في تكوين الإنسان.

٣ - الإرادة: وهي مركز القرار والإقدام والطلب، وتؤمّن للإنسان حرية (القرار) واستقلاليته.

٤ - الضمير: وهو محكمة قائمة في داخل النفس، مهمته محاكمة الإنسان، وتوبيخه، وممارسة الضغط عليه لتعديل سلوكه.

٥ - القلب والفؤاد والصدر: وهو نافذة أُخرى للوعي والمعرفة - كما نفهم من خلال آيات كتاب الله تعالى - يتلقى الاشراق والوعي من لدن الله تعالى، ويمنح الإنسان القلب والاقبال والاعراض والجذب والنفور .

٦ - الهوى: وهو مجموعة الغرائز والشهوات المودعة في نفس الإنسان، والتي تتطلب الاشباع بقوّة، وتكسب الإنسان لذّة عند الاشباع.

وهذه المنابع الستة التي ذكرتها للحركة والوعي في نفس الإنسان هي من أهم المصادر التي أودعها الله تعالى لدى الإنسان. ولست الآن بصدد دراسة هذه المصادر أو حصرها وتحديدها، وتكوين تصور علمي عنها من خلال النصوص الإسلامية.

وهذا الحقل من الثقافة النفسية في الإسلام يحتاج الى كثير من الدراسة والبحث والتفكير، ولعل الله تعالى يقيّض له من يتولى دراسته من خلال النصوص الإسلامية، وهو حقل (خصيب) من حقول الفكر الإسلامي، وفي نفس الوقت حقل (بكر). وهذه الخصوبة والبكارة في هذا الحقل تُغري العلماء والباحثين بارتياده.

وتنحصر مهمتنا في هذه الفصل: في «الهوى»، وتحديد معناه، وتعريفه، ودوره في حياة الإنسان، وخصائصه، وآثاره، وأعراضه، ووسائل مكافحته، وما يتصل بذلك من الشؤون.

ولذلك فإننا نطوي الحديث عن هذه المصادر التي أودعها الله تعالى في النفس للحركة والوعي لنتحدث عن «الهوى».

ولدى استعراض النصوص الإسلامية الواردة في معنى «الهوى» نجد أن هذا المصطلح في الثقافة الإسلامية يعني مجموعة الغرائز الكامنة في النفس، والتي تتطلّب من الإنسان الاستجابة.

وتكوّن هذه الغرائز شطراً كبيراً وواسعاً من شخصية الإنسان، وعاملاً أساسياً في تحريك الإنسان وإدارته، ومفتاحاً من أهم مفاتيح حركة الإنسان الفعلية والانفعالية.

خصائص الهوى

لكي نعرف الهوى ودوره الإيجابي والسلبي، في البناء والتخريب في حياة الإنسان، لابدّ أن نتعرف على أبرز خصائص الهوى في حياة الإنسان، ونحن فيما يلي نستعرض أبرز هذه الخصائص من خلال النصوص الإسلامية:

١ ـ حالة التوسع للهوى

إنّ حالة التوسع والاطلاق في الطلب من أبرز خصائص الغرائز في الإنسان، وتختلف الغرائز والأهواء والشهوات في درجة الاشباع والاكتفاء، فمن الغرائز ما لا سبيل الى إشباعها إطلاقاً، وحالة الطلب في هذه الغرائز حالة مطلقة، لا إشباع لها ولا اكتفاء. ومن الغرائز ما لا تبلغ حدّ الاشباع والاكتفاء إلاّ بعد توسّع كثير، وتجمع هذه الغرائز جميعاً خصلة التوسع في الطلب وعدم الاكتفاء في الحدود المعقولة من الطلب.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى:

«لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب»[1].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى وراءهما ثالثاً»[2].

وعن حمزة بن حمران قال: شكى رجل الى أبي عبد الله عليه السلام أنه يطلب فيصيب،

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي بشرح المناوي ٢: ٢٢٠ ط ١٣٧٣. مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٢١٩، ومجمع الزوائد للهيثمي ١٤٠/٧ والمعجم الكبير للطبراني.

(٢) مجموعة ورّام (تنبيه الخواطر): ١٦٣. وروضة الواعضين للفتال النيسابوري ٤٢٩ منشورات الشريف الرضي ـ قم، والايضاح للفضل بن شاذان الازدي ٣٣١ جامعة طهران ١٣٦٣هـ ش.

ولا يقنع، وتنازعه نفسه الى ما هو أكثر منه، قال: علمني شيئاً انتفع به، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إن كان ما يُكْفيك يُغْنيك فأدنى ما فيها يغنيك، وإن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يُغنيك»[١].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «يابن آدم، إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت تريد ما لا يكفيك فإنّ كل ما فيها لا يكفيك»[٢].

والمقصود من حالة الاطلاق في هذه النصوص ليس هو الاطلاق الحقيقي بالتأكيد، وإنّما المقصود حالة النهم المتزايدة للغرائز عند الإنسان، والتي ليس لها حدّ معقول للاكتفاء، وإذا كانت بعض هذه الغرائز تخمد وتضعف في الأشواط المتأخرة من العمر، فإن بعضها الآخر يستمر في نهمه حتى الشوط الأخير من العمر[٣].

٢ ـ قوّة التحريك والالحاح في الهوى

إن الهوى من أقوى العوامل المحركة للإنسان، ويكفي في التعريف بقوة

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٣٩. ومشكاة الأنوار للطبرسي ١٠١ وبحار الأنوار ٧٠/ ١٧٨ ومستدرك الوسائل ١٥/ ١٨١.

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ١٧٠.

(٣) روي عن سول الله صلى الله عليه وآله : «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل».
رواه أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، الجامع الصغير للسيوطي حرف الياء: ٣٧١/٢.
كنت أعرف عبداً صالحاً من عباد الله مكّنه الله تعالى من ترويض نفسه منذ أيام الشباب فأدركته أنا في التسعين من عمره فكان يقول ـ فيما يقول ـ: انّ أُمهات الشهوات ثلاثة: الجنس، والمال والجاه، وقد استطعت أن أُروّض نفسي في الأُولى والثانية منذ أيام الشباب وتمكّنت منهما، وأما الثالثة فلا زلت أشعر بخطورتها وأخشى من الوقوع في شركها وأنا في التسعينات من عمري.

التحريك في عامل الهوى أن نعرف أن الهوى هو العامل الوحيد - تقريباً - لتحريك الحضارات الجاهلية على سعتها. والحضارات الجاهلية تغطي مساحة واسعة من تأريخ الأرض وجغرافيتها.

وإذا تجاوزنا بقايا الفطرة والضمير والعقل في الحضارات الجاهلية فانَّ الهوى يعتبر العامل الاكبر في تحريك هذه الحضارات، في الحرب والسلم، وفي الاقتصاد والعلم، وفيما يحدث في هذه الحضارات من الجرائم.

ويكفي ذلك في التعريف بضخامة القوة التحريكية للهوى في حياة الإنسان إذا عرفنا أن المساحة الجاهلية من التاريخ هي من أوسع المساحات في تاريخ الإنسان.

وقد روي في هذا المعنى: إن زيد بن صوحان سأل أمير المؤمنين عليه السلام: أي سلطان أغلب وأقوى؟ قال: الهوى[1].

ويحكي القرآن الكريم عن امرأة العزيز هذه الجملة القوية في الدلالة على قوة الهوى وسلطانه في حياة الإنسان، وذلك في سياق الاقرار: (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي)[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الخطايا «: الشهوات» خيل شُمُسٌ، حُمِل عليها أهلها،

---

(١) بحار الأنوار ٧٦: ٧٠، حديث ٦. و٦٧/ ٧٦ ، و٢٧٧/٧٤ . والاربعون حديثا للعاملي الجزني: ٥٢، والامالي للطوسي ١/ ٤٩٦، ومجموعة الورام ٢/ ١٨٩ مكتبة الفقيه ـ قم.

(٢) يوسف: ٥٣.

وأذكر ان أساتذتنا في النحو في أيام الدراسة الأُولى كانوا يقولون لنا: إنّ هذه الجملة تحوي من أدوات التأكيد ما قلّ أن يحويه قول آخر.

فالجملة اسمية، و مُصدّرة بـ إنَّ وهذان عاملان من عوامل التأكيد، والأمّارة صيغة مبالغة تفيد التأكيد في إتصاف النفس بهذه الصفة، وتتصدّر كلمة الأمّارة باللام (لأمّارة) مبالغة في التأكيد.

وخُلِعَت لُجُمها، فتقحمت بهم في النار، ألا وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ، حُمِلَ عليها أهلها، وأُعطوا أزِمتّها، فأوردتهم الجنة»[١].

والشُّمُس جمع شَمُوس، وهي: الفرس التي تمنع ظهرها أن يُركب وتمتنع عن الانقياد لصاحبها، وكأنما يركبها صاحبها من دون لجام، ولا يسيطر عليها، فتأخذ الفرس صاحبها معها كما تريد، ولا يأخذ الراكب فرسه حيث يشاء، وكذلك الأهواء والشهوات تَحمِل أهلها فيفقدون السيطرة عليها والقدرة على توجيهها، «خيل شُمس حُمِل عليها أهلها وخلعت لُجُمها» بعكس التقوى التي تُمكّن الإنسان من شهواته وأهوائه، وتطوّع له نفسه، وتروّضها له، وتمكنه من توجيهها، ويَقْدم بها إلى الجنة.

٣ ـ حالة النهم في الهوى تتضاعف بالاستجابة

وهذه حالة ثالثة للهوى تزداد بموجبها إلحاحاً في الطلب، كلما تزداد درجة استجابة الإنسان لها... والقاعدة في سائر الطلبات تقتضي العكس، كلما يستجيب الإنسان لطلب من طلبات النفس تخف حِدّة الطلب وضراوته، وتقرب من حالة الاشباع...

أما الهوى[٢] فالأمر فيه على العكس كلما يبالغ الإنسان في الاستجابة لمطالبه يزداد إلحاحاً وضراوة في الطلب، وتقل سيطرة الإنسان عليه... وبالعكس كلما يحاول الإنسان أن يُخضع الاستجابة لمطالب الهوى للضوابط والمقاييس والمقادير المعقولة يخف طلبه وتزداد سيطرة الإنسان على هواه.

---

(١) نهج البلاغة - محمد عبده ١:٤٤ الخطبة: ١٥.

(٢) لانقصد بالهوى كل الغرائز فمن الغرائز ما تصح فيه هذه القاعدة.

فإن الشهوات كالنيران كلما ينفخ فيها الإنسان تزداد لهيباً وشرراً. والاستجابة المضبوطة والمحدودة بالضوابط والحدود الشرعية أدعى إلى إشباع الهوى من الاستجابة المطلقة وغير المحدودة واللامنضبطة، فان هذا النوع من الاستجابة المطلقة واللامنضبطة تزيد الهوى ظمأ وإلحاحاً وضراوةً، كما تقلل من قدرة الإنسان على ضبط الهوى والسيطرة عليه.

وقد ورد في النصوص الإسلامية الإشارة الى هاتين النقطتين معاً.

النقطة الأُولى: إنّ الاستجابة المطلقة للهوى تزيد الهوى ضراوةً وإلحاحاً في الطلب، وبالعكس، إن الاستجابة المحدودة بالحدود الشرعية تكون أدعى إلى إشباع الهوى واكتفاءه.

عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «ردُّ الشهوة اقضى لها، وقضاؤها أشدّ لها»[1].

والمقصود بـ «ردّ الشهوة» الاستجابة المحدودة والمنضبطة، والمقصود بـ «قضائِها» الاستجابة غير المنضبطة واللامحدودة.

النقطة الثانية: إنّ الاستجابة المطلقة وغير المنضبطة للهوى تُضعف الإنسان تجاه عامل الهوى، إلى الحد الذي يصادر كل إرادته وقدرته على السيطرة على الهوى، فيصبح خاضعاً للهوى، وبعكس ذلك فإنّ الاستجابة المحدودة والمنضبطة للهوى أدعى إلى سيطرة الإنسان على الهوى، وأمكن للإنسان من أهوائه وشهواته.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «مثل الحريص على الدنيا كمثل دود القز، كلما ازدادت من القز، على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت»[2]

---

(١) غرر الحكم للآمدي ١: ٣٨٠ط منشورات الأعلمي. وميزان الحكمة ١١/ ٩٠.

(٢) بحارا الأنوار ٧٣: ٢٣.

سلطان العقل على الهوى

ورغم أن سلطان الهوى على الإنسان سلطان قويّ نافذ، فإن العقل قادر على ضبط الهوى وتنظيمه وتوجيهه، إذا مكّن الإنسان عقله على هواه، وأحكم الإنسان دور العقل في حياته.

وحتى عندما يضعف دور العقل في ضبط الهوى وتَنْفَلِتُ الاهواء من قبضة سلطان العقل، يبقي موقع (العقل) موقع الآمر والناهي والحاكم والزاجر، وموقع (الهوى) موقع المثير للوساوس والأوهام في النفس.

عن علي عليه السلام: «للنفوس خواطرٌ للهوى، والعقول تزجرُ وتنهى»[١].

وروى عنه عليه السلام أيضاً: «للقلوب خواطر سوء، والعقل يزجر منها»[٢]، ومعنى ذلك أن الهوى يثير في النفوس خواطر وأوهاماً ووساوس، وأما السلطان والحكم والزجر والنهي فللعقول.

وعن علي عليه السلام «العقل الكامل قاهر للطبع السَّوء»[٣].

ومعنى ذلك أن طباع الإنسان وأخلاقه، مهما ساء ت، وتأثرت بالاهواء، وتردّت، فإن العقل يبقى سيد الموقف، ويملك القدرة الكافية على قهر طباع السوء، إذا كمل العقل واستقام، وهذا أصل مهم في منهج التربية الإسلامية، نتحدث عنه إن شاء الله في هذه الدراسة بتفصيل فيما بعد.

---

(١) تحف العقول: ٩٦.

(٢) غرر الحكم للآمدي ٢: ١٢١.

(٣) بحار الأنوار ١٧:١١٦.

الإنسان تركيب من العقل والهوى

إذن نستطيع أن نصل إلى نتيجة محددة وواضحة في هذا الشأن، وهي: أن الاهواء، مهما كانت قوتها ونفوذها وفاعليتها في حياة الإنسان، فلا تحكم إرادة الإنسان ولاتسلبه إرادته، إذا قام الإنسان في إكمال عقله وتركيزه وإنضاجه وإبراز دوره في حياته... وذلك أن الإنسان تركيب من العقل والهوى، ويتردّد الإنسان بين هذين العاملين في صعود وسقوط، بمقدار ما يقوم الإنسان في تثبيت دور العقل وتركيزه في حياته، وفي انضاجه وتكميله، أو في إهمال هذا العامل وإغفاله في حياته.

أما الحيوان فيختلف أمره عن الإنسان اختلافاً كبيراً، فليس فيه للعقل شأن ودور، وإنّما يتحكم «الهوى»: (الغريزة) فيه بصورة مطلقة، فهو في الحقيقة يخضع لعامل واحد، وسلوكه تجسيد لسلطان هذا العامل فقط.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله ركّب في الملائكة عقلاً بلاشهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما. فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله، فهو شر من البهائم»[١]

تلطيف الهوى

من المسائل البارزة في الثقافة النفسية في الإسلام مسألة تلطيف الهوى وترقيقه، فإن الاهواء والشهوات والغرائز يمكن أن تُرَقّق وتُلَطّف ويمكن أن تُغلَظ، وفي الحالة الاولي يحكم العقل، وتكتمل إنسانية الإنسان، وفي الحالة الثانية يحكم

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الجهاد: جهاد النفس الباب ٩، ح ٢. ١٥/ ٢١٠ ـ ٢٠٩ آل البيت (ع) و١١/١٦٤، وبحار الأنوار ٥٧/ ٢٩٩، وجامع أحاديث الشيعة ٢٩٨/١٣.

الهوى ويقوى، ويهبط الإنسان إلى الحالة الحيوانية التي تتحكم فيها الأهواء والشهوات، بمقدار ما يقوى الهوى ويضعف العقل.

والإنسان يتحكم في هذه الحالة أو تلك، وإليه يعود الأمر في تلطيف الهوى وتعديله، أو تغليظه واتّباعه. فإذا انقاد للهوى، ونفّذ للهوى ما يريد، وحقّق كل طلباته، غلظ الهوى وتمكّن من الإنسان، وبرز في حياته كقوة فاعلة وكبيرة، ومارس دوراً مؤثراً في مساحة واسعة من حياة الإنسان.

وبعكس ذلك يرق الهوى، ويتلطف، ويتعدل، إذا مارِس الإنسان ضغطاً على أهوائه، وشهواته، وعمل على تعديل شهواته، وضبطها، والسيطرة عليها، والكف من غَلوائها، وإخضاعها لسلطان العقل ونفوذه.

فإن للمتقين أهواءً وشهوات، كما لغيرهم من الناس، والفرق بين المتقين وبين غيرهم هو: أن المتقين تمكنوا أن يملكوا أهوائهم وشهواتهم ويروّضوها، بينما تملك هذه الأهواء والشهوات أصحابها من غير المتقين وتروّضهم وتمكّنها منهم، وللإنسان - وحده - أن يختار هذا أو ذاك، وأداة هذا الاختيار هي ممارسة الضغط على الأهواء ومحاولة ترويضها أو الاستجابة لها.

وسوف نتحدث فيما يأتي من هذه الأبحاث عن وسائل السيطرة على الهوى.

ونتحدث الآن عن النصوص الإسلامية التي تشير الى حالتي الهوى من (الرّقة والغلظة)، ونشير الى طريقة ترقيق الهوى، والأعمال التي تؤدي الى تغليظ الهوى.

ولنبدأ بكتاب الله تعالى:

يقول تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)[١] إنّ هذا الفسوق الذي كرّهه الله الى نفوس المؤمنين، والذي ينفر منه المتقون، هو الذي يتهالك عليه الفاسقون، ويسعون إليه، ويبذلون في السعي إليه الغالي والنفيس.

فمن الذي كرّه هذا الفسوق إلى المؤمنين؟ ومن الذي حبب هذا الفسوق إلى الفاسقين؟ لا ريب أن الله تعالى هو الذي كرّه إلى المؤمنين هذا الفسوق، وقلب المؤمن في قبضة سلطان الله، وأما الذي حبّب هذا الفسوق إلى الفسّاق فهو الاستجابة للفسوق والرضا والانقياد للهوى.

عن رسول الله ﷺ: «المداومة على الخير كراهية الشر»[٢]. إنّ مواصلة الخير والاستمرار فيه يؤدي إلى كراهية الشر، والشر هنا هو الشهوات واللذات التي يطلبها الناس، وهذه الشهوات واللذات المحرّمة هي بالذات التي يطلبها ويسعى إليها المنحرفون والفساق، والعكس صحيح أيضاً، فإن المداومة على الشر يعمّق حبّ الشر في النفس، وهو أمر طبيعي ومعقول في هذا السياق.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة المتقين المعروفة بخطبة همّام: «تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتةً شهوته، مكظوماً غيظه»[٣].

إن التقوى ترقق شهوات الإنسان وأهواءه، فتتحوّل النفوس الحريصة والجشعة بالتقوى، إلى نفوس قانعة، وتتلطّف الشهوات فيها حتى تكاد تكون ميتة.

---

(١) الحجرات: ٧.

(٢) بحار الأنوار ١: ١١٧، وتحف العقول للحراني: ١٥.

(٣) نهج البلاغة، خطبة المتقين (همّام).

وليس المقصود بهذا النص وأمثاله من النصوص أنّ دور التقوى هو كبح الشهوات، وإن كان هذا صحيحاً في حدّ ذاته إلى حدّ ما (في حدود ضبط الهوى والسيطرة عليها)، إلا أنّ الدور الآخر للتقوى في النفس هو تلطيف الشهوات وترقيقها، وهذا هو الذي نطلبه نحن من استعراض هذه النصوص، وإليك طائفة أُخرى من هذه النصوص نذكرها من دون تعليق:

عن علي عليه السلام: «كلّما قويت الحكمة، ضعفت الشهوة»[١].

وعنه عليه السلام: «اذا كثرت المقدرة قلت الشهوة»[٢]. وعنه عليه السلام: «العفة تضعف الشهوة». [٣] وعنه عليه السلام: «من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات»[٤]. وعن علي عليه السلام: «واذكر مع كل لذه زوالها، ومع كل نعمة انتقالها، ومع كل بلية كشفها، فإن ذلك أبقى للنعمة، وأنقى للشهوة، وأذهب للبطر، وأقرب للفرج، وأجدر بكشف الغمة ودرك المأمول»[٥].

والتقوى وضبط النفس يتحكمان في شهوات الإنسان وغرائزه، إلى حدود بعيدة جداً، حتى تتكيف أهواؤه الإنسان وشهواته بموجب حدود الله، فيهوى الإنسان ويحب ما يحبه الله تعالى، ويكره الإنسان وينفر عما يكرهه الله تعالى، وذلك أقصى حدود التفاعل بين الإنسان وبين حدود الله تعالى، وإلى هذا الانقلاب النفسي

---

(١) غرر الحكم للآمدي ٢: ١١١. وعيون الحكم والمواعظ لعلي بن محمد الليثي الواعظي ص ٢٩٥، وميزان الحكمة ٤/ ٣٤٨٤.

(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٦٨ ونهج البلاغة، الحكمة: ٢٤٤.

(٣) غرر الحكم للامدي ١:١١٨.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة: ٣١.

(٥) غرر الحكم للامدي.

العجيب تشير الآية الكريمة: (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)[١] إن التقوى - في هذه المرحلة من التأثير في الإنسان - لاتمنع صاحبها من الكفر والفسوق والعصيان، فحسب، وإنّما تكرّهها إليه.

---

(١) الحجرات: ٧.

الدور الإيجابي للهوى في حياة الإنسان

نظراً للدور التخريبي الواسع للهوى في حياة الإنسان، والذي سوف نتحدث عنه إن شاء الله تعالى فيما يلي من هذا الحديث... من الطبيعي أن يتساءل الإنسان: لماذا خلق الله تعالى الهوى في نفس الإنسان؟ وما هو الدور الإيجابي للهوى في حياة الإنسان؟

وفيما يلي نقدم الاجابة على هذا السؤال:

١ ـ الهوى العامل المحرك الاقوى في حياة الإنسان

الهوى من أعظم العوامل المحركة في سلوك الإنسان، وقد ربط الله تعالى معظم القضايا الحيوية في حياة الإنسان بعامل الهوى، وجعل من عامل الهوى ضماناً لتأمين هذه الحاجات الأساسية.

فالتناسل (مثلاً) أمر أساس في حياة الإنسان، ومن دونه ينقرض الإنسان، ولابد من توفير ضمانات كافية في حياة الإنسان لاستمرار التزاوج والتناسل، حتى لا ينقرض نسله، والغريزة الجنسية هي الضمان، وقد ربط الله تعالى هذا الشأن الخطير المهمّ من شؤون الإنسان بهذه الغريزة.

وربط الله تعالى نمو الإنسان بغريزة الأكل والشرب، ولولا هذه الغريزة لم يَنْمُ الإنسان ولم يتمكن من إعادة بناء الخلايا التي تستهلكها الحركة والجهد.

وربط الله تعالى الحياة الاجتماعية بغريزة النزوع إليها في النفس، ولولا هذه الغريزة لتلاشت الحياة الاجتماعية، وتلاشت حضارة الإنسان ونموه ونضجه وحركته.

وربط الله تعالى الحياة الاقتصادية والمعيشية للإنسان بغريزة التملك، ولولا هذه الغريزة لتهدم النظام الاقتصادي في حياة الإنسان.

وربط الله تعالى الدفاع عن النفس، والكرامة، والمال، والاهل بغريزة الغضب، ولولا هذه الغريزة لاتصل العدوان وانقطع الدفاع في حياة الإنسان.

وهكذا شاء الله تعالى أن يربط ضرورات حياة الإنسان التي لا يستطيع أن يعيش على وجه الاض من دونها بسلسلة من الغرائز تؤمّن له استمرار هذه الضرورات.

٢ـ الهوى سُلَم للكمال

إن الهوى سُلّم الكمال في حياة الإنسان، كما هو المنزلق الذي ينزلق الإنسان عليه للسقوط، ولهذا السُلم الذي يرقى عليه الإنسان إلى الله تعالى دورٌ وشأن في نموّ الإنسان وتكامله، وهذا إجمال لابد له من تفصيل وشرح، وإليك هذا الشرح:

إن حركة الإنسان التكاملية إلى الله ونضجه ونموه تتم من خلال (الارادة)، بعكس الجماد والحيوان والنبات فإن هذه الكائنات تنمو وتتكامل بصورة قهرية، ومن دون ارادة، أما الإنسان فقد أكرمه الله تعالى بالارادة، وجعل حركته وسيره إليه تعالى بالارادة والاختيار، والإنسان والكائنات الأُخرى «من الجماد والنبات والحيوان» سواء في أنها جميعاً تنفذ إرادة الله تعالى ومشيئته، إلاّ أن الإنسان ينفذ المشيئة الالهية بارادة واختيار، والكائنات الأُخرى تنفذ المشيئة بصورة قهرية ومن دون إرادة واختيار.

إن (الحدود الالهية) هي الإرادة التشريعية لله تعالى يريدها ويطلبها من الإنسان ولكن بارادته واختياره، كما أن (السنن الالهية) هي مشيئة الله تعالى وإرادته التكوينية، يريدها من الجماد والنبات والحيوان بصورة قهرية، ومن دون اختيار وإرادة.

ولذلك فإن الإنسان بحسب القرآن خليفة الله (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[١] وسائر الكائنات (مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِه)[٢]. و«الخلافة» و«التسخير» يشتركان في نقطة، ويفترقان في أُخرى، أما التي يشتركان فيها فهي: أنهما ينفذان ويطيعان أمرِ الله تعالى ومشيئته، وأما التي يفترقان فيها فهي: أن «الخليفة» ينفذ أمر الله تعالى عن إرادة واختيار، (والمسخرات بأمره) تنفّذ أمر الله تعالى، من دون اختيار وبصورة قهرية.

وهذه النقطة بالذات هي سرّ قيمة الإنسان وسموّه، ولولا أن طاعة الإنسان لله تعالى وتنفيذه لمشيئته تعالى تتم عن إرادة واختيار، لما كان للإنسان قيمة فوق قيمة الكائنات الأُخرى.

وهذه الحركة والطاعة عن إرادة واختيار هي التي أهّلت الإنسان ليكون «خليفة» لله تعالى من دون سائر الكائنات، وتتناسب قيمة عمل الإنسان مع ما يبذله من جهد اختياري في الطاعة، والامتثال، فكلما كانت إرادة الطاعة تتطلب جهداً نفسياً، ومعاناة اكثر، كانت قيمة العمل أعظم عند الله، والحركة الناجمة عن هذا العمل أقرب إلى الله، فلا يمكن أن تتساوى قيمة عمل لا يتطلب جهداً ومعاناةً من الإنسان وعمل آخر يتطلب من الإنسان جهداً ومعاناة كبيرة.

وفرق كبير بين قيمة «الاكل والشرب» وقيمة «الصوم»، رغم أن كُلاً من «الاكل والشرب» و«الصوم» يتم عن إرادة وتنفيذ لامر الله تعالى وحكمه، ولكن «الاكل والشرب» لا يكلف الإنسان جهداً ومعاناة في الارادة، والصوم يتطلب من الإنسان جهداً وكفّاً نفسياً كبيراً، وقيمة العمل تقدر بقدر هذه المعاناة، وبقدر الجهد النفسي

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الأعراف: ٥٤، والنحل: ١٢.

الذي يتطلبه العمل، وبمقدار الكدح الذي تتطلبه هذه الحركة.

وكلما تكون هذه المعاناة أعظم، والكدح أكبر، تكون للعمل قيمة أعظم، ويكون له دور أكبر في نمو الإنسان وكماله وحركته إلى الله وقربه منه تعالى، إذن الشأن كل الشأن في قيمة العمل في ابتغاء وجه الله (النيّة) أولاً، ثم في المعاناة التي يتطلبها العمل.

فما هي هذه المعاناة؟ وكيف تحصل؟ ولماذا تختلف درجاتها؟

هذه المعاناة هي التي يصطلح عليها في الثقافة الاسلاميه بـ «الابتلاء»، وتحدث هذه المعاناة بمواجهة الاهواء والشهوات، ولولا هذه الاهواء والغرائز التي أودعها الله تعالى في نفوسنا، ولولا أن طاعة الله تعالى وابتغاء رضوانه تتم بمخالفة هذه الاهواء والشهوات، لم تكن للعمل قيمة، ولم يكن العمل عاملاً في حركة الإنسان وقربه إلى الله تعالى.

ويأتي اختلاف درجات المعاناة نتيجة اختلاف درجات الاهواء والشهوات في القوة والشدة، فكلما كانت الأهواء والشهوات أقوى واكثر إلحاحاً، كانت معاناة الإنسان في ضبطها[1] ومخالفتها والسيطرة عليها أعظم، وكلما كان العمل يتطلب من الإنسان جهداً أكبر في مخالفة الاهواء والشهوات، يكون ذلك العمل أعظم قيمة في حركة الإنسان إلى الله وفي تقربه منه تعالى، وفيما يؤتيه الله تعالى به من الثواب في الجنة.

وتبرز لنا بهذا الشرح قيمة «الهوى» في حركة الإنسان إلى الله، فإن حركة

---

(١) نحن في غنى من التأكيد على الموقف الإسلامي الوسط من الغرائز، فالاسلام لا يدعو الى كبت الغريزة وحرمانها، ولا يسمح باطلاق عنان الغريزة، وانما يطلب من الإنسان الاستجابة للغريزة ضمن الحدود والضوابط الشرعية.

الإنسان إلى الله وكدحه لابد أن تمر عبر هذه الاهواء والشهوات التي أودعها الله تعالى في النفس.

يقول تعالى: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً)[1]. والآية الكريمة صريحة أن كل الناس يردون جهنم، ويتم هذا الورود عبر صراط على جهنم، فمن استقام في الدنيا على الصراط المستقيم عبر الشهوات والاهواء، يستقم هناك عبر الصراط، فيعبر جهنم من غير أن تمسّه النار، ومن لم يلتزم في الدنيا بالصراط المستقيم وانحرف عن الصراط وسقط في الاهواء والشهوات، لا يستقم يوم القيامة على الصراط ويسقط في نار جهنم وعذابها.

وعليه، فإن الطريق إلى الله يمرّ عبر الشهوات والأهواء، فإذا قاومها الإنسان هنا يسلم، وإذا انقاد لها يسقط.

وهذا هو معنى ما ذكرنا من أن الهوى سُلّم لحركة الإنسان إلى الله تعالى، كما هو منزلق لسقوطه وهلاكه، وهذا المعنى من طرائف الفكر الإسلامي، وإليه تشير مجموعة من النصوص الإسلامية، نورد فيما يلي نصّين منها في هذا المعنى:

١ - عن أبي البجير، وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: أصاب النبي ﷺ يوماً جوع شديد، فوضع حجراً على بطنه ثم قال: «ألا رُبَّ طاعمة، ناعمة في الدنيا جائعة، عارية، يوم القيامة ألا رُبَّ مُكرم لنفسه، وهو لها مهين، ألا ربّ مهين لنفسه، وهو لها مكرم، ألا ربّ متخوض، متنعم، فيما أفاء الله على رسوله، ما له عند الله من خلاق، ألا وإن «عمل الجنة» حَزْنة بربوة، ألا وإن «عمل النار» سهلة بشهوة، ألا يا

---

(١) مريم / ٧١ ـ ٧٢.

ربَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً»[١].

وفي هذا النص مجالات واسعة للتأمل والتفكير والاستنتاج: فربَّ نفس طاعمة، ناعمة، تستجيب لأهوائها ولذّاتها، وتنال ما تطلب من غير كف ولا ورع... تأتي يوم القيامة جائعة عارية.

وربّ إنسان يتراءى له أنه يكرم نفسه بالاستجابة لطلبها وشهواتها، وهو في الواقع مهين ومؤذ ومذلٌ لها.

وربّ إنسان يأخذ نفسه على الخشونة والتقشف والشدّة، ويمنعها، ويذلها ويهينها إذا رامت شيئاً من الاسترسال مع شهواتها ولذاتها... وهو في الحقيقة مُكرم لنفسه.

وربّ إنسان يخوض في لذاته وشهواته، ولاخلاق له في الآخرة، ولا ينال شيئاً من متاع الآخرة ولذاتها.

ثم تقول الرواية: «ألا وإن عمل الجنة حَزْنة بربوة» والحزنة: هي الأرض الخشناء وما غَلُظ من الأرض (الربوة: المرتفع من الأرض. التل)، و«عمل الجنة» كالحركة على أرض خشناء بربوة عالية، وأما «عمل النار» فهو كالحركة على أرض سهلة بشهوة ولذة وراحة.

والذي يتحرك على أرض خشناء بربوة عالية يعاكس الجاذبية والعافية وطلب الراحة والعافية، ويكافحها، ويصدها، أما الذي يتحرك على أرض سهلة فهو

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي: ٣٨. ورواه السيوطي في الجامع الصغير باختلاف يسير. وسبل السلام لمحمد بن اسماعيل الكحلاني ٤/ ١٧٩، والآحاد والمثاني للضحاك ٥/ ١٦٥، ومسند الشهاب لابن سلامة ٢/ ٣٠٨، وكنز العمال ١٥/ ٨٨٣.

يستجيب للجاذبية ويستسلم لها. وهذا هو الفرق بين «عمل الجنة» و «عمل النار» وبين الطاعة والمعصية.

٢ - وفي «نهج البلاغة» عن علي عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: «إن الجنة حُفَّت بالمكاره وإن النار حُفَّت بالشهوات، واعلموا: أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله امرءاً نزع نفسه عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى»[1].

وهذا نص معبر ودقيق في هذا الاصل الذي ذكرناه واستخرجناه من النصوص الإسلامية، فإن الجنة والنار هما غايتان للإنسان: إحداهما: غاية لحركة الإنسان الصاعدة إلى الله والأخرى غاية لسقوط الإنسان.

والأولى محفوفة بالمكاره، ويجتاز الإنسان إليها الطريق عبر المكاره، وتأتي هذه المكاره من مكافحة الشهوات وضبطها، وكفّها من داخل النفس، وهي ما عبَّرنا عنها بالمعاناة، والأخرى محفوفة بالشهوات، فإن انزلاق الإنسان للسقوط يمر من خلال الشهوات واللذات والاهواء.

ثم يقرّر الإمام عليه السلام أصلاً عاماً في ضوء حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة» ففي كل طاعة لله كراهية، وهذه الكراهية تنبع من انتزاع النفس في الطاعة من شهواتها، ولذاتها، وكف النفس عن الشهوات، وفي كل معصية لذة وشهوة، لأنها تأتي استجابة لأهواء النفس وشهواتها.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٦. ومنية المريد للشهيد الثاني: ٣٣٠، وميزان الحكمة ١/ ٤٢٨.

وبعد هذا التفصيل والاستعراض لا نجد مشقة في قبول هذه الحقيقة، وهي: أن طريق تكامل الإنسان ونموه وحركته إلى الله يمر عبر الاهواء والشهوات، وهذه الاهواء والشهوات هي السلّم الذي يصعد عليه الإنسان إلى الله تعالى... ولولا هذه الاهواء التي أو دعها الله تعالى في نفس الإنسان لما تسنّى للإنسان أن يصعد إلى هذه القمة التي أهّله الله تعالى لها.

٣ ـ التفاعلات التي تجري داخل النفس

وهذه الأهواء والشهوات التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، ذخائر ادَّخرها الله تعالى للإنسان، يستخرج منها ما يحتاج إليه في حركته.

فكما أودع الله تعالى في جوف الأرض ذخائر لمأكله وملبسه ومعيشته، وأودع في البحار ذخيرة الماء التي يحتاجها الإنسان في شربه وسقيه، وأودع في الجو ذخيرة الهواء «الغازات» التي يحتاجها الإنسان في تنفسه، والإنسان يستخرج ويأخذ حاجته من الهواء والماء والطعام والملبس والمواد الخام من هذه المصادر الثلاثة بالتدريج،... كذلك أودع الله تعالى للإنسان كنوزاً من العلم، والعزم، واليقين، والوفاء، والشجاعة، والاخلاص، والعفة، والفن، والبصيرة والابداع، والصبر، والإباء، والعبودية، والحسم،... في طيات نفسه، ضمن هذه الأهواء والشهوات والغرائز.

ان هذه الغرائز هي مقوّمات وجود الحيوان، ومعظم هذه الغرائز توجد في فصائل الحيوانات، ولكن الإنسان من دون سائر الحيوانات، آتاه الله تعالى القدرة على كفّها وصدّها، وضبطها، وتحديدها... وعامل هذا الكف والضبط هو الارادة.

وهذه الأهواء والغرائز الحيوانية الجامحة تتحول تحت هذا العامل الضاغط إلى قيم معنوية، وفضائل أخلاقية، وبصيرة، ويقين، وعزم، وحزم، وإقدام، وتقوى... ـ.

وهذه الغرائز الحيوانية بالذات التي تشكل الشطر الحيواني من شخصية الإنسان، تتحول إلى قيم خلقية تعتبر هي المادة الأساسية للشطر السامي من شخصية الإنسان... تحت عامل الضبط والكف.

كيف تتحول هذه الغرائز الهائمة والجامحة بفضل «الكف» و «التقوى» إلى هذه القيم السامية في شخصية الإنسان، وأي فعل وانفعال يجري داخل النفس حتى تتحول هذه الغرائز - عند الكف والتقوى - إلى علم ويقين وصبر وبصيرة؟

لا نعلم، ونأسف أن نقول لا نعلم، فهذا باب واسع من المعرفة لا يزال مغلقاً على الإنسان، ولم يتهيأ لحد الان لها من يقتحمها ويفتحها، لا من أصحاب الدراسات النفسية القديمة والحديثة، ولا من ذوي الدراسات الإسلامية، ولكننا نرجع إلى انفسنا فنجد إشارات ومعالم واضحة لهذه التفاعلات الضخمة التي تجري في داخل النفس.

فالحياء، مثلاً - ليس عاملاً للضغط على غريزة الجنس فحسب، وإنّما هو نتاج هذا الكف والضغط على الغريزة أيضاً، وبقدر ما يكف الإنسان هذه الغريزة يكتسب حياءاً تجاه هذه الممارسة في الحدود المنافية للاخلاق، والادب، والفن، والذوق، ونقصد بالادب شيئاً آخر غير أدب الفراش المبتذل، أما الادب الرفيع والفن والذوق الذي يتميز به الإنسان دون الحيوان فيأتي نتيجة هذا الكف والتقوى الذي يمارسه الإنسان في حقل الغريزة.

ونعود إلى القرآن، فنجد أننا نلتقي بنفس الاشارات والمعالم التي كنا نعرفها في أنفسنا، من قبل هذه التفاعلات الضخمة التي تجري في النفس.

يقول تعالى: (... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ...)[1]. هل أن جملة «ويعلمكم الله»

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

معطوفة على جملة «واتقوا الله» دون أن يكون بينهما صلة وارتباط؟ أم أن هاتين الجملتين تعتبران طرفي معادلة واحدة.

الذي يألف أسلوب القرآن الكريم لا يشكّ أن هاتين الجملتين طرفا معادلة واحدة، وهذا العلم الذي يؤتيه الله تعالى عباده هو نتيجة التقوى وأثرها، وهذا العلم شيء آخر غير العلوم والمعارف التي يكتسبها الإنسان بالدراسة، وإنّما هو النور الذي يمنحه الله تعالى من يشاء من عباده.

وإلى هذا النور تشير الآية الكريمة من سورة الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾(١).

هذا النور هو ذلك العلم، والعلاقة بينه وبين التقوى واحدة في سورتي البقرة والحديد. إن التقوى هي ممارسة الكف للغريزة، وهذا الكف الذي يمارسه الإنسان على الغرائز والاهواء يتحول إلى نور وعلم وبصيرة.

ونقرأ في قصة يوسف عليه السلام في القرآن: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

ونقرأ نفس النصّ في قصّة موسى عليه السلام : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

فلماذا خصّ الله تعالى موسى بن عمران ويوسف عليهما السلام بهذه الموهبة دون سائر

---

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) يوسف: ٢٢.

(٣) القصص: ١٤.

الناس؟ وهل هذه الموهبة «الحكم والعلم» يعطيها الله تعالى لبعض عباده دون بعض اعتباطاً؟ أو أن ذلك يدخل ضمن السنن الإلهية الثابتة؟

إن الذين يألفون لغة القرآن لا يترددون لحظة واحدة في أن القرآن الكريم يربط الحكم والعلم في هاتين الآيتين في سورتي يوسف والقصص بأصل «الإحسان».

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ). وعندما يربط الحكم والعلم الذين تلقاهما موسى ويوسف عليهما السلام من لدن الله تعالى بالاحسان بموجب سنن الله تعالى... فإن معنى ذلك أن إحسان المحسنين هو الذي يستدعي رحمة الله تعالى، ويستنزل الحكم والعلم من لدن الله تعالى على عباده المحسنين.

ولو اختصرنا الطريق وتجاوزنا الوسائط في المعادلة، واختزلنا هذه المعادلة لقلنا: إن الإحسان يتحول الى حكم وعلم.

ولا شك أن التقوى وكفّ النفس من أبرز مصادر الإحسان.

ولست أُحب أن أسترسل في هذا البحث أكثر من هذا الحدّ، وذلك لأنني لا أملك مفاتيح هذا البحث الخطير، وأرجو أن يُهيّئ الله تعالى لهذا البحث من يدخله بجدارة وكفاءة، فليس من شك في أن هناك تفاعلات وتبادلات ضخمة تجري داخل النفس، كما تجري هذه التفاعلات والتبادلات داخل حقول الفيزياء، والكيمياء، والجيولوجيا، فتتحول الحرارة إلى حركة، والحركة إلى حرارة، وتتحول الطاقة الكهربائية إلى حركة، وتتحول الحركة إلى طاقة كهربائية... تحجز السدود تدفق المياه في الأنهار بالحواجز الحديدية القوية المقاومة، فيتحول الضغط الهائل الناتج من تدفق المياه ومقاومة الحواجز الحديدية إلى طاقة كهربائية هائلة، تتحول إلى نور وحركة وحرارة، وكما تجري هذه التفاعلات والتحولات العظيمة في

حقول الكيمياء والفيزياء والميكانيك كذلك تجري تفاعلات كبيرة وضخمة في داخل النفس، ويشير القرآن الكريم إشارات سريعة وخاطفة الى هذه التفاعلات والتبادلات التي تجري في داخل النفس، وعلى علماء النفس الإسلاميين أن يكتشفوا هذا الحقل المهم من حقول النفس وقوانينه وأُصوله.

الدور التخريبي للهوى

الهوى والطاغوت

«الهوى» أحد قطبي التخريب في حياة الإنسان، والقطب الآخر هو «الطاغوت»، و«الهوى» يمارس التخريب من داخل النفس، و«الطاغوت» يعمل في التخريب من الخارج، وكلاهما يجرّان الإنسان الى الفساد ويفسدان الإنسان، إلاّ أن الهوى يفسد الإنسان من الداخل والطاغوت يفسده من الخارج.

والشيطان ينفذ الى داخل النفس من خلال الهوى غالباً، والى المجتمع والحياة الاجتماعية من خلال الطاغوت غالباً.

وقد أمرنا الله تعالى في كتابه أن ننهى النفس عن الهوى ولا نتّبعه، ونكفه عن نفوسنا:

(فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى)[1]. (وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)[2].

(وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ)[3].

كما أمرنا الله تعالى أن نكفر بالطاغوت ونتجنب الطاغوت:

(يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ)[4].

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى)[5].

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) سورة ص: ٢٦.

(٣) المائدة: ٤٨.

(٤) النساء: ٦٠.

(٥) الزمر: ١٧.

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[١].

العقل والدين

وفي مقابل الهوى والطاغوت فتح الله تعالى للإنسان دليلين على الاستقامة هما «العقل» و«الدين»، ودور العقل هو تقويم سلوك الإنسان من الداخل، ودور «الدين» هو تقويم سلوك الإنسان من الخارج.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «العقل شرع من داخل، والشرع عقل من خارج»[٢].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «إن لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول) [٣].

و«العقل» و«الدين» يتصديان داخل النفس وفي المجتمع لمكافحة الهوى والطاغوت، وقد روي عن علي عليه السلام: «قاتل هواك بعقلك»[٤].

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) مجمع البحرين للطريحي مادة «عقل». قال الدكتور توفيق الطويل في (أسس الفلسفة) ص ٢٩٠ عن (كارداي فو): (التشيع رد فعل لفكر حرّ طليق يقاوم جموداً عقلياً بدأ في مذاهب أهل السنة) ثم قال: الدكتور الطويل: كان للشيعة فضل ملحوظ في إغناء المضمون الروحي للإسلام، فبإن بمثل حركاتهم الجامحة تأمن الأديان التحجر في قوالب جامدة).

(٣) بحار الأنوار ١: ١٣٧، واصول الكافي ١: ١٦. وتحف العقول للحراني ٣٨٧ ط ١٤٠٤، ووسائل الشيعة ١٥/ ٢٠٧ ط آل البيت، و١١/ ١٦٢ .

(٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار. وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ٤٢٠ وعيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي ٣٧١ .

الحالة التخريبية للهوى

هـذه القـوة المطلقـة ذات الطلـب المطلـق تملـك قـدرة واسـعة علـى التخريـب والافساد في داخل النفس، لا تضاهيها قوة أبداً، حتى الشيطان والطاغوت.

وأخطر ما في هذا الامر أن هذه القوة ذات المقدرة الواسعة على التخريب كامنة في داخل النفس ومودعـة بـين جنبـي الإنسـان، ولا سـبيل للإنسـان للـتخلص منهـا، ولذلك فإن «الهوى» أحد اثنين هما أخوف ما يخافه رسول الله ﷺ على أُمته.

عن رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف علـى أُمتـي: الهـوى وطـول الأمـل، أمـا الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[1].

ذلك أن الهوى عامل تخريب وإفساد للإنسان من داخل الـنفس. وقـد روي عـن أمير المؤمنين عليه السلام: «اللذات مفسدات»[2].

ولنتأمل في طبيعة الدور التخريبي الـذي يؤديـه الهـوى فـي حيـاة الإنسـان! ففـي نفـس الإنسـان - كمـا ذكرنـا - طائفـة مـن المصـادر التـي تمـوّن الإنسـان بـالوعي والحركة، وهذه المصادر هي التي تقـوّم حيـاة الإنسـان الماديـة والمعنويـة، وتقـوّم الشطر السامي كما تقوم الشطر الحيواني الغريزي من حياة الإنسان.

والهوى، هو واحد من هذه المصادر، إذا استشرى وطغـى يعطّـل سـائر المصـادر في نفس الإنسان، فيلغي دور العقل، والقلب، والضمير، والفطرة، والارادة، ويفرغهـا من محتواها.

والتخريب الذي يجري في هذه المصادر تخريب شامل لدى شخصـية الإنسـان،

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٨٨ حديث ١٩ و ٧٠: ٧٥، حديث ٣و٧٧: ٧٠، حـديث ٩و٧. والخصـال للشـيخ الصدوق ص ٥١، ووسائل الشيعة ٣/ ٤٢٨ آل البيت و٢/ ٦٥١، ومشكاة الأنوار للطبرسي/ ١٦٠ .

(٢) غرر الحكم للآمدي ١٣:١.

ولا يبقى بعد عملية التخريب الواسعة لهذه المصادر في النفس إلاّ الهوى، وهو يعتبر الجانب الحيواني من شخصيّة الإنسان.

وهكذا يتحول هذا العامل المفيد والنافع في حياة الإنسان إلى عامل للتخريب والافساد والتضييع.

يقول تعالى: (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)[1]، و«الفرط» من التفريط بمعنى التضييع والافساد.

وقد أولت النصوص الإسلامية اهتماماً كبيراً للدور التخريبي للهوى في حياة الإنسان، محذرةً الناس من الوقوع في شركه، ومن تمكين الهوى من أنفسهم.

وفيما يلي نحاول أن نستعرض الدور التخريبي للهوى في حياة الإنسان من خلال النصوص الإسلامية على منهجنا في هذه الدراسة.

ونجد عند استعراض النصوص الإسلامية أن لتخريب الهوى مرحلتين اثنتين:

في المرحلة الأولى يقوم الهوى بدور تخريبي واسع في إفساد وتعطيل الطاقات ومصادر الوعي والحركه التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان.

وفي المرحلة الثانية، بعد أن يتم للهوى تعطيل وإفساد مصادر الحركة والوعي في النفس يقوم الهوى بفرض سلطانه ونفوذه الشامل على الإنسان، ويعمل على أخضاع الإنسان إخضاعاً كاملاً لنفوذه وسلطانه، وعلى إسقاطه في أسره بشكل كامل، وعند ذلك يتحول الإنسان بما آتاه الله تعالى من طاقات وكفاءات وذكاء، وفهم وموقع، إلى أداة طيعة للهوى، مقهورة لسلطانه.

وفيما يلي نستعرض إن شاء الله هاتين المرحلتين من الدور التخريبي للهوى في

---

(١) الكهف: ٢٨.

حياة الإنسان من خلال النصوص الإسلامية:

المرحلة الأولى من الدور التخريبي للهوى:

يقوم الهوى في هذه المرحلة - كما ذكرنا - بعمل واسع في إفساد وتعطيل الطاقات والكفاءات، ومصادر الوعي والحركة التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان.

ونجد لدى مراجعة النصوص الإسلامية طائفة واسعة من عناوين التخريب والافساد للهوى في حياة الإنسان، انتقينا منها هذه المجموعة لهذه الدراسة:

١ ـ الهوى يغلق منافذ القلب على الهدى:

يقول تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[١]. ويقول تعالى: (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ)[٢].

إذن يؤدي اتّباع الهوى الى انغلاق القلب انغلاقاً كاملاً على الله ورسوله، وعلى آيات الله وحججه، وبيّناته ،وهداه، ويسلب القلب الاستجابة لله ولرسوله، ويغلق منافذه على الله ورسوله.

عن علي عليه السلام : «من اتّبع هواه أعماه، وأصمّه، وأذلّه»[٣]..

وعنه عليه السلام : «الهوى شريك العمى»[٤].

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) القصص: ٥٠.

(٣) غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٤٢.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب رقم: ٣١.

وعنه عليه السلام : «إنّك إنْ أطعت هواك أصمّك وأعماك»(١).

وعنه عليه السلام : «أُوصيكم بمجانبة الهوى، فإنّ الهوى يدعو إلى العمى وهو الضلال في الآخرة والدنيا»(٢).

٢ ـ الهوى ضلال وصدّ عن سبيل الله:

يقول تعالى: (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)(٣). ويقول تعالى: (وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)(٤).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ أخوف ما أخاف على أُمتي؛ الهوى، وطول الأمل، أما الهوى فإنّه يصدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»(٥).

٣ ـ الشهوات سمومات:

عن علي عليه السلام: «الشهوات سمومات قاتلات»(٦).

---

(١) غرر الحكم للآمدي ١: ٢٦٠.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٣٤٥ ط قديم.

(٣) مريم: ٥٩.

(٤) سورة ص: ٢٦.

(٥) الخصال للصدوق ص ٥١ منشورات جامعة المدرسين قم ١٤٠٣هـ، ووسائل الشيعة ٢/ ٤٢٨ (ط/ آل البيت)، ومشكاة الأنوار لعلي الطبرسي: ١٦٠ وغوالي اللئالي لابن أبي جمهور الاحسائي ٤/ ٧٦ ط/ ١٤٠٥هـ قم، وبحار الأنوار ٧٠:٧٥ حديث ٣، و٧٧:٧٠ حديث ٧، ٨٨:٧٠ حديث ١٩. والحديث مروري عن امير المؤمنين عليه السلام ايضاً.

(٦) غرر الحكم للآمدي ١: ٤٤.

٤ـ الهوى آفة ومرض:

عن علي عليه السلام: «من تسرّع إلى الشهوات تسرّعت إليه الآفات»[١].

وعنه عليه السلام: «احفظ نفسك من الشهوات، تسلم من الآفات»[٢].

وعنه عليه السلام: «رأس الآفات الوله باللذات»[٣].

وعنه عليه السلام: «قرين الشهوة مريض النفس معلول العقل»[٤].

وعنه عليه السلام: «الشهوات أغلال قاتلات، وأفضل دوائها اقتناء الصبر عنها»[٥].

وعنه عليه السلام: «الانقياد للشهوة من أدوء الداء»[٦].

وعنه عليه السلام: «أوّل الشهوة طرب وآخرها عطب»[٧].

٥ـ الهوى أساس محنة الإنسان:

عن علي عليه السلام: «الهوى أُسّ المحن»[٨].

٦ـ الهوى مطية الفتن وبدايتها:

عن علي عليه السلام: «الهوى مطية الفتن»[٩].

---

(١) غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٠١.

(٢) غرر الحكم للآمدي.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١:٣٧٢.

(٤) غرر الحكم للآمدي ٢: ٧٧ ـ ٧٨.

(٥) غرر الحكم للآمدي ١: ٩٠.

(٦) غرر الحكم للآمدي ١: ٧٢.

(٧) غرر الحكم للآمدي ١: ١٩٥.

(٨) غرر الحكم للآمدي: ١:٥٠.

(٩) غرر الحكم للآمدي ١:٥١.

وعنه عليه السلام: «إنّما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تُتّبع»[١].

وعنه عليه السلام: «إياكم وتمكّن الهوى منكم، فإن أوّله فتنة، وآخره محنة»[٢]

٧ـ الهوى سقوط:

عن علي عليه السلام: «الهوى يُردي»[٣].

وعنه عليه السلام: «الهوى هوًى إلى اسفل السافلين»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «لاتدع النفس وهواها، فإن هواها رداها»[٥].

٨ـ الهوى هلاك:

عن علي عليه السلام: «أهلك شيء الهوى»[٦].

وعنه عليه السلام: «الهوى قرين مهلك»[٧].

٩ـ الهوى عدوّ الإنسان:

عن الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم»[٨].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ١٢.

(٤) غرر الحكم للآمدي: ١: ٦٥.

(٥) البحار ٧٠: ٨٩ حديث ٢٠.

(٦) غرر الحكم للآمدي ١: ١٨٠.

(٧) غرر الحكم للآمدي ١: ٤٧.

(٨) بحار الأنوار ٧٠: ٨٢ حديث ١٢. والكافي ٢/ ٣٣٥ والوسائل ١١/ ٣٤٦ أبواب جهاد النفس باب/٨١ ح/ ١ .

١٠ ـ الهوى يعطّل العقل:

عن علي عليه السلام: «آفة العقل الهوى»[١].

وعنه عليه السلام: «من لم يملك شهوته لم يملك عقله»[٢].

وعنه عليه السلام: «زوال العقل بين دواعي الشهوة والغضب»[٣].

هذه هي حالة الهوى إذا طغى، فإنه يتحول من عنصر نافع ومفيد وأساس في حركة الإنسان إلى الله، إلى عامل للتخريب والهدم وتعطيل المنابع والمصادر الرئيسة لانسانية الإنسان.

هذه هي المرحلة الأولى من عمل الهوى، وهو الجانب السلبي التخريبي من دور الهوى في حياة الإنسان.

المرحلة الثانية من الدور التخريبي للهوى

سقوط الإنسان في أسر الهوى

ولا يقتصر إفساد الهوى وتخريبه على الجانب السلبي الذي شرحناه آنفاً، وإنّما يتجاوز الامر بعد ذلك إلى المرحلة الثانية من الافساد.

ففي المرحلة الأولى يعطّل الهوى إرادة الإنسان، وعقله، وضميره، وقلبه، وفطرته، وهي التي يعبر عنها القرآن الكريم بـ«إغفال القلب».

وفي المرحلة الثانية، عندما يتم للهوى تعطيل مراكز الوعي والعقل والارادة والفطرة في شخصية الإنسان، يفرضُ الهوى سلطانه الكامل وسيطرته على الإنسان،

---

(١) غرر الحكم للآمدي ١: ٢٧٢.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٢٨٧ ط، قديم.

(٣) المصدر السابق.

ويستولي على الإنسان، استيلاءً كاملاً، فيكون الإنسان عندئذ تبعاً لهواه، ويعبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة من افساد الهوى بـ «اتباع الهوى».

﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[1].

ففي المرحلة الأولى يتم اغفال القلب واستفراغه من الوعي والبصيرة والهدى بالهوى، وفي المرحلة الثانية يفرض الهوى سيطرته الكاملة على الإنسان فيّتبع الإنسان هواه، فإذا تحقق هذا وذاك، وأغفل الهوى قلب الإنسان واتّبع هواه فان النتيجة التي تتمخض عن ذلك لا تتجاوز الحقيقة المرّة التي يذكرنا بها القرآن «وكان أمره فرطا». . ضائعاً فاسداً بسبب الاسراف والتفريط.

في هذه المرحلة يقع الإنسان في قبضة الهوى بشكل كامل، ويكون أسيراً للهوى، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة... بل إن سيطرة الهوى على الإنسان تكون أقوى من سيطرة الآسر على الأسير في المعركة. فإن سيطرة الطرف المنتصر على الأسير سيطرة محدودة، فهو يحجزه عن الفرار، ويمنعه عن المقاومة، ويفرض عليه سلوكاً معيناً، ويخضعه لرقابة حسيّة، ويمنعه من الكلام في ما لا يحبّ... لكن يبقي للاسير استقلاله وحريته في ثلاث:

١ - في إحساسه، سمعه وبصره فهو يسمع ويرى، ويحسّ بصورة مستقلة عن إحساس الآخرين، ومهما أُوتي الطرف المنتصر الآسر من سلطان فلا يستطيع ان يفرض عليه إحساساً معيناً، فلا يستطيع مثلاً ان يفرض عليه ان يرى الجميل قبيحاً ويرى القبيح جميلاً.

٢ - وفي عقله، فهو يستطيع ان يفكر ويتعقل الأمور، كما يريد وبحكم عقله، لا

---

(١) الكهف: ٢٨.

كما يفكر ويتعقل الذين أسروه، ولا يستطيع الذين أسروه أن يفرضوا عليه ان يفكر ويتعقل الأشياء والأمور كما يريدون.

٣ - وفي قلبه، فهو يستطيع أن يحب ويبغض كما يملي عليه قلبه، لا كما يملي عليه آسروه، وقد يبغض آسريه ويحب اعداءهم، ولا يملكون من أمر قلبه شيئاً.

أما أسير الهوى فالامر فيه أشدّ واغلظ، فان الهوى ينفذ إلى احساسه وعقله وقلبه، ويتصرّف فيها جميعاً، ويفرض سلطانه عليها جميعاً.

فهو يرى الاشياء كما يريد الهوى، فيرى القبيح جميلاً، ويرى الجميل قبيحاً، ويرى الطيب خبيثاً، والخبيث طيباً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً.

ويفكّر في الاشياء ويتعقل الاشياء بالطريقة التي يفرضها الهوى عليه، فيفسد الهوى عليه منطقه وعقله وفهمه وادراكه للحقائق.

واخيراً ينفذ الهوى إلى قلبه، ويتصرف في قلبه، فيحب الإنسان ويبغض كما يريد الهوى، فيحب من أعداء الله ما يجب عليه أن يكرههم، ويكره من أولياء الله ما يجب عليه أن يحبّهم... بل ينفذ الهوى إلى ضمير الإنسان وهو المعقل الاخير الذي يقاوم في النفس، فيسلب الإنسان ضميره وإذا سلب الهوى من الإنسان ضميره، فإن هذا الإنسان يبقى من دون مناعة ولا حماية في مقابل عدوان الهوى، والشيطان، والطاغوت.

وهكذا نجد أن أسر الهوى أبلغ وأشد من أسر الناس بعضهم لبعض في المعارك، وإلى هذه المقارنة بين أسر الهوى وأسر الناس واسترقاقهم بعضهم لبعض يشير النص التالي الذي يرويه الآمدي في «غرر الحكم» عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عبد الشهوة أذل من عبد الرق»[١]. وكلاهما ذل، وسيطرة وسلطان. ولكن الذل، والسيطرة، والسلطان في الرق

(١) غرر الحكم للآمدي ٢:٤٠.

أهون وإيسر من ذل الإنسان وعبودية عند ما يقع أسيراً في قبضة الهوى.

أسر الهوى في النصوص الإسلامية:

ولنتأمل في هذه الاية المباركة لنتعرف على عمق هذا الأسر في وجود الإنسان: يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١]... هكذا يسلبه الله سمعه، وبصره، وقلبه، إذا اتبع هواه، فيتحول الى إمّعة، لا يملك من أمره شيئاً، وإنّما يؤول الامر كله إلى الهوى، ويكون إلهه هواه وهو غاية في الانقياد للهوى وطاعته.

روي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن ملك نفسه علا أمره، ومن ملكته نفسه ذل قدره»[٢].

وعنه عليه السلام: «أزرى بنفسه من ملكته الشهوة، واستعبدته المطامع»[٣].

وعنه عليه السلام: «عبد الشهوة أسير لا ينفك أسره»[٤].

وعنه عليه السلام: «كم من عقل أسير تحت هوى أمير»[٥].

وعنه عليه السلام: «الشهوات تسترق الجهول»[٦].

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) مستدرك الوسائل: ١١/ ٢١٢ (منشورات آل البيت ـ قم) وعيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي/ ٤٢٠ ط/ دار الحديث ـ الطبعة الاولى، وجامع الاحاديث ١٣/ ٢٩٩.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ١٩٥.

(٤) غرر الحكم للآمدي ٢:٤٠.

(٥) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة رقم:٢١١.

(٦) غرر الحكم للآمدي ١:٤٥.

وهو تعبير دقيق، فان الجهول إذا انساق وراء الشهوات أخرجته من سلطان نفسه وأدخلته في حيّز سلطانها، وكذلك الهوى يخرج الإنسان من سلطان عقله، وإرادته، وضميره، ويدخله تحت حكمه وسلطانه، وكما تتم السرقة في الخفاء والكتمان، كذلك تتم سيطرة الهوى على الإنسان في الخفاء كما يسرق السارق متاع الناس.

استعباد الهوى للإنسان:

والسيطرة بهذه الدرجة تؤدي إلى استعباد الهوى للإنسان، فإن السيطرة التي يفرضها الهوى على الإنسان هي نحوٌ من الاستعباد.

وتستوقفنا هاتان الآيتان في كتاب الله طويلاً، وإنهما لتدعوان إلى كثير من التأمل والتفكير: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[2].

ورغم كل الاستغراب، فإنها حقيقة، وإن الإنسان قد يتخذ من هواه إلهاً يعبده، ويطيعه، ويتولاه، من دون الله تعالى.

وقد روي عن رسول الله ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىً متّبع»[3]. أي أعظم إثماً عند الله من اتباع الهوى.

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) الفرقان: ٤٣.

(٣) الدر المنثور ٥:٧٢ والطبري في الكبير، والترغيب والترهيب: ١:٨٦. وميزان الحكمة ٤/ ٣٤٧٨، ومجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٨٨ ط/ دار الكتب العلمية ـ بيروت، وكتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم ←

وروي عن علي عليه السلام: «الجاهل عبد شهوته»[١].

نسوا الله فنسيهم

وإذا بلغ الإنسان هذه الحالة من الانفصال عن محور العبودية لله والارتباط بمحور الهوى، والخروج عن دائرة طاعة الله، والدخول في دائرة نفوذ الهوى... فإن هذا الإنسان يتعرض لردة كاملة في شخصيته من عبودية الله تعالى إلى عبودية الهوى.

ويصح في هؤلاء قوله تعالى (نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ)[٢]. ذلك أنهم إذا انفصلوا عن محور عبودية الله، وخرجوا عن دائرة طاعته، فقد نسوا الله تعالى، والله تعالى يقابلهم النسيان بالنسيان، ويكلهم إلى انفسهم، وإذا أوكل الله تعالى عبداً إلى نفسه، فقد وقع فريسةً للشيطان في نفس الوقت. . من دون شك.

بيان القرآن عن الدور التخريبي للهوى

يقول تعالى في استعراض قصة «بلعم بن باعورا»[٣] من علماء بني إسرائيل في سورة الاعراف: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

←

ص ٨ تحقيق ناصر الدين الالباني ط/ ١٤١٣، المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٠٣، تحقيق حمدي عبد الحميد ط/ ١٤٠٥هـ.

(١) غرر الحكم للآمدي ١:٢٨.

(٢) التوبة: ٦٧.

(٣) وهذه احدى الروايات المعروفة، وقيل ان المقصود هو صيفي الراهب الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بالفاسق وقيل أمية بن أبي الصلت، وقيل غير ذلك.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(١).

وقد كان «بلعم بن باعورا» من علماء بني اسرائيل، وقد آتاه الله تعالى آيات بينات ورزقه علماً ومعرفة... ورزقه الله تعالى دعاءاً مستجاباً، وكان موسى بن عمران عليه السلام يستعين به في شؤونه... إلا أنه اتّبع هواه.

واتّباع الهوى في مثله يتم باحدى صورتين:

أن يضع علمه في خدمة الغايات الشخصية، ويحاول أن يكتسب بالعلم مجداً أو سمعة، ويحاول أن يظهر بين الناس بالعلم.

وإما أن يضع علمه في خدمة الطاغوت، ويرتزق بعلمه، ومآل كلتا الصورتين إلى صورة واحدة، وهي تحكّم الهوى في علمه.

إن قيمة العالم ليست في الكمية التي يحملها من العلم، فقد تحمل مكتبة من الكتب ما لا يحمله عدد كبير من العلماء، وإنّما قيمة العلم في حامله وفي مصرفه، وإذا كان حامل العلم متخلقاً بأخلاق الأنبياء، وإذا كان مصرف العلم هداية الناس وتوجيههم وخدمة الناس... فهو مصدر قيمة العالم، وإلاّ فلا قيمة للعالم، ولا كرامة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: في الخطبة الشقشقية المعروفة عن دور العالم ومسؤوليته:

«وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سَغَب مظلوم».

فإذا نهض العالم بما أخذ الله عليه علا قدره وقيمته وكرامته.

وقد كان «بلعم بن باعورا» - لو صحت الرواية في تفسير هذه الآيات به - من

(١) الاعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

أُولئك الذين حكّموا أهواءهم في علمهم، واتبعوا اهواءهم، ولننظر في عاقبة هذا الرجل فيما نقرأ من كتاب الله.

والآية الكريمة وان كانت تشير الى قصة - بلعم بن باعورا - إن صحت الرواية - إلاّ أن حكمها يعمّ كل انسان يحكّم الهوى على نفسه.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «ان الاصل في ذلك بلعم، ثم ضرب مثلاً لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة»[1].

ولنتأمل في النتائج التي يؤول إليها أمر هؤلاء الناس من الذين يتبعون اهواءهم فيما يحدثنا به القرآن الكريم:

١ـ الخلود الى الأرض:

الخلود الى الأرض هو السقوط في الحياة الدنيا، وهو حالة الركون الى الدنيا، فان الأرض هي الدنيا، والخلود إلى الأرض في مقابل الترفّع عنها (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ)[2]وهو السقوط في الحياة الدنيا. وإذا كان في الارتفاع عن الأرض مشقة وصعوبة في مكافحة جاذبية الأرض، فإن في الخلود إلى الأرض والسقوط فيها استجابةً واستسلاماً لجاذبية الأرض، وكذلك للترفّع عن الحياة الدنيا، والسقوط فيها نفس الحكم.

ففي الترفّع عن الدنيا مشقة وصعوبة، بينما السقوط في الدنيا والركون إليها استجابة واستسلام لجاذبية الحياة الدنيا وإغرائها، وهذه هي النتيجة الأُولى.

---

(١) مجمع البيان في تفسير هذه الآية من سورة الأعراف الآية: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

٢ـ الانسلاخ عن آيات الله:

(فانسلخ منها) ومعنى الانسلاخ عن آيات الله هو الانسلاخ عن وعي آيات الله ومعرفتها، والانسلاخ عن الحكمة والمعرفة والبصيرة، والانسلاخ في مقابل الالتصاق، بمعنى البينونة الكاملة بين الشيئين، وهؤلاء الناس الذين يحكّمون شهواتهم وأهواءهم على أنفسهم تنقطع علاقتهم بالوعي والبصيرة بآيات الله انقطاعاً كاملاً، وترفض أوعية نفوسهم العلم والحكمة، كما ترفض معدة المريض الطعام الشهي اللذيذ.

فإنّ إناء النفس إذا كان ملوّثاً بالشهوات والأهواء، فلا تحل فيه آيات الله والمعرفة، والبصيرة والحكمة، كما لا تحل فيه الفضائل والقيم.

عن رسول الله ﷺ: «حرام على كل قلب متولّه بالشهوات أن يسكنه الورع»[1].

وعنه ﷺ أيضاً: «حرام على كل قلب أُغري بالشهوات أن يحل في ملكوت السماوات»[2].

وعن علي عليه السلام: «حرام على كل قلب مغلول بالشهوة أن ينتفع بالحكمة»[3].

فإن القلب إناء، ولا يمكن أن يجتمع في إناء واحد (الهوى) و(ذكر الله) معاً، فاما أن يحل فيه ذكر الله تعالى، أو يحل فيه الهوى، وذلك قوله تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)[4]. فإذا اتّبع الإنسان هواه غفل عن ذكر الله بالضرورة،

---

(١) مجموعة ورّام (تنبيه الخواطر): ٣٦٢. ميزان الحكمة ٤/ ٢٤٨٢.

(٢) مجموعة ورّام (تنبيه الخواطر): ٣٦٢. وعيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي/ ٢٣٣، منشورات دار الحديث ـ قم، والعقل والجهل في الكتاب والسنة، ري شهري ص ١٤٢ .

(٣) غرر الحكم للآمدي ١:٣٤٤.

(٤) الاحزاب: ٤.

كما أنه يصح العكس أيضاً، فإذا غفل عن ذكر الله اتّبع هـواه: (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)(١)، وهذه هي النتيجة الثانية.

٣ـ استيلاء الشيطان عليه:

يقول تعالى: (فأتبعه الشيطان) أي أدركه وناله وتمكّن منه، بعد أن كان الشيطان يعجز عن إدراكه والنيل منه، فإن اتّباع الهوى يحكّم قبضة الشيطان على الإنسان، وكلما كان اتّباع الإنسان للهوى أكثر كان نفوذ الشيطان في الإنسان أكثر وقدرته عليه أعظم، وهذه هي النتيجة الثالثة.

٤ـ الغواية والضلال:

(فكان من الغاوين) وهذا أمر طبيعي في حال هؤلاء الناس، فإن الإنسان إذا اتّبع هواه غفل عن ذكر الله، وتمكّن منه الشيطان، فلا يمكن أن يهتدي إلى الصراط المستقيم، ولا يمكن أن يستقيم في حياته، وحياته وحركته لا محالة تكون في تَيه وضلال، وهذه هي النتيجة الرابعة.

٥ـ الحرص والجشع:

يقول تعالى في هؤلاء: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)(٢).

وهذا هو الداء المعروف بداء الكلب، في الكلاب، حيث يصيب الكلب فيه عطش لا يرويه الماء، فهو يلهث بصورة مستمرة، تحمل عليه أو تتركه وتسكت

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) الاعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

عنه، كذلك أهل الهوى يصيبهم ظمأ إلى الدنيا وحطامها ومتاعها لا يرويهم شيء، أحوجهم الله أم اغناهم، ونالوا الدنيا أم لم ينالوا منها شيئاً، كما يعطش الكلب المصاب بداء الكلب فيلهث وراء الماء، ثم لا يرويه الماء أبداً.

عن رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى وراءهما ثالثاً»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لرجل اشتكى إليه حرصه على الدنيا وإقباله عليها: «إن كان ما يكفيك يغنيك، فأدنى ما فيها يغنيك، وإن كان ما يكفيك لا يغنيك، فكل ما فيها لا يغنيك»[2]، وهذه هي النتيجة الثالثة.

---

(١) مجموعة ورام (تنبيه الخواطر): ١٦٣. روضة الواعظين للفتال النيسابوري ٤٢٩، منشورات الشريف الرضي ـ قم ، والإيضاح لفضل بن شاذان ٣٣١ ط الاولى ١٣١٥، ومسند أحمد بن حنبل ٤/ ٣٦٨ و٥ / ١١٧، ومجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١٤١ و١٠/ ٢٤٣، وفتح الباري لابن حجر ١١/ ٢١٧.

(٢) اصول الكافي ٢: ١٣٩.

علاج الهوى

الطاقة التخريبية للهوى

على قدر أهمية الهوى ونفعه للإنسان تكون قدرته وطاقته، وعلى قدر قدرته وطاقته يكون تخريبه وإفساده في حياة الإنسان، وهاتان معادلتان ثابتتان في داخل النفس لا سبيل إلى التشكيك بأي واحدة منهما، فإن الاهواء هي الطاقة المحركة لعجلة حياة الإنسان، ولولا هذه الاهواء التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان من حب للجنس، والمال، والأنا، وحب الاكل، والشرب، والدفاع عن النفس، والغضب، لم تستقم حياة الإنسان، ولم تتحرك عجلة هذه الحياة.

وعلى قدر أهمية الاهواء ودورها في حياة الإنسان تكون الاهواء قوية وفعالة وذات طاقة تحريكية عالية، وعلى مقدار قوتها وطاقتها في التحريك تتصف بالقدرة على التخريب والافساد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الغضب مفسد للألباب ومبعد عن الصواب»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أكثر مصارع العقول تحت بريق المطامع»[2].

بين الكبت والاسترسال في اتباع الهوى

ولذلك فليس الموقف الصحيح من الهوى هو «الكبت» والكبح، فإن الهوى طاقة نافعة ومحركة في حياة الإنسان والغاء هذه الطاقة واستقذارها وتعطيلها، وعدم الاعتراف بها يؤدي إلى تعطيل شطر مهم وكبير من شخصية الإنسان، وتعطيل القوة

---

(١) غرر الحكم للآمدي ١: ٦٧.

(٢) غرر الحكم للآمدي ١: ١٩٨. ونهج البلاغة، حكمة/ رقم ٢١٩، ووسائل الشيعة ١١/ ٣٢٢، ط الاسلامية، وعيون الحكم لليثي الواسطي ١١٦ .

المحركة للإنسان، وإلى إثارة مضاعفات في داخل النفس تنشأ من حبس الغريزة وكبتها واستقذارها، كما لا يصح الاسترسال مع الهوى والاستجابة المطلقة له، من غير حدود، والسماح المطلق له بالظهور والبروز، فإن الهوى إذا أُطلق له العنان ينقلب دوره إلى دور تخريبي ضار في حياة الإنسان.

إذن لابد من الاعتراف بالغريزة «الهوى» وموقعها الشرعي من حياة الإنسان ونفسه، بحدود الاستجابة المحدودة للغريزة، ولا يصح رفض الهوى بصورة مطلقة، كما لا يصح الاستجابة للهوى بصورة مطلقة.

وعلى هذه الأسس يحدد الإسلام موقفه من الهوى، فهو يعترف بالهوى أولاً، ولا يستقذره، يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٢).

فهو يعترفُ به وبالفتن و(المغريات) ويعتبرها زينة وجمالاً وليس أمراً قبيحاً وقذراً في حياة الإنسان.

وهذه نقطة ذات أهمية بالغة في معرفة موقف الإسلام من الأهواء والشهوات، ويسمح ثانياً بالاستجابة للشهوات والتمتع بمتع الحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) الكهف: ٤٦.

(٣) طه: ١٨.

(٤) القصص: ٧٧.

ويقول تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)(١).

وهذه هي النقطة الثانية في تحديد موقف الإسلام من الهوى.

ولا يسمح باتّباع الهوى بصورة مطلقة، والاسترسال في الاستجابة له واتّباعه من دون ضوابط ولا حواجز. يقول تعالى: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(٢).

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «لا تدعْ النفس وهواها فإن هواها رداها»(٣). ويضع طائفة واسعة من الحواجز والضوابط والحدود لممارسة الشهوات والاهواء، وهذه هي النقطة الثالثة في تحديد موقف الإسلام من «الهوى».

فالممارسة الجنسية مثلاً - لا يحرّمها الإسلام ولا يستقذرها، ولا يمنع منها، وإنّما يبيحها، ويدعو إليها، ثم يضع عليها جملة من الضوابط والحواجز والحدود الشرعية التي تحددها، وحب المال لا يرفضه الإسلام، ولا يستقذره، وإنّما يبيحه، ويضع له الحدود والضوابط التي تحدده.

رسالة العقل في ضبط الهوى

وينهض العقل بدور فعال في تحديد الهوى وضبطه في حياة الإنسان، والمنع من طغيانه، وكفّ الإنسان عن الاسترسال المطلق في الاستجابة له، ولعل كلمة «العقل» في اللغة العربية مقتبسة من هذا الاصل ، فالعقل والعقال في العربية يأتي بمعنى القيد والتقييد، وهو الدور الذي أعطاه الله تعالى للعقل في حياة الإنسان بالنسبة الى

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) ص/ ٢٦ .

(٣) أُصول الكافي: ٢: ٣٣٦. الطفل بين الوراثة والتربية للشيخ محمد تقي الفلسفي ١/ ٣٣٠، وأصول الكافي ٢/ ٣٢٦ .

الهوى، وقد روي في هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب»[١].

وفي النصوص الإسلامية إشارات كثيرة إلى هذا المعنى:

عن علي عليه السلام: «فكرك يهديك إلى الرشاد»[٢].

وعنه عليه السلام «للنفوس خواطر للهوى، والعقول تزجر وتنهى»[٣].

وعنه عليه السلام أيضاً: «للقلوب خواطر سوء، والعقول تزجر منها»[٤].

وعنه عليه السلام أيضاً: «النفوس طلقة، لكن أيدي العقول تمسك أعنّتها»[٥].

وعنه عليه السلام أيضاً: «ثمرة العقل مقت الدنيا وقمع الهوى»[٦].

فالدور الذي ينهض به العقل في حياة الإنسان هو ضبط الهوى وتحديده، وكف الإنسان عن الاسترسال في الاستجابة للهوى، والمنع من طغيان الهوى، وعلى قدر كمال عقل الإنسان وقوته يكون توفيق الإنسان في ضبط أهوائه وقهرها وتحديدها.

عن علي عليه السلام: «العقل الكامل قاهر الطبع السوء»[٧].

وضبط الهوى وقهره إمارة سلامة العقل.

عن علي عليه السلام «حفظ العقل بمخالفة الهوى والعزوف عن الدنيا»[٨].

---

(١) بحار الأنوار: ١: ١١٧.

(٢) غرر الحكم للآمدي ٢: ٥٨.

(٣) تحف العقول: ٩٦.

(٤) غرر الحكم للآمدي ٢: ١٢١.

(٥) غرر الحكم للآمدي: ١: ١٠٩.

(٦) غرر الحكم للآمدي: ١: ٣٢٣.

(٧) بحار الانوار ٩:٧٨.

(٨) غرر الحكم للآمدي ١:٣٥٤.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «لاعقل كمخالفة الهوى»[١].

وعن علي عليه السلام «من جانب هواه صح عقله»[٢].

فالعقل والهوى يتكاملان في بناء شخصية الإنسان كلّ منهما يؤدي دوراً ضرورياً في حياة الإنسان، فيمنح الهوى الإنسان الحركة ويحرك عجلة حياة الإنسان، وينهض العقل بدور حساس وخطير في تحديد الهوى وضبطه، والمنع من طغيانه وتخريبه وإفساده.

ولابد للإنسان من هذا وذاك معاً:

العقل والدين:

رسالة «الدين» في حياة الإنسان هي نفس رسالة العقل في تحديد وضبط الهوى ومنعه عن الاسترسال والطغيان، و«العقل» و«الدين» يتطابقان بصورة دقيقة في الرؤية والعمل، فإن الدين هو (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)[٣]، هذه الفطرة التي تحكم الإنسان، ويستجيب لها العقل هي الدين، الذي جعله الله تعالى قواماً لحياة الناس ، وقوّم به حياة الإنسان، لولا أن مساحة درك العقل مساحة محدودة، ومساحة الدين أوسع منها، وليس في الدين ما يرفضه العقل، ولكن ليس من الضروري أن يدرك العقل كلما يحكم به الدين.

إذن فالدين يدعم دور العقل في تحديد الهوى وضبطه، وينهض بنفس الدور، وإن العقل والدين وجهان لعملة واحدة.

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ١٦٤.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٦٠.

(٣) الروم: ٣٠.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «العقل شرع من داخل، والشرع عقل من خارج»[١].

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والائمة عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «حجة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل»[٣].

الأدوار الثلاثة للعقل:

وللعقل ثلاثة أدوار ومهام في حياة الإنسان :

١ - معرفة الله تعالى وهي منطلق كل مهام العقل وأدواره، وهو ما يسميه الحكماء بـ (العقل النظري)..

٢ - طاعة الله تعالى فيما أوجبه على عباده، فإن المعرفة الصحيحة لربوبية الله تعالى تنتج الطاعة والعبودية.

٣ - تقوى الله وهو الوجه الآخر لطاعة الله، فإن طاعة الله تعالى ذات وجهين: امتثال الواجبات، والكفّ عن المحرمات، والتقوى هي كف النفس عن المحرمات.. وهذان الوجهان يسميهما الحكماء بـ(العقل العملي)، في مقابل (العقل النظري).

ولعل في النص التالي إيضاحاً لهذه الادوار الثلاثة:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «قُسّم العقل على ثلاثة أجزاء، فمن كانت فيه كمل عقله، ومن لم تكن فيه فلا عقل له: حسن المعرفة بالله عز وجل، وحسن الطاعة لله،

---

(١)الشباب للشيخ محمد تقي الفلسفي ١: ٢٦٥. والعقل والجهل في الكتاب والسنة للري شهري ص/ ٧٤، ومجمع البحرين للطريحي، مادة/ عقل، واللمعة البيضاء للتبريزي ص ٣٨٥ .

(٢) بحار الأنوار: ١:١٣٧.

(٣) اصول الكافي: ١: ٢٥.

وحسن البصيرة (الصبر) على أمره»[١].

والصبر على أمره هو التقوى، وضبط الهوى، فإن ضبط الهوى والسيطرة عليه وتحديده يتطلب من الصبر ما لا يتطلبه غيره[٢]. وفي بعض الروايات وردت (البصيرة) في مكان الصبر.

وفيما يلي شرح وإيضاح لهذه الادوار الثلاثة:

١ـ المعرفة والاحتجاج:

الرسالة الأولى للعقل هي المعرفة، والعقل أداة للمعرفة وللكشف عن حقائق هذا الكون، وبعكس الاتجاهات الصوفيّة التي تسقط العقل عن مرتبة المعرفة والكشف، وتلغي دور العقل في الكشف عن حقائق هذا الكون، وخالق هذا الكون ومعرفة الغيب، فان الإسلام يعترف بتشخيص العقل، ويعتبره أداة للمعرفة، ويؤكد ذلك في أُفق المادة وفيما وراء الافق المادي من هذا الكون، وفي خالق هذا الكون وفيما يجب على الإنسان وفيما يحرم عليه.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّما يدرك الخير كلّه في العقل (ظ بالعقل)»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: «استرشدوا العقل تُرشدوا ولا تعصوه فتندموا»[٤].

وعن علي عليه السلام: «العقل أصل العلم وداعية الفهم»[٥].

---

(١) بحار الأنوار ١: ١٠٦. والخصال للصدوق ص ١٠٢، منشورات جامعة المدرسين ـ قم، كتاب العقل وفضله لابن أبي الدنيا ص ٣٣، ط/ ١٤١٣ مؤسسة الكتب الثقافية.

(٢) ويمكن أن يشمل الصبر الأمرين معاً: الصبر على الطاعة، واجتناب المعصية.

(٣) تحف العقول: ٥٤ وبحار الأنوار ٧٧: ١٥٨ عنه أيضاً.

(٤) اصول الكافي: ١: ٢٥.

(٥) غرر الحكم للآمدي ١٠٢:١.

وعن الصادق عليه السلام: «العقل دليل المؤمن»(١).

والى جانب دور العقل وقيمته في الكشف عن حقائق هذا الكون، تؤكد النصوص الإسلامية على أن الله تعالى يحتج بالعقل على عباده، وهذا الاحتجاج وما يستتبعه من عقوبة وعذاب ومسؤولية يكشف عن قيمة العقل الكبيرة في حياة الإنسان وأهميته في دين الله.

عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والائمة، عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول»(٢)

وعنه عليه السلام أيضاً: «إن الله عز وجل أكمل للناس الحجج بالعقول، وأفضى إليهم بالبيان، ودلّهم على ربوبيته بالادلة»(٣).

فالعقل إذن حجة على الإنسان، يحتج الله تعالى به على عباده.

وقد ورد في النصوص الإسلامية أن الله تعالى يثيب ويعاقب بالعقل.

٢ ـ طاعة الله عز وجل:

وإذا كان للعقل مثل هذه القيمة الكبيرة في الادراك والمعرفة النظرية... فأنَّ هذه المعرفة النظرية تستتبع الطاعة والالتزام العملي، وتلزم الإنسان بسلسلة من الواجبات والمحرمات.

والمعرفة النظرية التي تستتبع هذه المعرفة العملية هي معرفة الله تعالى من موقع

---

(١) أصول الكافي: ١: ٢٥. كتاب العقل والجهل ح/ ٢٤، ووسائل الشيعة ١١/ ١٦٣ ط الاسلامية.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٣٧. الحدائق الناضرة ١/ ١٣١ منشورات جامعة المدرسين ـ قم، الكافي للكليني ١/ ١٦، وتحف العقول للحراني ٣٨٦.

(٣) بحار الأنوار ١: ١٣٢. والكافي للكليني ١/ ١٣ (بنص قريب منه)، وجامع احاديث الشيعة للسنة البروجردي ١/ ٣٤٨، والعقل والجهل في الكتاب والسنة للري شهري: ٦٦.

الربوبية والألوهية، ومعرفة الإنسان من موقع العبودية... فإن هذه المعرفة النظرية تستلزم معرفة وجوب الطاعة والامتثال والالتزام بأمر الله تعالى.

وهذه المعرفة من خصائص العقل، وهي التي تجعل الإنسان في موقع الامر والنهي من قبل الله تعالى، وبالتالي في موقع الثواب والعقاب لدى الطاعة والمخالفة، ولولا هذه المعرفة العملية التابعة للمعرفة النظرية لم يصح أن يكون الإنسان موضعاً للامر والنهي، ولا موضعاً للمسؤولية ولا للعقوبة والمؤاخذة.

والى هذا المعنى تشير النصوص الإسلامية:

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «لما خلق الله العقل استنطقه ثمّ قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب اليّ منك، ولا أكمّلُكَ إلاّ فيمن أُحب. أما إني ايّاك آمر وإيّاك أنهى وإياك أُعاقب وإيّاك أُثيب»[١].

وعن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: قال: «لما خلق الله عز وجل العقل قال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقبل فأبل، فقال وعزّني وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، إيّاك آمر وإياك أنهى، وإيّاك أُثيب وإيّاك أُعاقب»[٢].

ووردت نصوص أُخرى بنفس المضمون[٣].

---

(١) اصول الكافي: ١: ١٠. والجواهر السنية للحر العاملي ص ١٤٨ و٣٥٣ ط/ ١٣٨٤ـ النجف، وبحار الأنوار ١/ ٩٦ وجامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي ١/ ٣٤٢، وبمضمونه في الكامل لعبد الله بن عدي الطبعة الثالثة ١٤٠٩ تحقيق يحيى مختار الغزاوي ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣/ ٤١ .

(٢) بحار الأنوار: ١:٩٦.

(٣) بحار الأنوار: ١: ٩٧. ومن طرق الجمهور الكامل لعبد الله بن عدي ط ٣ سنة ١٤٠٩ تحقيق يحيى مختار الغزاوي ٢/ ٣٩٠ و١٤/٦ والخطيب البغدادي في تاريخه ١٣/ ٤١ وابن عساكر في تاريخه ٤٠١/٥٤.

وهذه الروايات تتحدث عن طاعة العقل لله تعالى بلغة الرمز «قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر». ولغة الرمز لغة شائعة في أمثال هذه الأمور في النصوص الإسلامية.

وورد في العلاقة بين العلم «النظري» و«العملي» عن علي عليه السلام: «العاقل إذا علم عمل، وإذا عمل أخلص»[1].

والنصوص الإسلامية في دور العقل في تطويع الإنسان لله تعالى وتعبيده له وفي طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره كثيرة، نذكر منها بعض النماذج:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «العاقل من أطاع الله»[2].

وروي أنه قيل للنبي صلى الله عليه وآله: ما العقل؟ قال: «العمل بطاعة الله، إن العمّال بطاعة الله هم العقلاء»[3].

وقيل للامام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: ما العقل؟ قال: «ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان». قلت: فما الذي كان في معاوية ؟ فقال: «تلك النكراء تلك الشيطنة»[4].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «أعقلكم أطوعكم»[5].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحق»[6].

---

(١) غرر الحكم للآمدي ١: ١٠١.

(٢) بحار الأنوار ١:١٦٠.

(٣) بحار الانوار ١: ١٣١.

(٤) بحار الأنوار ١: ١٦٠. ومستدرك الوسائل للنوري ١١/ ٢٠٧ وكنز الفوائد للكراجكي ص١٣ منشورات مكتبة المصطفوي ـ قم ١٣٦٩ هـ ش، وجامع الاحاديث للسيد البروجردي ١٣/ ٢٨٤.

(٥) غرر الحكم للآمدي ١: ١٧٩. وعيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي ص ١١٣، والعقل والجهل في الكتاب والسنة ١٢٩، وميزان الحكمة وكلاهما للري شهري ٣/ ٢٠٤٣.

(٦) بحار الأنوار ١: ١٣٠.

ومعنى ذلك أن العقل يذلل الإنسان للاستجابة لدعوة الله وطاعته تعالى.

الصبر في مكافحة الهوى:

وهذه ثالثة الأدوار التي أناطها الله تعالى بالعقل، وهي مهمة شاقة وأساسية من مهام العقل، وكما قلنا من قبل تعتبر هذه المهمة الوجه الآخر لطاعة الله تعالى، وكلاهما طاعة، إلا أن الوجه الأوّل طاعة لله في امتثال الواجبات، والوجه الثاني هو الالتزام بالكفّ عما نهى الله تعالى عنه، وضبط النفس عن الشهوات، وكفّ الهوى، والصبر على ذلك كله... وبموجب ذلك فإن العقل مسؤول عن السيطرة على الهوى وإخضاع الاهواء والشهوات لسلطانه.

وقد وردت في النصوص الإسلامية تأكيدات كثيرة على هذا الدور الخطير الذي ينهض به العقل في ضبط الهوى وتحديده، والاهتمام بتنمية كفاءات العقل وقدراته في هذا المجال، وإليكم بعض النماذج من هذه النصوص:

عن علي امير المؤمنين عليه السلام: «العقل حسام قاطع»[١].

وعنه عليه السلام: «قاتل هواك بعقلك»[٢].

وعنه عليه السلام: «للنفوس خواطرللهوى، والعقول تزجر وتنهى»[٣].

وعنه عليه السلام: «للقلوب خواطر سوء والعقول تزجر منها»[٤].

وعنه عليه السلام: «العاقل من غلب هواه، ولم يبع آخرته بدنياه»[٥].

---

(١) نهج البلاغة، باب الحكم وقصار الكلمات.

(٢) نفس المصدر.

(٣) تحف العقول: ٩٦.

(٤) غرر الحكم للآمدي: ٢: ١٢١.

(٥) غرر الحكم للآمدي ١:١٠٤.

وعنه عليه السلام: «العاقل من هجر شهوته، وباع دنياه بآخرته»[١]

وعنه عليه السلام: «العاقل عدو لذته، والجاهل عبد شهوته»[٢].

وعنه عليه السلام: «العاقل من عصى هواه في طاعة ربّه»[٣].

وعنه عليه السلام: «العاقل من غلب نوازع أهويته»[٤].

وعنه عليه السلام: «العاقل من أمات شهوته، والقوي من قمع لذته»[٥].

إذن هناك أدوار ثلاثة للعقل:

١- معرفة الله، ٢- طاعة الله تعالى في الواجبات، ٣- الكفّ عن الاهواء فيما نهى الله تعالى عنه.

والذي يهمنا في هذا البحث هو الدور الثالث الاخير وهو مكافحة الهوى والسيطرة عليه وضبطه وتحديده، وإليك إيضاح وشرح هذه النقطة الاخيرة في الصراع القائم داخل النفس بين «العقل» و«الهوى».

مصير الإنسان يقرره الصراع بين «العقل» و«الهوى»:

وهذا الصراع الذي يجري بين «العقل» و«الهوى» هو الذي يقرر مصير الإنسان بين السعادة والشقاء، والناس في هذا الصراع ينشطرون إلى شطرين اثنين وهما: المتقون والفاسقون.

والسلوك البشري ينشطر إلى شطرين هما: «التقوى» و«الفجور».

---

(١) غرر الحكم للآمدي ١: ٨٦

(٢) غرر الحكم للآمدي ١:٢٨.

(٣) غرر الحكم للآمدي ٢: ٨٧

(٤) غرر الحكم للآمدي ٢: ١٢٠.

(٥) غرر الحكم للآمدي ٢: ٥٨.

والتقوى في تحكيم العقل على الهوى، والفجور بالعكس في تحكيم الهوى على العقل، وعند هذا المفرق يتقرر مصير الناس من السعادة والشقاء ذات اليمين وذات الشمال، والاختلاف بين هذين الشقّين من الناس: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، اختلاف حقيقي وجوهري ومصيري، وهذا الاختلاف يتقرر في هذا المفرق، فيحكّم قوم عقولهم على أهوائهم، فهم الأبرار الاتقياء الصالحون، ويحكّم آخرون أهواءهم على عقولهم، فهم الفاسقون والفجار، وعند هذا المفرق ينشطر الناس شطرين: شطر صاعد إلى الله تعالى، وشطر يسقط في نار جهنم.

روي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «من غلب عقلَه هواه أفلح، ومن غلب هواه عقلَه افتضح»[١].

وعنه عليه السلام: «العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيهما يغلب كانت في حيّزه»[٢].

إن الصراع قائم داخل النفس بين هذين الطرفين، والنفس يتجاذبها هذان الطرفان، فايهما ينتصر على الآخر تدخل النفس في حيّز سلطانه: العقل أم الهوى.

عن علي عليه السلام: «العقل والشهوة ضدّان، مؤيد العقل العلم، مزين الشهوة الهوى، والنفس متنازعة بينهما، فأيهما قهر كانت في جانبه»[٣].

إن العقل والهوى يتصارعان على النفس (الأنا) فأيهما صرع الآخر كانت النفس في جانبه، ومطبوعة بطابعه.

---

(١) غرر الحكم للآمدي ٢: ١٨٧.

(٢) غرر الحكم للآمدي ١: ١١٣. وعيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي ٦٤ ط منشورات دار الحديث ـ قم، ط الاولى ، وميزان الحكمة ٣/ ٢٠٣٨ .

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ١١٣ .

ضعف العقل وقوة الهوى:

في هذا الصراع المصيري الذي يتقرّر بموجبه مصير الإنسان، يعتبر العقل الطرف الضعيف بينما يعتبر الهوى الطرف القوي؛ وذلك أن العقل أداة للادراك والفهم، بينما الهوى يعتبر قوة كبيرة داخل النفس تستطيع أن تحرك الإنسان.

إن العقل يبصر ويدرك، وهذا مما لا شك فيه، ولكنه لا يعتبر قوة محركة وضاغطة داخل النفس، بينما الهوى يملك قوّة وقدرة عالية جداً على التحريك والضغط.

عن علي عليه السلام: «كم من عقل أسير عند هوى أمير»[1].

والهوى يستدرج الإنسان بالترغيب والاغراء، فينزلق الإنسان معه، بينما العقل يدعو الإنسان لما ينفر منه ويكرهه.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أكره نفسك على الفضائل، فإن الرذائل أنت مطبوع عليها»[2].

وكأن طريق الإنسان إلى الشهوات والرذائل منزلق، يسهل انزلاق الإنسان عليه، بينما طريق الإنسان إلى الفضائل طريق صاعد يجهد الإنسان، ولهذا السبب فإن دور العقل دور ضعيف في هذا الصراع الدائر بين العقل والهوى، في الوقت الذي يدخل الهوى في هذه المعركة بدرجة عالية ومتفوقة من القوة والتأثير والفاعلية، وفي كثير من الموارد يضعف العقل عن مواجهة الهوى، ويتمكن الهوى من السيطرة على الموقف ودحر العقل في هذه المعركة واستيعاب صاحبه استيعاباً

---

(١) نهج البلاغة: باب الحكم والكلمات القصار. وعيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي ٣٨٣، وجامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي ١٣/ ٢٥٢.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٣١٠ ط/قديم.

كاملاً.

ومن هنا فقد زوّد الله تعالى العقل بجند قوي، داخل كينونة الإنسان، وفي فطرته وضميره ونفسه وقلبه، يدعمه ويسنده امام سلطان الهوى وسطواته.

جنود العقل

إن الله تعالى أودع في نفس الإنسان مجموعة من القوى والعوامل التي تدعم العقل في مهماته الصعبة، وهذه المجموعة من نوازع الرحمة والخير في النفس موزعة على الفطرة والضمير والعواطف.

وتمتلك هذه المجموعة من الداوفع والنوازع قدرة على تحريك الإنسان في مقابل الغريزة، وتستطيع أن تقاوم الغريزة وتصدّها وتكفّها، ومن مهماتها الرئيسة دعم موقف العقل في تحديد وضبط الهوى، فإن العقل كما ذكرنا أداة للادراك والابصار والفهم، وهذه الاداة تمكّن الإنسان من التشخيص الصحيح والفهم، ولكنّها لا تمكّنه من مقاومة ضغط الغريزة وضبطها وصدّها، فيستعين العقل بهذه المجموعة من العوامل والدوافع التي أودعها الله تعالى في النفس لضبط الغرائز والشهوات وتحديدها وكفّها، وبذلك يتمكن العقل من مقاومة الغرائز ومواجهتها.

ولقد ورد التعبير عن هذه المجموعة من العوامل بلغة الثقافة الاخلاقية في الإسلام بـ «جنود العقل» وهو اسم على المسمى تماماً، وإليكم بعض الامثلة عن استعانة «العقل» بهذه المجموعة.

١ - قد يقع الإنسان تحت ضغط غريزة حب المال فيلتمس المال من موارد مذلة، فيستعين العقل بـ «عزة النفس» الكامنة في نفس كل انسان، فيمتنع عن طلب المال من الموارد التي تكسب الإنسان الذل، ولا شك أن العقل يرفض الموارد المذلة للمال، ولكن هداية العقل وتوجيهه لوحده غير كاف في كفّ النفس عن طلب المال من مثل هذه الموارد، فيستعين العقل بخصلة «عزة النفس» فيتمكن بها من مواجهة غريزة حب المال.

٢ - يندفع الإنسان تحت ضغط عامل الغريزة الجنسية لتحصيل اللذة الجنسية

بالطرق والوسائل المحرمة والقبيحة، وعامل الغريزة الجنسية من أكثر الغرائز طلباً وإلحاحاً، وليس من ريب أن العقل يدرك بصورة قطعية قُبح إتيان مصادر الاغراء الجنسي في موارد كثيرة، ولكن أنّى للعقل بما أوتي من بصيرة وفهم أن يقاوم ضغط الغريزة الجنسية القاهر، لولا أن يستعين العقل بـ«عفة النفس» الكامنة في نفس كل انسان سويّ بالفطرة، فيمتنع الإنسان عندئذ عن الممارسة التي تستقبحها الفطرة السوية.

٣ - وقد تدفع غريزة الاستعلاء والاستكبار والتميّز على الآخرين الإنسان إلى إذلال الآخرين وقهرهم لاشباع حالة الانانية الفردية بهذه الصورة... وهي حالة يستقبحها العقل بشكل قطعي، ولكن العقل لا يستطيع أن يقاوم سلطان الأنا في النفس، إلا أن يستعين بما أودع الله تعالى في فطرة الإنسان السوي من حب للتواضع للاخرين، فيقاوم العقل عندئذ هذه الحالة من التطرّف في إشباع الأنانية.

٤ - وقد يقع الإنسان تحت سلطان غريزة الغضب وهي من العوامل القوية في النفس، فتدعوه هذه الغريزة إلى الفتك بالاخرين، ومهما كانت بصيرة العقل وإدراكه بقبح هذا العمل، فإن العقل يعجز عن مقاومة هذه الغريزة التي تفرض نفسها على الإنسان بقوة، وتفقده وعيه وصوابه، إلّا أن العقل يستعين «بالرحمة» الكامنة في الفطرة غالباً، وهذه الرحمة تملك من القوة أحياناً ما تملكه غريزة الغضب أو تزيد عليها ، فتردع الإنسان عن كثير من الجرائم التي يدفعه الغضب إليها.

٥ - وقد يندفع الإنسان إلى معصية الله تعالى بتأثير واحدة من هذه الغرائز الكثيرة التي أودعها الله تعالى في النفس، فيتسعين العقل بـ«مخافة الله» فيرتدع من تلك المعصية.

والامثلة على ذلك كثيرة ذكرنا هذه النماذج للتمثيل والتوضيح فقط، ونضيف

إلى هذه الامثلة بعض العناوين الأُخرى من باب التمثيل أيضاً من دون شرح.

يستعين العقل بشكر النعمة، في مقابل التهتك والوقاحة، ويستعين العقل بالحب، في مقابل البغضاء والحقد، يستعين العقل بالرجاء، في مقابل اليأس والقنوط.

هذه أمثله لجنود العقل، ودور جنود العقل في دعم واسناد موقف العقل من الأهواء والشهوات، واستعانة العقل بها في ضبط الشهوات والأهواء في النفس، وصدّها وكفَّها.

استعراض نصوص جنود العقل:

وتحصي النصوص الإسلامية خمساً وسبعين خصلة في النفس من جنود العقل، مهمتها دعم العقل وإسناده في مقابل خمس وسبعين خصلة أخرى في النفس، وهي جنود الهوى، أو كما ورد في هذه النصوص «جنود الجهل»، وهاتان طائفتان متقابلتان من الخصال في داخل النفس تعتبران جبهتين في داخل النفس: جبهة العقل وجنود العقل، في مقابل جبهة الهوى والجهل أو جنود الجهل.

وقد روى العلامة المجلسي في المجلد لاول من «بحار الأنوار» بعض هذه النصوص عن الإمام الصادق عليه السلام والإمام الكاظم عليه السلام نوردها بالنص لنقوم بتحليلها بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

الرواية الأولى:

عن سعد والحميري معاً، عن البرقي، عن علي بن حديد، عن سماعة قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله عليه السلام : «اعرفوا العقل وجندهُ والجهل وجندهُ تهتدوا» ، قال سماعة: فقلت: جعلتُ فداك لا نعرف إلاّ ما عرّفتنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام : «إن الله جلّ ثناؤه خلق العقل وهو أول خلق خلقه من الروحانيين، عن يمين العرش من نوره، فقال له أقبل

فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً، وكرّمتك على جميع خلقي، قال ثم خلق الجهل من البحر الأجاج ظلمانياً، فقال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقبل فلم يقبل، فقال له: استكبرت؟ فلعنه، ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما أكرم به العقل وما أعطاه اضمر له العداوه فقال الجهل : يا ربّ هذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقويته، وأنا ضده ولا قوة لي به، فأعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال: نعم، فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي قال: قد رضيت، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً.

فكان مما أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجند: الخير وهو وزير العقل، وجعل ضدّه الشر وهو وزير الجهل، والإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود، والرجاء وضدّه القنوط، والعدل وضدّه الجور، والرضا وضدّه السخط، والشكر وضده الكفران، والطمع وضده اليأس، والتوكل وضده الحرص، والرأفة وضدها الغرة، والرحمة وضدّها الغضب، والعلم وضده الجهل، والفهم وضده الحمق، والعفة وضدها التهتك، والزهد وضده الرغبة، والرفق وضدّه الخرق، والرهبة وضدّها الجرأة، والتواضع وضده التكبّر، والتوءدة وضدها التسرّع، والحلم وضده السفه، والصمت وضده الهذر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم وضد التجبّر، والعفو وضده الحقد، والرقّة وضدها القسوة، واليقين وضده الشك، والصبر وضده الجزع، والصفح وضده الانتقام، والغنى وضده الفقر، والتفكّر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان، والتعطّف وضده القطيعة والقنوع وضده الحرص، والمواساة وضدها المنع، والمودة وضدها العداوة، والوفاء وضده الغدر، والطاعة وضدها المعصية، والخضوع وضده التطاول، والسلامة وضدها البلاء، والحب وضده البغض، والصدق وضده الكذب، والحق وضده الباطل، والامانة وضدها

الخيانة، والإخلاص وضده الشوب، والشهامة وضدها البلادة، والفهم وضده الغباوة، والمعرفة وضدها الانكار، والمداراة وضدها المكاشفة، وسلامة الغيب وضدها المماكرة والكتمان وضده الافشاء، والصلاة، وضدها الاضاعة، والصوم وضده الافطار، والجهاد وضده النكول، والحج وضده نبذ الميثاق، وصون الحديث وضدّه النميمة، وبرّ الوالدين وضده العقوق، والحقيقة وضدها الرياء، والمعروف وضده المنكر، والستر وضده التبرج، والتقية وضدها الاذاعة، والانصاف وضده الحمية، والمهنة وضدها البغي، والنظافة وضدها القذر، والحياء وضده الخلع، والقصد وضده العدوان، والراحة وضدها التعب، والسهولة وضدها الصعوبة، والبركة وضدها المحق، والعافية وضدها البلاء، والقوام وضده المكاثرة، والحكمة وضدها الهوى، والوقار وضده الخفّة، والسعادة وضدها الشقاء، والتوبة وضدها الاصرار، والاستغفار وضده الاغترار، والمحافظة وضدها التهاون، والدعاء وضده الاستنكاف، والنشاط وضده الكسل، والفرح وضده الحزن، والالفة وضده الفرقة، السخاء وضده البخل.

فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلاّ في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للايمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتى يستكمل ويتقي من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والاوصياء عليهم السلام وإنّما يدرك الفوز بمعرفة العقل وجنوده ومجانبة الجهل وجنوده، وفّقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته»[1].

---

(١) بحار الأنوار ١: ١٠٩ ـ ١١١ كتاب العقل والجهل. و٧٥/ ٣١٦، والمحاسن للبرقي ١/ ١٩٦ دار الكتب الاسلامية، والكافي للكليني ١/ ٢١ دار الكتب الاسلامية.

الرواية الثانية:

وهي رواية هشام بن الحكم عن الإمام أبي الحسن موس بن جعفر الكاظم عليه السلام، وقد رواها ابن شعبة الحراني في تحف العقول[١] والكليني (رحمه الله) في «أُصول الكافي»[٢]، ورواها عنه المجلسي (رحمه الله) في «بحار الأنوار»[٣]. والرواية طويلة نأخذ منها موضع الحاجة.

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «يا هشام اعرف العقل وجنده، والجهل وجنده تكن من المهتدين»قال هشام: لا نعرف إلاّ ما عرّفتنا فقال عليه السلام: «يا هشام، انّ الله خلق العقل وهو أوّل خلق خلقة الله... ثم جعل للعقل خمساً وسبعين جنداً، فكان مما أعطى العقل من الخمس والسبعين جنداً: الخير وهو وزير العقل، والشر وهو وزير الجهل. الإيمان، الكفر. التصديق، التكذيب. الاخلاص، النفاق. الرجاء، القنوط. العدل، الجور. الرضاء، السخط. الشكر، الكفران. اليأس، الطمع. التوكل، الحرص. الرأفة، الغلظة. العلم، الجهل. العفة، التهتك. الزهد ، الرغبة. الرفق، الخرق. الرهبة الجرأة. التواضع، الكبر. التوءدة، العجلة. الحلم، السفه. الصمت، الحذر. الاستسلام، الاستكبار. التسليم، التجبر. العفو، الحقد. الرحمة، القسوة. اليقين، الشك. الصبر، الجزع. الصفح، الانتقام. الغنى، الفقر. التفكر، السهو. الحفظ، النسيان. التواصل، القطيعة. القناعة، الشره. المواساة، المنع. المودة، العداوة. الوفاء، الغدر. الطاعة، المعصية. الخضوع، التطاول. السلامة، البلاء. الفهم، الغباوة. المعرفة، الانكار المداراة، المكاشفة. سلامة الغيب، المماكرة. الكتمان، الافشاء. البر، العقوق.

---

(١) تحف العقول ص ٤٠٠ ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين في قم.

(٢) اصول الكافي ١: ١٣ ـ ٢٣ وموضع الحاجة في هذه الرواية في صفحة: ٢٢ ـ ٢١.

(٣) بحار الأنوار ١: ١٥٩.

الحقيقة، التسويف. المعروف، المنكر، التقية، الاذاعة. الانصاف، الظلم. النفي، الحسد. النظافة، القذر. الحياء، القحة. القصد، الاسراف. الراحة، التعب. السهولة، الصعوبة. العافية، البلوى. القوام، المكاثرة. الحكمة، الهوى. الوقار، الخفة. السعادة، الشقاء. التوبة، الاصرار. المخافة، التهاون. الدعاء، الاستنكاف. النشاط، الكسل. الفرح، الحزن. الالفة، الفرقة. السخاء، البخل. الخشوع، العجب. صدق الحديث، النميمة. الاستغفار، الاغترار. الكياسة، الحمق. يا هشام لا تجتمع هذه الخصال الا لنبي أو وصي أو مؤمن امتحن الله قلبه للايمان، وأما سائر ذلك من المؤمنين فانّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود من أجناد العقل، حتى يستكمل العقل ويتخلص من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وفّقنا الله وإياكم لطاعته».

تأملات في نصوص جنود العقل والجهل:

بعد استعراض نصوص وروايات جنود العقل والجهل، يحق لنا أن نقف بعض الوقت لنتأمل في معطيات هذه النصوص، وهي جديرة بالكثير من التأمل والتفكير، وفيما يلي مجموعة من النقاط التي تستحق التفكير والتأمل من هذه النصوص:

١ - إنّ أوّل ما نلاحظه في هذه النصوص أن هذه الروايات تتحدث بلغة الرمز، وهي لغة مألوفة في الكتاب والسنة، واكثر ما نألف هذه اللغة في النصوص التي تتعلق بخلق الإنسان والكون، وفهم هذه النصوص يحتاج إلى تذوّق لروح النص وتجاوز لحرفيته.

٢ - ثم يلفت نظرنا في النص الاول والثاني أن العقل والجهل إمتثلا معاً أمر الله تعالى لهما في الإدبار، واختص العقل وحده بامتثال أمر الله تعالى في الاقبال، أما الجهل فقد أعرض عن تكليف الله تعالى له بالاقبال ولم يمتثل.

والجهل هنا هو «الهوى» كما أفهمه من هذين النصين بقرينة مقابلة العقل وبقرينة مفردات الهوى الواردة في قائمة جند الهوى.

وأظن - والعلم عند الله - أن الأمر بالادبار في هذا النص هو الامر التكويني الذي يشير إليه قوله تعالى (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)[١].

وفي هذا الامر يشترك العقل والهوى، بل الكائنات كلّها تشترك في تلقّي هذا الامر من لدن الله تعالى، والاستجابة له، والانقياد.

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[٢].

(سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[٣].

والشهوات تستجيب لأوامر الله تعالى التكوينية، كما يستجيب العقل وجنده. وأما الامر بالاقبال فبقرينة مقابلته للأمر بالادبار، وتخلف الهوى عن العقل في امتثال هذا الامر، من المظنون أن يكون المقصود منه الأوامر التشريعية، وهذه الطائفة من الاوامر هي التي يطيعها العقل ويتمرد عليها الهوى.

٣ - وممّا يلفت النظر في كل من هذين النصين الشريفين: أن العقل خلق من مادة تختلف عن مادة الهوى والشهوات.

وقد ورد في النص أن العقل من الروحانيين، وقد خلقه الله تعالى من نوره،من يمين العرش، بينما خلق الله تعالى الجهل «الهوى» من بحر ظلماني أُجاج.

ونحن على نحو التحديد والتشخيص لا نستطيع ان نحدد المادة الاولية لكل من

---

(١) البقرة: ١١٧.

(٢) النحل: ٤٠.

(٣) مريم: ٣٥.

العقل والهوى، وعلم ذلك عند من أودع الله تعالى لديه علمه ممن علّمهم تأويل الاحاديث، إلاّ أن الذي لا نشك فيه في كل من هذين النصين هو أن مادة العقل مشتقة من الوعي والفهم والادراك، وهو من نور الله تعالى، ومادة الهوى مجردة عن الوعي والادراك، إن الهوى تراكم ظلماني من الحاجة والطلب، لا يتخلله نور الوعي والادراك، والعقل تراكم من الوعي والادراك، وقد جعلهما الله تعالى المحورين الأساسيين لشخصية الإنسان.

٤ - ووردت في النصين إشارة إلى أن الله تعالى أكرم العقل وعظّمه، بعد أن أطاعه العقل في الادبار والاقبال معاً، بينما لعن الجهل حينما استكبر على أمر الله تعالى وتمرد وعصى، واللعن هنا الطرد والابعاد عن الله تعالى، وكأن النص يقرر أن لشخصية الإنسان محورين أساسيين: أحدهما يقرّبه إلى الله تعالى، والآخر يبعّده عن الله تعالى ويطرده، وهذان المحوران هما العقل والهوى، يتجاذبان الإنسان في اتجاهين متعاكسين، وقد خلقهما الله تعالى كذلك، فيوجّه العقل الإنسان إلى الله، بينما يطرد الهوى الإنسان عن الله، وهما اتجاهان متعاكسان.

٥ - ورد في كل من النصين: أن الله تعالى عندما منح العقل خمساً وسبعين خصلة جنوداً له، طلب الجهل «الهوى» أن يرزقه الله من الجنود عدد جنود العقل، وعند ذلك خاطب الله تعالى الجهل وقال له «فإنْ عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي».

ونحن إذ نعيد إلى ذاكرة القارئ مرة أُخرى أن كلاً من هذين النصين يتحدثان بلغة الرمز، وليس بالضرورة أن يكون الحوار في كل من هذين النصين بين الله تعالى وبين العقل والهوى، حواراً حقيقياً، نقول: إن هذه الفقرة من النص ذات دلالة عميقة على موقع الهوى وقيمة الهوى في التصور الإسلامي، ففي الوقت الذي يقرر

النص: إن من شأن العقل أن يوجه الإنسان إلى الله، ومن شأن الهوى أن يطرد الإنسان ويبعده عن الله... يقرر النص أن الهوى إذا لم يدخل الإنسان في معصية الله فهو باق مقيمٌ في حيّز رحمة الله، فإذا أدخل الهوى الإنسان في معصية الله عندئذ فقط يخرج من دائرة رحمة الله.

إذن الإسلام لا يستقذر الهوى، ولا يعتبره عذاباً ونقمة على الإنسان، وإنّما هو رحمة من رحمة الله تعالى، ما لم يخرج الإنسان من دائرة طاعة الله إلى دائرة معصيته، فإذا أخرج الإنسان إلى معصية الله انقلب الهوى إلى عذاب ونقمة في حياته.

وعلى عكس طائفة من النظريات المنسوبة إلى بعض المسالك الدينية من غير الإسلام، التي تستقذر الأهواء والغرائز والشهوات، يقرر الإسلام مبدأً بالغ الاهمية في تقييم الهوى، ويضعه في قائمة رحمة الله، ولا يعتبر الاستجابة للهوى أمراً معيباً يجب على الإنسان أن يتنزه عنه، ما لم يخرج الإنسان من طاعة الله إلى معصيته، بل يقرر الإسلام أنّ الاستجابة المضبوطة والمقبولة لهذه الشهوات تعتبر في بعض الحالات سلّماً إلى الكمال في حياة الإنسان.

٦ - والنص يشير إلى أن العقل له وجهان: الوجه الاول الوعي والادراك، والوجه الثاني التنفيذ والفعل، وبقدر ما يجتمع للعقل من جنود وخصال يستكمل العقل وجهه التنفيذي، وبقدر ما ينقص من خصال العقل وجنده تنخفض قدرة العقل على التنفيذ ، وقدرته على التحكم في الشهوات والاهواء.

يقول النص: «لا تجتمع هذه الخصال - خصال العقل - إلاّ لنبي أو وصي نبي، أو مؤمن امتحن الله قلبه للايمان، وأما سائر ذلك من المؤمنين فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود من أجناد العقل، حتى يستكمل العقل،

ويتخلص من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء».

وليس من ريب في أن كمال الوجه التنفيذي للعقل ينعكس على الوجه الآخر للعقل، فتكتمل رؤية العقل وبصيرته ووعيه.

وبذلك تكتمل هذه المعادلة في حلقاتها الثلاث:

إذا استكمل الإنسان خصال العقل وجنوده تستكمل قدرة العقل على التنفيذ ومقاومة الهوى.

وهذا يكمّل بصيرة العقل ووعيه، وإدراكه.

وعندئذ يكون الإنسان في درجة الأنبياء والاوصياء كما يقول النص.

وهذا الذي يحدده ويشخصه النص يشكل أساساً ومنطلقاً جيداً للتربية وتقويم السلوك في الإسلام، فإن العقل يكون بصيرة وتنفيذاً.

وضعف البصيرة من ضعف القوة التنفيذية للعقل.

وضعف هذا الاخير من ضعف خصال العقل.

فإذا استكمل الإنسان في نفسه هذه الخصال، كملت شخصيته من حيث البصيرة والتنفيذ معاً.

٧ - هذه النصوص تقسم السلوك البشري إلى شطرين متميزين: «التقوى والفجور»، ومهمّة «التقوى» اتّباع العقل وتحكيمه على السلوك ومهمّة «الفجور» اتّباع الهوى وتحكيم جند الجهل والهوى على السلوك.

وتتلخص حركة الإنسان إلى الله تعالى في التخلص من سلطان جنود الجهل، والخروج من قبضة سلطان الهوى، والدخول في دائرة جنود العقل، وتحكيم العقل على السلوك.

٨ - في هذه القائمة خمس وسبعون زوجاً من أنماط السلوك البشري، كل زوج منه يتألف من نحوين متقابلين من السلوك، أحدهما يدخل في قائمة السلوك العقلاني، والآخر يدخل في قائمة السلوك الشهواني، وعليه فإن هذه القائمة تتألف من خمس وسبعين مفردة من مفردات السلوك العقلاني، وخمس وسبعين مفردة من مفردات السلوك الشهواني، والطائفة الأولى هي جنود العقل، والطائفة الثانية هي جنود الجهل.

٩ - وعند التأمل في هاتين القائمتين من مفردات السلوك البشري يظهر أن الله تعالى قد جعل لكل هوىً في نفس الإنسان قوة مكافئة له في الاتجاه المقابل للهوى، لئلًا يقع الإنسان في أسر الهوى بصورة قهرية، وإذا كانت ضرورة تكامل الإنسان ونموِّه وحركته تتطلب وجود الهوى في نفس الإنسان، فإن الله تعالى قد أودع في نفس الإنسان في مقابل كل مفردة من مفردات الهوى قوة مكافئة لها من مفردات العقل لتحقيق هذا التعادل.

١٠ - ولكل من هذه المفردات المائة والخمسين من مفردات السلوك البشري عمق ورصيد وجذور في داخل النفس، وليس شيئاً طارئاً على نفس الإنسان، فما يرتكبه الإنسان ويعمله من خير أو شر، له في النفس جذور، ورصيد، وعمق، وقد يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[1]، فكل من الفجور والتقوى نابع من داخل النفس، وليس أمراً يضاف إلى سلوك الإنسان من الخارج. وقد ألهمه الله تعالى إياه (فألهمها) يعني أودع الله في نفس كل إنسان مادة كل من الفجور والتقوى، وهما ما ورد التعبير عنهما في النصوص المتقدمة بـ (جنود العقل

(١) الشمس: ٨

والجهل).. كل منهما مودع ي نفس الإنسان، ونابع منها، إلاّ أن الله تعالى قد هدى الإنسان إلى الالتزام بالعقل وجنده، ومكافحة الهوى وجنده وضبطه (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)(١) و(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)(٢) والناس بين من يستجيب للهداية الالهية ومن يرفضها ويكفر بها. يقول تعالى:(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(٣).

١١ - التأمّل في قائمة «جنود العقل» يمكّن الإنسان من تصنيف جنود العقل إلى صنفين هما: «المحفزات والضوابط».

أما الحوافز فهي العوامل الباعثة في نفس الإنسان كالايمان والمعرفة والرحمة والصدق، وأما الضوابط فهي عوامل الكفّ والصدّ، والضبط والتحديد في نفس الإنسان «كالعفّة، والرهبة، والصبر، والقناعة، والحياء.

والحوافز هي مجموعة الروافد التي ترفد شخصية الإنسان وتعطيه ما يحتاجه من الخير والرحمة والمعرفة... والضوابط هي مجموعة العوامل التي تحصّن شخصية الإنسان وتحفظه من السقوط، وهذه المجموعة من الحوافز والضوابط تبني وتقوّم وتصون شخصية الإنسان، وتدعم دور العقل في بناء وتقويم الشخصية.

ولابد لهذا الاجمال من تفصيل:

للعقل نوعان من الفعل في حياة الإنسان: النوع الاول تحريك الإنسان باتجاه الغايات التي تحقق للإنسان كماله ونضجه الخاص به، والنوع الثاني كفّ الإنسان

---

(١) البلد/ ١٠.

(٢) الشمس/ ٩ - ١٠.

(٣) الإنسان/ ٣.

عن الانزلاق إلى مواقع الخطر.

ونوضّح ذلك ببعض الامثلة: إن الإنسان يتكامل في مسير الحركة إلى الله تعالى، ومن أهم أدوار العقل دعوة الإنسان إلى الانشداد بالله وذكر الله وعبادة الله وحب الله، وهذه الحركة من «الأنا» إلى «الله» حركة ضرورية وأساسية في حياة الإنسان.

والإنسان يتكامل كذلك في مسير الحركة إلى الالتحام بالمؤمنين وأولياء المؤمنين وهو ما يسميه الإسلام بـ «الولاء»، وذلك بالانصهار في المجتمع الإسلامي والتعاون والتواصل والتراحم والتحابب مع المؤمنين، وهذه الحركة من «الأنا» و«الفردية» الى الانصهار في الأمة المؤمنة هي حركة أساسية وضرورية للإنسان.

وهذان مثالان للفعل الايجابي للعقل، والإنسان قد يواجه خطر الانزلاق باتجاه معاكس من الله إلى الأنا ونوازع الأنانية، وذلك بالارتماء في الأنانية والذاتية والحسد والطمع والحرص والجشع والركون إلى الأنانية والذاتية والخضوع لإغراءات الشيطان ووساوسه.

وقد ينحرف الإنسان من الحركة من الفرد إلى الجماعة إلى اتجاه معاكس بالنزوع من الجماعة إلى الفردية والركون إلى النوازع الفردية، في النفس، وحالة الاستئثار، وسوء الظن، والحساسية من الآخرين، والطمع بما في أيدي الآخرين، فيقوم العقل بدور فعّال ومؤثر وقوي في كل من هذين الاتجاهين:

١ - في توجيه حركة الإنسان من «الأنا» إلى «الله»، وحركة الإنسان من الحالة «الفردية إلى «الذوبان في الامة».

٢ - وفي صدّ الإنسان عن الاسترسال في الاستجابة للهوى والانزلاق معه في الاتجاه المعاكس في الردّة من «الله» إلى «الأنا»، والعودة من الذوبان في «الأمة» إلى الحالة «الفردية»، ومن «الايثار» إلى «الاستئثار».

إلاّ أن العقل وحده، لا يقوى على أن ينهض بهذين المشروعين الكبيرين، في توجيه حركة الإنسان إلى «الله» و«الامة»، وفي صدّ الإنسان عن الانزلاق إلى «الأنا» و«الفردية»، فيستعين العقل بالخصال التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان لدعم العقل في هذا الشأن وذاك الشأن.

وهذه الخصال على طائفتين، طائفة منها ترفد شخصية الإنسان بالحركة التي يحتاجها الإنسان في حركته من «الأنا» إلى «الله» والحركة التي يحتاجها الإنسان من «الفردية» إلى «الولاء» للمؤمنين، وتمنح طائفة أُخرى منها الإنسان القدرة على مقاومة ضغط الهوى لصدّه وتحديده.

وأمثلة ذلك كثيرة: فالنزوع الفطري الى الله، والنزوع إلى حب الله وذكره وعبادته يحرك الإنسان إلى الله، كما أن النزوع إلى الحياة الاجتماعية وعاطفة الحب والرحمة تجاه الآخرين وحالة الألفة تحرك الإنسان إلى المجتمع.

وهذه الطائفة من خصال العقل تعتبر الحوافز والدوافع والبواعث في السلوك الانساني العقلاني. وتقع في مقابلها مجموعة الخصال التي تشكل الضوابط والروادع في السلوك الانساني العقلاني.

فالحياء مثلاً يردع الإنسان عن التهتّك، والحلم يردع الإنسان عن الاسترسال في الغضب، والعفّة تردع الإنسان عن الممارسات غير المشروعة لغريزة الجنس، والقناعة تردع الإنسان عن الحرص والجشع، وهكذا.. وهذه المجموعة هي الضوابط السلوكية في حياة الإنسان، وهذه الضوابط هي «العِصَم» التي تعصم الإنسان، وتحفظه من السقوط والهلاك، ولولا هذه العصم التي أودعها الله تعالى في النفس لم يتمكّن العقل بمفرده أن ينهض بمسؤولية مقاومة الهوى. وهذه «العصم» تقوى وتضعُف في حياة الإنسان، ولكل من هذه القوة والضعف قوانين وأسباب

محددة، وسوف نقدم توضيحاً أكثر لـ «العصم» فيما يلي بعد قليل إن شاء الله.

١٢ - وهذه الخصال التي سمّيناها «جنود العقل» والتي تدعم العقل وتسنده، لابد أن تكون محكومة لأصول العقل والدين، وعندما تتحرّر هذه الخصال من سلطان العقل والدين، فقد تتحول أحياناً، أو في الغالب، إلى عناصر ضارّة وعوامل سلبية في حياة الإنسان.

فالرحمة كما ذكرنا من جملة المحفزات التي ترفد شخصية الإنسان، ولكن عندما يخرج من سلطان العقل والدين فقد تتحول الى عنصر ضار، كما لو كانت الرحمة بالمجرمين، حيث ينهى العقل وينهى الدين عنها: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾[1]، وقد يتحوّل الانفاق عندما ينحرف عن العقل والدين الى عامل للتخريب يمنع عنه العقل والدين: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾[2].

١٣ - ليس لجنود الجهل سلطان قاهر على إرادة الإنسان، ومهما يقوى جنود الجهل، فلا يسلبون الإنسان ارادته، ويبقى حق اتخاذ القرار خاضعاً لارادة الإنسان، واقصى ما في الأمر أن جنود الجهل عوام ضاغطة على إرادة الإنسان، ويكون لها دور تحريكي وتحفيزي على الارادة من دون أن تسلب إرادة الإنسان، أو يسلبها الاستقلالية في اتخاذ القرار... إلا أن الارادة تتأثر من دون شك بهذه الخصلة أو تلك من جنود العقل وجنود الجهل.

١٤ - من المسائل الأساسية في محاسبة قوة وضعف جنود العقل التربية الأخلاقية وسوء التربية؛ فإن التربية الاخلاقية، والتقوى... ترّكز وتدعم خصال

---

(١) النور: ٢.

(٢) الإسراء: ٢٩.

العقل، وفي المقابل ترقّق وتضعف الشهوات والأهواء في النفس.

والعكس ايضاً صحيح، فإن الاستجابة للشهوات والأهواء، وإهمال عامل التقوى والتربية يغلّظ ويضاعف الشهوات والأهواء، ويضعف خصال جنود العقل ويرقّقها، ولذلك ورد في النصوص الإسلامية التحذير من الاستجابة المطلقة للأهواء حتى فيما يحلّ منها، تنزيهاً للإنسان عن حالة الانجراف مع اللذات والشهوات.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الباب: «من أكل ما يشتهي لم ينظر الله إليه حتى ينزع أو يترك»[1]. فإنّ من الاسترسال في الاستجابة للشهوات والأهواء أن يأكل الإنسان ما يشتهي كما يشتهي، فإذا فعل الإنسان ذلك في الحلال، فلا يكاد أن يسيطر على نفسه في الحرام، ومثل هذا الإنسان لا تهبط عليه رحمة الله كثيراً «ولم ينظر الله إليه».

وهناك مجموعة عوامل لترقيق الشهوات والأهواء وإضعافها.

يقول إبراهيم الخواص: دواء القلب خمسة أشياء: ١ - قراءة القرآن ٢ - وإخلاء البطن ٣ - وقيام الليل ٤ - والتضرّع عند السحر ٥ - ومجالسة الصالحين[2]. وكان يقول أحدهم: خلق الله القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات ولا يمحو الشهوات من القلب إلاّ خوف مزعج أو شوق مقلق[3].

وإلى هذه الحالة من ترقيق الشهوات وإضعافها، ودعم واسناد خصال العقل يشير أمير المؤمنين عليه السلام في كلمته المعروفة في وصف المتّقين: «قد أحيى عقله، وأمات

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٧٨ حديث رقم ١٠. و٧٧/ ١٤٢، وكتاب التمحيص لمحمد بن همام الاسكافي ٣٤ ط/ (مدرسة الامام المهدي ـ قم) وتحف العقول لابن شعبة الحراني ٣٨.

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي: ٧٠.

(٣) المصدر السابق.

نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق»[١]. وهذا الجليل الذي يدقّ، والغليظ الذي يلطف هو الهوى.

ومهمة التربية والتزكية في الإسلام هو ما يشير إليه الإمام من تلطيف الغليظ من الأهواء، وتدقيق الجليل من خصال الهوى، التي يحصيهن النص بخمس وسبعين خصله، وفي مقابل ذلك التركيز والدعم لخصال العقل البالغة خمساً وسبعين خصلة.

١٥ - وعندما يتم تركيز ودعم هذه الخصال من جنود العقل فإن العقل يستكمل قوته وكماله وسلطانه على الهوى، ويفرض سيطرته الكاملة على الشهوات والغرائز، ويحصّن الإنسان ويقهر سلطان شهواته وغرائزه، وقد روي عن علي عليه السلام : «العقل الكامل قاهر للطبع السوء»[٢].

عندئذ فقط يكون الإنسان قوياً وشديداً على خلاف ما يتصوره الناس، فإن الناس يفهمون من القوة والشدة سلطان الهوى وسيطرة الهوى، وأما في الإسلام فإن القوة والشدة في السيطرة على الهوى وليس في سيطرة الهوى.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «ليس الشديد من غلب الناس، ولكن الشديد من غلب نفسه»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «ليس الشديد بالصرعة إنّما الذي يملك نفسه عند الغضب»[٤].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٢٠.

(٢) بحار الأنوار ٩: ٧٨. ومطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي ٢٥٠.

(٣) ذم الهوى لابن الجوزي: ٣٩.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٣٦ و٢/٥١٧ والبخاري ٧/ ٩٩، ومسلم ٨/ ٣٠. تحف العقول لابن شعبة الحراني ٤٧ وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ص ٣٨٠، مشكاة الأنوار للطبرسي ٥٣٠، وغوالي اللئالي لابن أبي جمهور الاحسائي، وبحار الأنوار ٧٤/ ١٥١، والمجموع لمحيي الدين ←

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «أشجع الناس من غلب هواه»[١].

ثمرات وإفرازات العقل الكامل:

وعندما يستكمل العقل سلطانه ونفوذه على الأهواء، ويستكمل دوره ورسالته في توجيه الإنسان ينقلب العقل الى مصدر لكثير من البركات والتوفيقات، ومبدأ لكثير من الانقلابات في حياة الإنسان، وفيما يلي نستعرض بعض هذه النقاط من إفرازات العقل وثمراته في حياة الإنسان من خلال النصوص الإسلامية، ونترك تفصيل ذلك للدراسات التفصيلية في هذا الموضوع.

من ثمرات العقل الكامل الاستقامة على الحق:

عن علي عليه السلام: «ثمرة العقل الاستقامة»[٢].

وعنه عليه السلام: «ثمرة العقل لزوم الحق»[٣].

ومن ثمرات العقل الكامل مقت الدنيا:

عن علي عليه السلام: «ثمرة العقل مقت الدنيا، وقمع الهوى»[٤].

ومن ثمرات العقل الكامل السيطرة على الهوى:

عن علي عليه السلام: «اذا كمل العقل نقصت الشهوة»[٥].

←

النووي ١٣/ ٢٧١، والموطأ لمالك ٢/ ٩٠٦، وتنوير الحوالك للسيوطي ٦٥٤، والمغني لابن قدامة ٤/٤٥٥، و٧/ ٣١٥، والشرح الكبير لابن قدامة ٢/ ٦٩١ و٤/ ٤٥٥، وسبل السلام للكحلاني ٤/ ١٨٢.

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٧٦ حديث ٥، ومستدرك وسائل الشيعة ٢: ٣٤٥ ط قديم.

(٢) غرر الحكم للآمدي ١: ٣٢٠.

(٣) المصدر السابق ١: ٣٢٠.

(٤) غرر الحكم للآمدي ١: ٣٢٣.

(٥) المصدر السابق ١: ٢٧٩.

وعنه عليه السلام : «من كمل عقله استهان بالشهوات»[١].

وعنه عليه السلام : «العقل الكامل قاهر للطبع السوء»[٢].

ومن ثمرات العقل الكامل حسن العمل وسلامة السلوك:

وعن علي عليه السلام : «من كمل عقله حسن عمله»[٣].

---

(١) المصدر السابق ١: ١٨٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٨: ٩.

(٣) المصدر السابق.

العصم

والآن بعد هذه الجولة في نصوص «جنود العقل» ودلالات هذه النصوص نعود الى دراسة وسائل علاج الهوى ومكافحته.

وقد عرفنا خلال هذه الجولة أن العقل وحده لا يملك القدرة الكافية على مقاومة الهوى وصدّه، ولو كان العقل وحده يقع في مقابل جبهة الهوى الواسعة والقوية لكان جانب العقل هو الجانب الضعيف والمهزوم... إلاّ أن الله تعالى قد أودع في داخل النفس للعقل جنوداً في مقابل جنود الهوى، تدعم موقع العقل وتسنده، وتمكّنه من مجابهة الهوى، وهذه الجنود كما ذكرنا تكافئ من حيث العدد جنود الهوى وتعاكسها من حيث الاتجاه والطلب.

وطائفة من هذه الجنود هي «العصم»، والعقل يستعين بهذه «العصم» لصدّ الهوى ومجابهته وضبطه، وبناءاً على ذلك فان تركيز هذه العصم من بين جنود العقل وخصاله وتثبيتها في النفس هو الطريقة التربوية الصحيحة لعلاج الهوى ومكافحته في النفس، وهو المنهج الإسلامي في مكافحة الهوى وعلاجه، فإن مهمة «العصم» هي حفظ الإنسان من السقوط في المعاصي، وتحصينه من سيطرة الأهواء والشهوات، ولولا هذه العصم التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان لم يكن العقل وحده قادراً على كفّ النفس وصدّها وضبط الشهوات، ولكن «العصم» هذه تدخل في ساحة النفس لضبطها وصدّها وتملك القدرة والكفاءة على درجة عاليه جداً لضبط النفس وتحديد الشهوات والسيطرة عليها.

وهذه العصم تقوى وتضعف، فإذا قويت حصّنت الإنسان بصورة كاملة، وعصمته عن الذنوب والمعاصي، وإذا ضعفت تمكّنت الشهوات من الإنسان وتملّكت أمره بصورة كاملة، وبالتقوى تقوى هذه العصم، وبالفجور والذنوب

تضعُف، حتى كأن الذنوب تهتكها، فيكون الإنسان معرّضاً للهيب الأهواء والشهوات من غير عازل ولا حجاب عاصم، وقد ورد في دعاء كميل في هذا المعنى: «اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم».

والعلاقة بين «التقوى» و«العصم» علاقة تبادلية «جدلية» تكاملية، تؤثر التقوى في دعم العصم، وتؤثر «العصم» في دعم «التقوى»، كما أن العلاقة بين «الذنوب» و «العصم» علاقة متبادلة أيضاً، ولكن بعكس الاتجاه السابق، فإن الذنوب تؤثّر في ترقيق وهتك العصم، ورقّة العصم وهتكها يؤثّر في تمكين الأهواء والشهوات من الإنسان.

وهذه العصم نابعة من داخل النفس، ولها رصيد وعمق ومدد في الفطرة، وقد أودع الله تعالى في عمق نفس الإنسان وفطرته كنوزاً من هذه «العصم» تدعم العقل في مهمته التي وظّفه الله تعالى لها.

ومن رأي بعض مدارس علم الاجتماع: أن هذه العصم تنتقل الى النفس من الخارج، من داخل المجتمع، وليست هي من الأمور «القَبلية» النابعة من داخل النفس، وإنّما هي من الأمور «البَعدية» التي يكتسبها الإنسان من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، ولذلك نرى أن درجة قوة العصم تختلف من بيئة الى بيئة أُخرى، فترتفع في الأوساط الاجتماعية المحافظة بينما تنخفض في الأوساط الاجتماعية المتحلّلة. وقد يبلغ المجتمع درجة من التحلّل الخلقي تنعدم معها العصم في النفوس بصورة كاملة.

ويخضع هذا الرأي لمناقشات ومؤاخذات قوية، لا سبيل الى دفعها فإنّ الظواهر النفسية النابعة من عمق الفطرة والنفس تتأثر بالتأكيد بالوسط الاجتماعي، ولا سبيل لعزل الظاهرة النفسية عن الوسط الاجتماعي، ومن الخطأ أن نتصوّر أن الظاهرة النفسية تختلف عن الظاهرة غير النفسية (الاجتماعية) بقبول الثانية للمؤثرات

الاجتماعية، ورفض الأولى لهذه المؤثرات، فإن الظاهرة النفسية لا يمكن أن تنعزل، ولا يمكن أن تنسلخ عن الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه سلباً وايجاباً.

والفرق بين هذه الظاهرة وتلك هو: أن الظاهرة النفسية ظاهرة شاملة لكلّ المجتمع البشري، وممتدة على كل التاريخ الحضاري للإنسان على درجات مختلفة، بينما الظاهرة الاجتماعية تعيش وتموت، في منطقة من الأرض، ولا يكون لهاوجود في منطقه أُخرى منها.

ولنضرب لذلك مثلاً يوضح الأمر أكثر: «الإيمان بالله» ظاهرة نفسية نابعة من الفطرة في مقابل «الإلحاد» الذي يعتبر حالة اجتماعية من التمرّد على الاستجابة للفطرة في الإيمان بالله، والتمرد على الله تعالى.

وكل من هاتين الحالتين: «الإيمان والإلحاد» توجدان في تاريخ الإنسان، وعلى ظهر هذا الكوكب، إلاّ أن حالة «الإيمان» حالة ممتدة على امتداد التاريخ الحضاري للإنسان، ولا تخلو فترة من فترات التاريخ عن هذه الحالة، حتى حالة أنّ عبادة الأوثان والشمس والقمر تعود في جذورها الى هذه الحالة، وتعتبر تعبيراً منحرفاً عن هذه الحالة والحاجة العميقة في نفس الإنسان، بينما «الإلحاد» لا يملك مثل هذا الامتداد في التاريخ الحضاري للإنسان، وتمرّ على الإنسان فترات طويلة لا يكون للإلحاد حضور فاعل وقوي ورسمي، يدعمه فكر وثقافة وفلسفة.

وحالة «الإيمان بالله» حالة شاملة وعاملة على ظهر الأرض، بينما حالة «الإلحاد» تعتبر فقاعات تبرز هنا وهناك بصوره ضعيفة ولفتره محدودة ثم تنفجر، وآخر هذه الفقاعات وأقواها في التاريخ السياسي والحضاري والفكري للإنسان «الماركسية» التي أسَست كياناً دولياً وسياسياً عالمياً ضخماً، ثم تلاشت هذه الفقاعة مرة واحدة.

وليس «الإيمان بالله» كذلك قطعاً، ومن لا يفرّق بين ظاهرة «الإيمان بالله» و«الإلحاد» يغالط نفسه حتماً.

عودة الى البحث عن العصم

لقد شغلنا البحث عن عمق «العصم» في النفس عن البحث في نظام العصم ودورها في حياة الإنسان، وعن منهج التربية الإسلامية في استثمار العصم في مكافحة الهوى.

وأودّ أن أُبسّط الحديث عن «العصم» في هذه النقطة من البحث بشيء أكثر من هذا الايجاز المخلّ الذي قدمته الآن، وقد كتبت من قبل بحثاً عن العصم، اقتبس منه بعض الفقرات التي لها علاقة بهذا البحث.

قلنا: إن سلطان الهوى على الإنسان سلطان نافذ قوي، وإن لهذا السلطان دوراً تخريبياً واسعاً في حياة الإنسان، وما لم يتمكّن الإنسان من ضبط الهوى وتحديده، وتعديله فإنّه لا يسلم من الفعل التخريبي للهوى في حياته، فلابد إذن من منهج تربوي كامل لمواجهة سلطان الهوى وطغيانه وآثاره التخريبية في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، فما هو هذا المنهج؟ وما هو هذا الاتجاه التربوي الذي يمكّن الإنسان من سلطان أهوائه وشهواته.

تتّجه المذاهب الرهبانية الى نظرية «كبت» الأهواء، وكبح الشهوات «داخل النفس» من جانب، واعتزال الفتن والمثيرات والمغريات في «واقع الحياة» من جانب آخر، وهذا اتجاه معروف في هذه المدرسة، وله جذور عميقة تمتد الى أعماق التاريخ.

وتتلخّص هذه النظرية في عزل «الأهواء» عن «الفتن» وتجنّب متاع الحياة الدنيا، والابتعاد عنها، فإن مشكلة الإنسان ما دامت تكمن في الاحتكاك بينهما، وفي العلاقة بين الهوى والفتنة، فإن سلامة الإنسان تكمن في عزل الهوى عن الفتن، واعتزال الدنيا ومغرياتها ومثيراتها، وتتم هذه المنهجية من خلال «اعتزال» الحياة الدنيا، ومن خلال «كبت» الغرائز وكبحها.

وهذه منهجيّة معروفة في تاريخ الفكر، وتمتد هذه المدرسة في بعض خطوطها وامتداداتها المعاصرة إلى تعليمات الكنيسة «وليس المسيحية»، والإسلام يعارض هذه المنهجيّة معارضة شديدة، ويرى أن «الاعتزال» و «الكبت» و «الكبح» ليس فقط لا يحل مشكلة الإنسان تجاه الأهواء والفتن، وإنّما تحرف الإنسان الى اتجاه معاكس لمسيرة سنن الله في خلق الإنسان، ولنقرأ هذه الطائفة من الآيات من سورة الأعراف: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)[1].

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)[2].

وهذه الآية الكريمة تدعو أوّلاً الى الدخول في الدنيا والتمتّع بطيباتها من دون إسراف: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا)، ثم تشجب موقف أُولئك الذين يحرّمون ما أحل الله من طيبات الدنيا: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ).

ثم تذكر الآية: أن الدنيا وما فيها من الطيبات للذين آمنوا يشاركهم فيها غيرهم من المشركين، وأما في الآخرة فلهم هذه الطيبات خالصة دون المشركين: (قُلْ هِيَ

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) الأعراف: ٣٢ ـ ٣٣.

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ثم تبين الآية المباركة: أن الله تعالى حرّم الفواحش في هذه الدنيا ما ظهر منها وما بطن، وحرّم الإثم والبغي والعدوان فقط.

إذن فالإسلام يرفض الدعوة الى مقاطعة الدنيا، ويأمر بالتمتّع بطيباتها، ويشجب عمل أُولئك الذين يقاطعون ويحرّمون ما أحلّ الله من الطيبات، ومن هذه الطيبات ما يفتن الله بها عباده، ومع ذلك كلّه لا يأمرنا الله تعالى أن نعتزلها ونتبرأ منها، وإنّما يأمرنا تعالى أن نتجنّب الفواحش منها فقط، وأن نحذر التجاوز لحدود الله.

سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يقول: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة»؛ قال عليه السلام: «أراك تتعوّذ من مالك وولدك، يقول تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ولكن قل: اللهمّ إنّي أعوذ بك من مضلاّت الفتن»(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقولنّ أحدكم: اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلاّ وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلاّت الفتن، فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٢)».

إذن فما هي المنهجية التي يتبعها الإسلام في ضبط الهوى وتعديله وتحديده؟ إن الإسلام يطرح بهذا الصدد طريقة جديده، ومنهجاً تربوياً جديداً لضبط الهوى وهذه النظرية هي نظرية «العصم».

إنّ العصم في سلوك الإنسان تشبه «العازل» في الفيزياء، أرأيت كيف يتمكن للإنسان أن يتعامل مع النار والكهرباء من خلال العازل دون خطر؟ كذلك الإنسان

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٣٥. ونهج البلاغة حكمة/ ٩٢ ووسائل الشيعة ٤/ ١١٦٩، ط الاسلامية، أمالي الشيخ الطوسي: ٥٨٠ ط ١٤١٤ ـ قم.

(٢) الأنفال: ٢٨.

يستطيع أن يتعامل مع الفتن والمغريات والمثيرات في الحياة الدنيا من خلال «العصم»، دون أن يمسّه أي خطر من ناحية هذه الفتن والمغريات، ومن الخطأ أن ندعوَ الناس الى مقاطعة التعامل مع النار والكهرباء، لأنها حارقة وصاعقة فهما حاجتان اساسيتان في حياة الإنسان، ولكن من الضروري أن يكون التعامل مع النار والكهرباء من خلال العازل الذي يعصم الإنسان من خطر النار والكهرباء.

كذلك لا يصحّ أن ندعوَ الناس الى مقاطعة «الفتن»، ومن هذه الفتن أموال الناس وأولادهم، وإنّما يجب على الإنسان أن يعصم نفسه في التعامل مع هذه الفتن والمثيرات والمغريات بمجموعة من العصم التيَ تحميه منها، وهذه العصم إذا تكاملت في حياة الفرد والمجتمع تقوم بدور هام في تلطيف الغرائز وتعديلها وضبطها وتمكين صاحبها منها، وهي تُملّك الإنسان أهواءه وشهواته، كما ورد في النصوص الإسلامية، والتعبير دقيق، فإن من الناس من تملكه أهواؤه وشهواته، ومن الناس من يملك أهواءه وشهواته. إذن فلا يصحّ في دين الله المنع من دخول الدنيا، ولكن من يدخل الدنيا يجب أن يملك هواه ويتمكّن منه، وهذا هو المقياس الفاصل بين الهوى والهدى في حياة الإنسان.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام : «من ملك نفسه إذا غضب، وإذا رهب، وإذا اشتهى، حرم الله جسده على النار»[1]. والعصم على ثلاث طوائف:

أنوع العصم:

منها ما أودعه الله تعالى في عمق الفطرة والنفس بصوره تكوينية، والتربية تعمّقها وتكرّسها كالحياء والعفّة والرحمة، فإن هذه العصم تستر الغريزة وتلطّفها وتعدّلها،

---

(١) بحار الأنوار ٧٥: ٢٤٣. وتحف العقول لابن شعبة الحراني ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم.

فالغريزة الجنسية في الحيوان والإنسان سواء، إلاّ أنها في الحيوان مشكوفة وعارية، وفي الإنسان يكسوها الحياء والعفة، فيمتنع الإنسان عمّا لا يمتنع عنه الحيوان، ليس لعجز في الغريزة عند الإنسان، وإنّما بسبب من عصمتي «الحياء والعفّة» فإنهما يلطّفان غريزة الجنس كثيراً ويعدّلانها ويحدّدانها ويضبطانها، ويكفّان الغريزة الجنسية ويلطّفان إفرازها وعملها، وكذلك«الحلم» و«الرحمة» تقومان بدور كبير في تلطيف وتعديل غريزة الغضب، فإن الإنسان والحيوان سواء في غريزة الغضب، إلاّ أن هذه الغريزة مكشوفة وعارية في الحيوان وتكسوها «الرحمة» و«الحلم» في الإنسان.

ومن هذه العصم ما يكتسبه الإنسان ولها جذور وعمق في نفس الإنسان، وللتربية دور أساس في تمكين هذه العصم في حياة الإنسان، مثل: الذكر، والصلاة، والصوم، والتقوى، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والذكر مطردة للشيطان، والصوم جُنّة من النار، والتقوى لباس يستر الإنسان ويحفظه من لدغ الذنوب والخطايا.

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)[1]. وذلك ان التقوى تستر غرائز الإنسان وشهواته بعازل، يحفظ الإنسان من غلوائها بينما هي مكشوفة في سائر الحيوان.

ومن العصم ما أودعه الله تعالى في حياة الإنسان الاجتماعية كالجماعة المؤمنة والحياة الزوجية، فإن الجماعة تحفظ المؤمن من الانزلاق والسقوط، والحياة الزوجية عصمة للزوجين، وهذه ثلاث طوائف من العصم في النفس وفي المجتمع[2].

الخوف من الله

الخوف من الله من أهم العصم التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، وورد

---

(١) الأعراف: ٢٦.

(٢) اقتباس بتصرف عن رسالة العصم للمؤلف: ٦٠ ـ ٦٦.

ذكرها في حديثي جنود العقل والجهل تحت عنوان (جنود العقل)، وهو بالتأكيد من اعظم العوامل الرادعة للهوى، وله دور كبير في صدّ الهوى وضبطه.

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1]. والآية الكريمة تعبّر بوضوح عن التلازم والترابط القائم بين «الخوف من الله» و«نهي النفس عن الهوى»، كما هو واضح في الآية الكريمة.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام : «من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح، فذلك الذي خاف مقام ربّه، ونهى النفس عن الهوى»[2]وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : «الخوف سجن النفس من الذنوب، ورادعها عن المعاصي»[3].

إذن «الخوف» يحجز الإنسان عن المعاصي، ويحدّدها في دائرة الحلال، فلا ينزلق الى الحرام ويردعه عن المعاصي والمحرمات.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «سبعة يُضلّهم الله يوم لا ظلّ إلاّ ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله عزّ وجلّ، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله عزّ وجلّ اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنّي أخاف الله عزّ وجل»[4].

---

(١) النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) أصول الكافي ٢: ٧١. ووسائل الشيعة ١١/ ١٧٢ (الاسلامية) وجامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي ١٤/ ١٥٩.

(٣) ميزان الحكمة ٣: ١٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في مبحث وجوب صلاة الجماعة باب ٨ وفي وجوب الزكاة باب ١٨ وفي كتاب الرقاق باب ٢٣ وفي كتاب المحاربين باب ٤. وأخرجه مسلم في الصحيح في كتاب الزكاة

←

إذن مخافة الله تعالى تردع الإنسان عن أقوى الشهوات وأكثرها إلحاحاً وهي شهوة الجنس، ومخافة الله تكفّ النفس عن الأهواء وتحجزها عن المعاصي.

عن علي عليه السلام : «العجب ممّن يخاف العقاب فلم يكفّ، ورجى الثواب فلم يتب ويعمل»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام : «لا خوف كخوف حاجز ولا رجاء كرجاء معين»(٢).

إذن فالخوف يكفّ الإنسان عن التمادي في الشهوات، ويحجز الإنسان عن الشهوة، والرجاء في ثواب الله يعين الإنسان على طاعته وابتغاء وجهه.

وعن علي عليه السلام : «نعم الحاجز من المعاصي الخوف»(٣).

الخوف أمان

ومن عجب أن الخوف الذي يشتق من القلق ويشتق منه «القلق»، ويقع في مقابل «الأمان».. يعتبره الإسلام «أماناً» للإنسان، فإن الخوف لما كان يحجز الإنسان عن المعاصي، فهو في الحقيقة يحجز الإنسان عن المهالك والسقوط، فإن حقيقة المعصية هلاك وسقوط، وحدود الله تعالى هي السياج الآمن الذي يحفظ الإنسان من السقوط... ولذلك فإنّ الخوف أمان في حياة الإنسان، بعكس ما يتصوره الإنسان

←

باب ٣٠ ورواه أبو الفرج في ذم الهوى: ٢٤٣. ومسند أحمد بن حنبل ح/ ٩٢٨٨، وصحيح ابن خزيمة ح/ ٣٥٨، ومشكل الآثار للطحاوي ح/ ٥١١٦، ومسند زيد بن علي: ٤١٢، منشورات دار الحياة/ لبنان، والمجموع لمحيي الدين النووي ٤/ ١٩٥ و٦/٢٢٩ ط/ دار الفكر.

(١) بحار الأنوار ٧٤: ٢٣٧. و٧٥/ ٩٢، تحف العقول للحراني: ٨٩ ط جماعة المدرسين ـ قم ، كنز الفوائد للكراجكي: ٢٢٥ ط/ ١٣٦٩ هـ ش ـ قم (المصطفوي).

(٢) بحار الأنوار ٧٨: ١٦٤.

(٣) ميزان الحكمة ٣: ١٨٣. وعيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي ٤٩٤ ط دار الحديث ـ قم.

في البدء وفي النظرة الأوّلية الساذجة.

وقد روي في هذا المعنى عن علي عليه السلام روايات ذات دلالات عميقة، وإليك جملة من هذه النصوص العلوية:

«الخوف أمان»[١]. «ثمرة الخوف الأمان»[٢]. «خف ربّك وارجُ رحمته، يؤمنك ممّا تخاف، وينلك ما رجوت»[٣]. «لا ينبغي للعاقل أن يقيم على الخوف إذا وجد الى الأمن سبيلاً»[٤].

والخوف والأمن من المعاني المتقابلة والمتعاكسة الرقيقة في الثقافة الإسلامية، فإن «الخوف» في الدنيا «أمن» في الآخرة و«الأمن» في الدنيا «خوف» في الآخرة.

وأمير المؤمنين عليه السلام يستقي هذا المفهوم الإسلامي من المعين النبوي الذي لا ينضب: فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «قال الله تبارك وتعالى:

«وعزّتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة»[٥].

الحياء

والحياء خصلة ثانية من العصم، ودوره هام في تحصين الإنسان وحفظه من

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ١٨٦. عيون الحكمة والمواعظ للواسطي الليثي ٣٥ ط دار الحديث.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) كنز العمال للمتقي الهندي، حديث ٥٨٧٨. والخصال للصدق ٧٩ ط جماعة المدرسين ـ قم، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ٤٥١ ط قم منشورات الشريف الرضي ، ومستدرك الوسائل للمحدث النوري ١١/ ٢٢٨ والامالي للشيخ الطوسي ٥٣٠ ط ١٤١٤ دار الثقافة ـ قم ، ومشكاة الأنوار للطبرسي ٢١٣ .

الانزلاق والسقوط، وقد يتفق كثيراً أن الإنسان يندفع الى ذنب من الذنوب، فلا يتمكّن العقل من صدّه عن ارتكاب الذنب، لولا أنه يستحي من الله تعالى أو من الناس فيردعه الحياء عن اقتراف الذنب.

فالحياء - على كل المستويات - عصمة للإنسان بدرجات مختلفة، الحياء من الأهل والأقربين يحمل درجة من العصمة، والحياء من الناس البعيدين يحمل درجة أعلى، والحياء ممّن يجلّه الإنسان ويحترمه يحمل درجة أعلى من العصمة، والحياء من الله تعالى يحمل أعلى درجات العصمة في حياة الإنسان، وإذا استطاع الإنسان ان يركّز في نفسه الحياء من الله تعالى، ويستحضر حضور الله وحضور ملائكة الله الموكّلين به، فإن هذا الاحساس يعصمه من الذنوب والمعاصي والانزلاق وراء الشهوات بدرجة عالية جداً.

الحياء من الله تعالى

وكيف يمكن أن يعصي الإنسان الله تعالى وهو يستحضر في قلبه حضوره تعالى، ويشعر بأن الله تعالى يبصره ويسمعه، وأن ملائكة الله تعالى موكّلون قريبون منه لا يخفى عليهم من شأنه وأمره شيء إلاّ ما يخفيه الله تعالى؟ وقد روي عن رسول الله ﷺ في وصيّته لأبي ذر (رحمه الله):

«يا أبا ذر استح من الله، فأني والذي نفسي بيده لأظل حين أذهب الى الغائط متقنّعاً بثوبي استحي من الملَكين الذَين معي»[1]. وهذه درجة عالية جداً من الحياء آتاها الله تعالى رسوله ﷺ قلّما ينالها سائر الناس، فإذا تمكّن الحياء من الله تعالى

(١) بحار الأنوار ٧٧: ٨٣، كنز العمّال: ٥٧٥١. والامالي للشيخ الطوسي ٥٣٤ ط ١٤١٤ دار الثقافة - قم، ومكارم الاخلاق للطبرسي ٤٦٥ ط ١٣٩٢ - قم (الشريف الرضي)، وجامع احاديث الشيعة ٢/ ١٩٤، وسنن النبي ﷺ للسيد الطباطبائي ٢٣٦.

من نفس الإنسان واستولى على مشاعر الإنسان، فإن الحياء عندئذ يعصم الإنسان عن الذنوب والمعاصي والاستسلام للأهواء والشهوات.

وإذا كان الحياء من الناس في حضورهم يحجز الإنسان عن الكثير من الموبقات التي لا يرتدع عنها في خلواته، وفي غياب الناس، فإن الحياء من الله تعالى إذا تمكّن منه، فسوف يحجزه عن المعاصي والذنوب التي يبغضها الله تعالى بدرجة أعلى بكثير، في الخلاء والملأ على نحو سواء، لأن حضور الله تعالى في الخلاء والملأ معاً، وإذا استطاع الإنسان أن يخفي على الناس من أمره شيئاً، فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يخفي من أمره شيئاً على الله تعالى.

عن رسول الله ﷺ : «استح من الله استحياءك من صالح جيرانك، فإنّ فيها زيادة اليقين»[١].

وعن رسول الله ﷺ : «ليستح أحدكم من ملكَيه الذَين معه، كما يستحي من رجلين صالحين من جيرانه، وهما معه بالليل والنهار»[٢].

وقد روي عن الإمام الكاظم عليه السلام في الاستحياء من الله في السرّ والخلاء: «استحيوا من الله في سرائركم، كما تستحون من الناس في علانيتكم»[٣].

فالحياء من الله تعالى إذن يكسب الإنسان درجة عالية من العصمة، ويحفظ الإنسان من السقوط، ويمنع الإنسان من المعصية في الخلاء والملأ، على نحو سواء، وقد تكرّر ذكر هذا المعنى في النصوص الإسلامية.

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ٢٠٠.

(٢) ميزان الحكمة ٢: ٥٦٨.

(٣) بحار الأنوار ٧٨: ٣٠٩.

عن علي عليه السلام: «الحياء يصدّ عن الفعل القبيح»[١].

وعنه عليه السلام: «على قدر الحياء تكون العفة»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «استحيو من الله حقّ الحياء، فقيل يا رسول الله: ومن يستحي من الله حقّ الحياء؟ فقال: من استحيى من الله حقّ الحياء فليكتب أجله بين عينيه، وليزهد في الدنيا وزينتها، ويحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى»[٣].

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «رحم الله من استحيى من الله حقّ الحياء، فحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى»[٤].

ومن خلال الرأس والبطن تحكم شهوات الإنسان، فالعين نافذة للشهوة، والسمع نافذة أُخرى للشهوة، والبطن موقع للشهوة، والفرج موقع آخر للشهوة.

فإذا كان الإنسان يستحي من الله تعالى فإن حياءه من الله سوف يحفظ له الرأس وما حوى من نوافذ الشهوة، والبطن وما وعى من مواقع الشهوة.

وعنه عليه السلام: «مِن أفضل الورع أن لا تبدي في خلواتك ما تستحي من إظهاره في علانيتك»[٥].

الشكوى الى الله من قلّة الحياء

وفي الأدعية نلتقي لوحات من روائع الدعاء في الشكوى إلى الله عن النفس لقلّة حيائها من الله تعالى، وهو أرق المعاني في الأدعية، حيث يشتكي الإنسان الى الله

---

(١) ميزان الحكمة ١: ٧١٧، وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي ٣٨ ط دار الحديث.

(٢) ميزان الحكمة ١ / ٧١٧.

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٣٠٥. المجموع لمحيي الدين النووي ٥/ ١٠٥، ومغني المحتاج ١/ ٣٢٩.

(٤) بحار الأنوار ٧٠/ ٣٠٥، وتحف العقول للحراني ٢٩١، ومستدرك وسائل الشيعة ٨/ ٤٦٥، والاختصاص للشيخ المفيد ٢٢٩ ط ١٤١٤ دار المفيد/ لبنان.

(٥) غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٥٣.

تعالى من نفسه عن قلّة الحياء منه تعالى، فيكون الحاكم في هذه الشكوى هو الله تعالى، والمدّعي الشاكي هو الإنسان والمدّعى عليه النفس، ومادة الشكوى والدعوى هي «وقاحة النفس» تجاه الله تعالى، والذي هو الحاكم في هذه الدعوى... وبالنتيجة مضمون الدعوى شكوى الإنسان من نفسه إلى الله لعدم استحيائه من الله تعالى.

ففي دعاء أبي حمزة: «أنا يا ربَّ الذي لم استحيك في الخلاء، ولم أُرقبك في الملأ، أنا صاحب الدواهي العظمى، أنا الذي على سيّده اجترى... انا الذي سترت عليَّ فما استحييت، وعملت بالمعاصي فتعدّيت، واسقطتني من عينيك فما باليت»[١].

وفي هذا السياق من شكوى الإنسان من نفسه الى الله تعالى في معصيته لله تعالى وتجاوزه لحدود الله، ما ورد في مناجاة الشاكين من كلمات الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام: «الهي أشكو إليك نفساً بالسوء أمّارة، والى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرّضة»[٢].

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) الصحيفة السجادية، المناجاة الثانية من المناجاة الخمس عشرة من كلام سيّد الساجدين الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني:

من يؤثر هواه على هوى الله


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بعد هذه الجولة في:

١ - معنى الهوى.

٢ - أعراضه.

٣ - علاجه.

وهي الفقرة الأُولى من هذا البحث، نبدأ بالتأمّل في الفقرتين الثانية والثالثة من الحديث القدسي الشريف الذي افتتحنا به هذه الرسالة وعقدناها للتأمل فيه، وهما فيمن يؤثر هواه على هوى الله، ومن يؤثر هوى الله على هواه، ولنبدأ بالفقرة الثانية فيمَن يؤثر هواه على هوى الله.

وقد ورد في الحديث القدسي فيما يتعلّق بهذه الفقرة:

عن رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «**وعِزّتي، وَجَلالي، وَعَظَمَتي، وَكِبْريائي، ونُوري، وَعُلوّي، وَارتِفاع مَكاني لا يُؤْثِر عَبْدٌ هَواهُ على هَوايَ إلاّ شتّتُ أمْرَهُ، وَلبسْتُ عَليهِ دُنياهُ، وَشَغِلْتُ قَلْبَهُ بها، وَلَمْ أُوْتِهِ مِنْها إلاّ مَا قَدّرْتُ لَهُ**»[1].

وفي هذه الفقرة في الحديث القدسي نلفت النظر إلى نقاط ثلاثة:

١ - يعاقب الله تعالى هذه الطائفة ممن يؤثر هواها على هوى الله تعالى بثلاث عقوبات:

أ - يشتّت عليهم أمرهم.

---

(١) أخرجه ابن فهد الحلي في عدّة الداعي: ٧٩، والكليني في أُصول الكافي٢:٢٣٥، والمجلسي عنهما في البحار ٧٨: ٧٠ حديث ١٤ و ٧٠: ٨٥ ـ ٨٦، وقد أشرنا من قبل في مقدمة الكتاب إلى جملة من طرق هذا الحديث ومصادره.

ب - يلبّس عليهم دنياهم.

ج - يُشْغل قلوبهم بالدنيا.

٢ - وتسبق هذه العقوبات في الحديث الشريف أيمان شديدة مغلّظة: «**وعِزّتي، وَجَلالي، وَعَظَمَتي، وَكِبْريائي، ونُوري، وَعُلوّي، وَارتِفاع مَكاني**» وهذه الأيمان والأقسام تكشف عن أهمية الموضوع الذي يعقب هذه الأيمان.

٣ - وطريقة الأداء والتعبير في الحديث الشريف طريقة حاصرة «بالنفي والاثبات» «لايؤثر عبد هواه... إلاّ شتت أمره» ومعنى هذا الحصر أن الإنسان إذا آثر هواه على هوى الله تعالى، فلا يمكن أن ينفلت عن قبضة العقوبات الإلهية الثلاثة بحال من الاحوال. فلننظر - إذن - في هذه العقوبات الثلاثة التي يشير إليها الحديث القدسي:

١ـ شتت أمره

وهذه هي العقوبة الأولى: «إلاّ شتّتُ أمره»، هؤلاء يعاقبهم الله تعالى، أول ما يعاقبهم بتشتيت أمرهم، فيسلبهم الثبات، والاستقرار، ووحدة السلوك والمنطق والغاية والموقف والوسيلة، ويجعلهم في مهبّ الرياح ، كالريشة، أو كالخشبة التي تطفو على الماء، ليس لها من موجّه يوجهها الى جهة واحدة. فإن الناس على شاكلتين اثنتين:

١ - النموذج المنسجم.

٢ - النموذج القلق والمرتبك.

الشخصية المنسجمة

الشخصية المنسجمة نمط من الشخصية يقع تحت سلطان عامل واحد، بينما النموذج القلق والمرتبك والمتخبط من الشخصية هو النموذج الذي يتأرجح بين مجموعة مختلفة ومتعددة من العوامل، والحالة الأولى هي الحالة «التوحيدية» والحالة الثانية هي حالة «الشرك» في الإنسان.

ان النموذج «التوحيدي» من الشخصيات يقع تحت سلطان إرادة الله تعالى وحكمه وتكليفه، ويخضع لجاذبية «مرضاة الله» فقط.

فالتكليف الإلهي يحكمه في سرّاء أو ضرّاء، ووجه الله ومرضاته هو غايته في الحياة لا يبتغي غيرها، وهو محكوم بهذا التكليف، وخاضع لسلطانه، ومنجذب إلى هذه الغاية، ومندفع إليها، والتكليف وحده هو الذي يحكمه والتكليف والغاية بهذه الصورة هي التي تمنح شخصية الإنسان إنسجاماً، ووحدة، حتى مع اختلاف الموقف السياسي والاجتماعي أحياناً، فقد ينقلب التكليف الشرعي السياسي للإنسان المسلم من موقف إلى موقف معاكس تماماً، من الحرب إلى السلم

والصلح، ومن رفع السلاح إلى إلقاء السلاح، دون أن يستبطن ذلك تشتيتاً وصراعاً واختلافاً داخل الشخصية، ودون أن يكون ذلك سبباً في انثلام الوحدة والإنسجام النابع من التوحيد في الشخصية.

وهذه الحالة هي حالة «التوحيد العملي» في مقابل «التوحيد النظري»، وهذه الحالة من التوحيد هي إنعكاس التوحيد النظري في سلوك الإنسان وحياته، وفي هذه الحالة من التوحيد العملي يخرج الإنسان من دائرة نفوذ كل سلطان في النفس وخارجها، من هوى وطاغوت، ويدخل في دائرة سلطان حكم الله وتكليفة، فيكون حكم الله تعالى هو وحده الحاكم على سلوكه وتصرفاته، وهو الصبغة العامة التي تصبغ سلوكه وحياته، وهو مصداق لما روي عن رسول الله ﷺ: «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[١].

وحالة «الشرك» حالة معاكسة لهذه الحالة تماماً، ففي حالة الشرك يخرج الإنسان عن دائرة النفوذ الانحصاري لحكم الله تعالى، فتتوزّعه العوامل الكثيرة داخل النفس وخارجها من الهوى، والطاغوت، فإن الإنسان إذا خرج من حصن «التوحيد» توزّعته عوامل الهوى والطاغوت، وأغرقته وشتّتت أمره، وتعبير القرآن بهذا الصدد دقيق: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾[٢] فالذين آمنوا ليس لهم إلاّ ولاء واحد، وارتباط واحد، وانتماء واحد وسلطان واحد

---

(١) رواه الطبري في الجامع الكبير. الأبانة الكبرى لابن بطة ١/ ٢٩٨، ح ٢٩١، طبقاً لترقيم برنامج المكتبة الشاملة والاربعون للنووي وصححه ١/ ٤١، وجمع الجوامع (حرف اللام) ح/ رقم ١٤٣٠، وجامع العلوم والحكم (أول الكتاب) وقرة العينين محمد بن اسماعيل البخاري ١/ ٣٨ (وما عدا الاخير بترقيم المكتبة الشاملة).

(٢) البقرة: ٢٥٧.

يحكمهم، وأما الذين كفروا فتتوزعهم الولاءات والارتباطات والانتماءات المتعددة بصيغة الجمع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾[١].

أما النمط المنسجم من الناس فيحكمه التكليف الشرعي، فقط ويوجهه وجه الله ومرضاته..

وهذه الشريحة من الناس تُقْدِمُ على تكليفها الشرعي من دون تردّد، ولا تأمّل، ولا خوف، ولا خجل، ولا حرج،... فإن الخوف والخجل والتردّد والحيرة والقلق من أمارات التأرجح والانشطار، على مجموعة من العوامل داخل النفس وخارجها، فإذا كان الإنسان محكوماً للعامل الواحد ومتجهاً لوجهة واحدة فلا يصيبه شيء من ذلك.

ومن الأمارات المميزة لهذه الشريحة من الناس: الثقة، والاطمئنان، والثبات، والاستقرار في الرأي، والشجاعة، وراحة الضمير والنفس، وعدم الاستيحاش من الانفراد في الموقف، أو قلة الانصار والمؤيدين، وكثرة المعارضين.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يزيدني كثرة الناس عزّة، ولا تفرُّقهم عني وحشة»[٢]. وهذه الخصال في هذه الشريحة من الناس لا تخص حالة اليسر والسّراء فقط، وإنّما تعمّ حالة السرّاء والضرّاء، واليسر والعسر، وفي حالة النصر أو حالة الانتكاس والهزيمة.

وأفضل ما نعرفه من تمثيل لحالة (التشتت) وحالة (الانسجام) بسبب تعدد العوامل المتشاكسة المتخالفة، التي تتوزّع الإنسان، ووحدة العامل الموجه للنفس

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) نهج البلاغة: ٣٦.

والمؤثر فيها هو قوله تعالى:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً)، الزمر/ ٢٩.

النموذج الاول (رجلا فيه شركاء متشاكسون)، تعتمل فيه عوامل متعددة متخالفة، متقاطعة وتتجاذبه باتجاهات مختلفة من الإقدام والاحجام، والتعجل والتريث، والغضب وضبط النفس، والتبذير والتقتير. فيبقى قلقاً مترددا بينها. وهذا هو النموذج المتشتت من الناس.

والنموذج الثاني (رجلا سلماً لرجل) يستسلم وينقاد لعامل واحد، يؤثر فيه ويوجهه، ويأخذه وجهته وغاية له في سلوكه وعمله وحياته.

وهذا هو النموذج المنسجم من الناس، وهو النموذج التوحيدي من الناس، الذي يجعل تعالى وجهته في الدنيا ومرضاة الله غايته، وحكم الله تعالى الحاكم الذي يحكمه.

هذا النموذج من الناس يبقى ثابتاً مطمئناً، منسجماً مع نفسه، لا يخالجه القلق والارتباك، مهما كانت الظروف التي يمر عليها صعبة شاقة، كما في خطبة النفس في نهج البلاغة.

وهو ما قاله الصديق يوسف عليه السلام للفتيين اللذين دخلا معه السجن (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)، يوسف/ ٣٩.

إن التسليم المطلق لله الواحد القهار يحفظ الإنسان من حالة التشتت والتشرذم في داخل نفسه، وبعكس ذلك الانقياد لارباب متفرقين من الاهواء والطاغوت، يعرض الإنسان للتشرذم والتشتت في داخل نفسه.

وكما ان الجيش الذي يتشرذم ويتشتت، ويفقد القيادة الواحدة يفقد القدرة على

المقاومة وينهزم، كذلك الإنسان عندما يتعرض لهذه الحالة في داخل نفسه يفقد القدرة على المقاومة والثبات، وتصيبه الهزيمة النفسية، وهي شر أنواع الهزيمة.

عمار بن ياسر:

ورحم الله عمار بن ياسر، كان مثالاً للشخصية المطمئنة الثابتة، والمنسجمة، قاتل معاوية إلى جنب علي عليه السلام في صفين وهو في التسعينات من عمره، رابط الجأش، ثابتاً، يخوض لهوات الحرب، ولم يدخله شك أو ريب لحظة واحدة في أن علياً على الحق وأن معاوية على الباطل.

وكان يدعو الله تعالى في ساحة المعركة، في صفين بين يدي علي عليه السلام فيقول: «اللّهم إنك تعلم أني لو أعلم انّ رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت، اللّهم إنّك تعلم أني لو أعلم أنّ رضاك أن أضع ضُبّة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى يخرج من ظهري لفعلت، اللّهم وإني أعلم مما علّمتني أني لا أعمل اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً أرضى لك منه لفعلت»[1].

وروي عن أسماء بن الحكم الفزاري قال: كنا بصفين مع علي بن أبي طالب تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى - استظللنا ببُرد احمر، إذ اقبل رجل يستقري الصحف حتى انتهى إلينا فقال: أفيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار بن ياسر: أنا عمار، قال: أبو اليقطان؟ قال: نعم، قال: إن لي حاجة إليك فأنطق بها علانيةً أو سراً؟ قال: اختر لنفسك أيَ ذلك شئت. قال: لا، بل علانية، قال: فأنطق.

---

(١) صفين: نصر بن مزاحم: ٣١٩ ـ ٣٢٠ تحقيق الدكتور عبد السلام هارون. والدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة للسيد علي خان المدني ٢٧٠ ط مكتبة بصيرتي ـ قم ١٣٩٧.

قال: إني خرجتُ من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كان ليلتي هذه، صباح يومنا هذا، فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثم اقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي هذه فبتّ بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا، قال: فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه، فجئتك لذلك.

قال له عمار: هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة (لنا) فانها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهنّ ولا أبرّهن، بل هي شرّهن وأفجرهن.

أشَهِدْتَ بدراً وأُحداً وحنيناً أو شَهِدَها لك أبٌ فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم أُحد، ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب.

هل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أنّ جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خلقاً واحداً فقطّعتُه وذبحته.

والله لدماؤهم جميعاً أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا، بل حلال، قال: فأنهم كذلك حلال دماؤهم، أتراني بيّنتُ لك؟ قال: قد بيَّنْتَ لي، قال: فاختر إيّ ذلك أحببت.

قال: فانصرف الرجل ثم دعاه عمار بن ياسر فقال: أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون: لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا.

والله ما هم من الحق على ما يُقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى

يُبلغونا سعفات هجر لعرفت أنّا على حق وهم على باطل، وأيم الله لا يكون سَلْماً سالماً أبداً حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخربأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة، ولا تنصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان أحياؤهم على الباطل(١).

الشخصية القلقة وغير المنسجمة

ويبدأ الصراع والانشطار والقلق في الشخصيات القلقة وغير المنسجمة أولاً بين العقل والهوى، فيعمل الهوى في انتزاع النفس من سلطان العقل وفرض سلطانه عليها، فتنشطر النفس شطرين متصارعين.

ومعاناة الإنسان وعذابهِ في هذه المرحلة من الصراع كبيرة، فإنّ للضمير والفطرة والعقل سلطاناً قوياً على شخصية الإنسان، وتبقى هذه العوامل تقاوم نفوذ الهوى، داخل الشخصية، وتحاول أن تقوّم شخصية الإنسان وتعيدها إلى حالتها الأولى، الفطرية من الانسجام، ويتحمّل الإنسان في هذه المرحلة من الصراع الداخلي الكثير من العذاب والمعاناة.

فإذا عجز العقل عن تقويم سلوك الإنسان، وعجز الإنسان عن تحمّل معاناة الصراع الداخلي حاول أن يتهرّب من وعيه ورشده، وهو الحل السلبي للمعاناة التي يلقاها الإنسان، والحل الإيجابي هو أن يستقيم ويستجيب لدعوة العقل والفطرة.

---

(١) صفين لنصر بن مزاحم: ٣٢١ ـ ٣٢٢. وبحار الأنوار ٣٥ / ٤٩٢، ومواقف الشيعة للشيخ احمدي الميانجي ٢/ ٤٨ وشرح النهج لابن ابي الحديد ٥/ ٢٥٧ والدرجات الرفيعة للسيد علي خان المدني: ٢٧١.

ولكن الإنسان عندما يضعف أمام سلطان الهوى فلا يستقيم، وعندئذ يلجأ إلى الفرار من وعيه، ليسلم من عذاب الصراع ومعاناته، و«السكر» و«القمار» و«الجريمة»و «الجنس»... هي الملاجئ التي يفرّ إليها الإنسان من وعيه وضميره.

ومن العجب أن يفرّ الإنسان من «الهوى» إلى «الهوى»، ومن الجريمة الى الجريمة، ولو عكسَ الأمر وفرّ من الهوى الى الله لسلم وارتاح (فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ)(١).

ولكن الإنسان ضعيف أمام سلطان الهوى مالم يلجأ الى الله تعالى، وإنّما يهرب الإنسان الى «السكر» و«الجنس»... لينسى نفسه ومعاناته وعذابه، وليتخلص من نفسه، والقرآن الكريم يسمّي الأمور باسمائها عندما يقول: (نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ)(٢).

فإن الذين يهربون من وعيهم الى «الخمر» و«اللهو الحرام» إنّما يريدون أن ينسوا أنفسهم: وهذا هو فرار الإنسان من «الذكر» الى «النسيان» وهو من أقبح الفرار.

وآخر قلعة تقاوم داخل الشخصية سلطان الهوى، وتحاول أن تحمي الإنسان من نفوذ الهوى والشيطان هو «الضمير»، فإذا سقط الضمير كان إيذاناً بسقوط القلعة الأخيرة للمقاومة داخل الشخصية، وهذه هي المرحلة الأولى من الصراع والسقوط، وهي مرحلة معاناة وعذاب للإنسان، فإذا انتصر الهوى، وفرض سلطانه ونفوذه على الإنسان ودخل الإنسان في حيز الهوى بصورة كاملة... لم يسلم من الصراع الداخلي والانشطار النفسي، وإنّما يدخل مرحلة جديدة من الصراع داخل النفس تتنازعهُ فيها الأهواء، هذه المرة بصورة قوية وعنيفة، ويتأرجح الإنسان في دائرة الهوى بين

---

(١) الذاريات: ٥٠.

(٢) الحشر: ١٩.

الأهواء المتعدّدة والمتخالفة، والصراع النفسي في هذه المرحلة لا يقلّ عن المرحلة الأولى، وعذاب الإنسان في الصراع في هذه المرحلة داخل دائرة الهوى لا يختلف عن عذابه ومعاناته في المرحلة الأولى من الصراع، إن لم يكن أشد وأقسى.

والإنسان في هذه المرحلة يعاني من عذاب القلق «والتشتت في الأمر» كما كان يعاني في المرحلة الأولى، غير أن تشتت الإنسان وانشطاره النفسي كان في المرحلة الأولى بين محوري العقل والهوى، وفي هذه المرحلة في دائرة الأهواء والشهوات، وكل هوى من هذه الأهواء الكثيرة في النفس يتطلّب الاستجابة والاشباع فيقع الصراع هذه المرة بين الأهواء في داخل النفس.

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

١ - قد يقع الإنسان فريسة بين غريزة الانتقام والغضب، وغريزة حبّ الحياة والسلطان، فيتطلّب منه حبّ السلطان والجاه المداراة والرفق بالمعارضين، وتدفعه غريزة الانتقام والغضب الى الفتك باعدائه المعارضين له... مع العلم أن الرفق والمداراة هنا ليست من الحلم الذي يعدّ من جنود العقل، وإنّما هو من إيثار هوىً على هوىً.

٢ - وقد يقع التضارب بين غريزة حب الجاه والسلطان والموقع الاجتماعي الذي يتطلب مستوىً معيّناً من اللياقات الاجتماعية، وسائر الغرائز التي ترفض هذه اللياقات الاجتماعية، كالغريزة الجنسية مثلاً، علماً بأن ضبط الغريزة الجنسية والتحكّم بها لكسب هذه اللياقات والاعتبارات الاجتماعية ليست من العفّة والتقوى في شيء، وإنّما هي من إيثار هوىً على هوىً آخر، ويتّفق كثيراً أن غريزة الجنس تغلب غريزة حبّ الجاه، فتصبح الغريزة الجنسية مصدراً للفضائح الجنسية التي يتعرض لها الرؤساء بين حين وآخر.

٣ - وقد يقع الإنسان فريسة للصراع بين غريزة حبّ الجاه والسلطان وغريزة الخوف على النفس.. فتتطلب الغريزة الأولى الهجوم والفتك والمجازفة بينما تتطلب الغريزة الثانية التريّث والتحفّظ والأخذ بالاحتياط، هذه أمثلة ثلاثة لصراع الأهواء والغرائز في داخل النفس، والتضارب والصراع من هذا القبيل أمر شائع في حياة الإنسان، في داخل نفسه، بين الأهواء والغرائز المختلفة والمتعددة، فتتجاذب الإنسان الأهواء والغرائز المختلفة داخل النفس الإنسانية باتجاهات متعاكسة ومتقابلة وتتوزع الإنسان أهواء متعاكسة من الخوف، والطمع، والحرص، وحبّ الجاه، والبخل، والحسد، وشهوة الجنس، والغضب، والانتقام، وحبّ المال، وغير ذلك فينشطر الإنسان بين هذه الأهواء والغرائز المختلفة، ويشتدّ عذابه، ومعاناته في هذا الصراع والقلق والارتباك والانشطار النفسي. يقول تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)[١] وهذه هي حالة التشتت التي يشير إليها الحديث القدسي.

عذاب الإنسان في دائرة الهوى

وهذا التشتّت بين الأهواء والغرائز هو أحد ألوان عذاب الإنسان ومعاناته عند ما يدخل الإنسان في دائرة الهوى... والعذاب الآخر الذي يلقاه الإنسان في دائرة الهوى ليس من هذا القبيل، وإنّما هو عذاب كامن في الهوى نفسه، ففي كلّ هوى من هذه الأهواء الكثيرة التي تجذب الإنسان عذاب يخصّه، فإذا استسلم الإنسان لأي واحد من هذه الأهواء وجد هذا العذاب لا محالة، فالحرص، والطمع،

---

(١) التوبة: ٥٥.

والحسد، من الأهواء المتمكنة في النفس... ولكل من هذه الأهواء لون من العذاب النفسي لا ينجو منه من يُسلّم أمره له.

والى هذا العذاب النفسي الذي يلقاه الإنسان في دائرة الهوى يشير النصّ الذي يرويه الكليني في الكافي وابن شعبة الحراني في تحف العقول والمفيد (رحمه الله) في «الإرشاد»[١] عن أمير المؤمنين عليه السلام، وإليك هذا النص:

«ما أعجب أمر الإنسان، إن سنح له الرجاء أذلّه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن سعد نسي التحفظ، وإن ناله خوف حيّره الحذر، وإن اتسع له الأمن أسلمته الغرّة «الغفلة» وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضّته فاقة شمله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظّته البطنة - فكل تقصير به مضرّ، وكلّ إفراط به مفسد، وكلّ خير معه شرّ، وكلّ شرّ له آفة».

فالرجاء بحطام الدنيا يُسلم الإنسان الى ذلّ الطمع، والطمع يُسلم الإنسان إلى الحرص، واليأس يُسلم الإنسان الى الأسف، والخوف يُسلم الإنسان إلى الحذر، وهكذا كلّ هوىً يُسلمه الى هوىً آخر ثم الى التهلكة والعذاب.

الدنيا تعذّب من يطلبها:

الهوى هو الوجه الأوّل لقضية عذاب الإنسان ومحنته وشقائه، والوجه الآخر لعذاب الإنسان هو الدنيا، وذلك أن الدنيا محطة الهوى وغايته، ومطلب الهوى وموقع إثارة الهوى وتحريكه.

---

(١) إرشاد المفيد: ١٥٩ ط / النجف الأشرف. والكافي للكليني ٨/ ٢١، وعلل الشرائع للشيخ الصدوق ١/ ١٠٩، وتحف العقول لابن شعبة الحراني ٩٥، وخصائص الائمة للشريف الرضي: ٩٧.

فإذا كان الله تعالى قد جعل عذاب الإنسان في اتّباع الهوى، فإن هذا العذاب يكون في طلب الدنيا لا محالة، فلا يمكن التفكيك بين اتّباع الهوى وطلب الدنيا، ولابد من إيضاح لهذه الحقيقة، وهي من أُمّهات حقائق الفكر الإسلامي.

ليس في «الدنيا» شرّ ولا عذاب، ولا في «ابتغاء الدنيا» بقدر ما يؤمّن للإنسان مقوّمات حركته ونموّه وتكامله، والإسلام يقرّر هذه الحقيقة وتلك على نحو سواء. يقرر أنّ الدنيا خير ليس فيها شرّ، ويقرر مشروعية السعي في الدنيا وابتغاء الرزق فيها، فإن الدنيا في نظر الإسلام «متجر أولياء الله، ومسجد أحبّاء الله»[١] فلا يمكن أن تكون الدنيا شراً ولا عذاباً للإنسان.

والسعي في هذه الدنيا وابتغاؤها أمر مشروع أقرَّه الله تعالى. يقول تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ...)[٢] فإذا كان هذا وذاك خيراً فأين يكون موقع الشرّ في الدنيا؟ وأين يكون عذاب الإنسان في الدنيا؟

إنّ الدنيا خير، والسعي في الدنيا خير وابتغاء الدنيا خير، إذا كانت الدنيا طريقاً الى الله ورضوانه، وجسراً إلى مرضاته، وكانت وجهة الإنسان الى الله عبر الدنيا... أما إذا تحولت وجهة حركة الإنسان وغايته من الله تعالى ومرضاته الى الدنيا، وتحوّلت الدنيا الى «غاية» يطلبها الإنسان، بعد أن كانت طريقاً الى الله تعالى، فتلك هي التي يمقتها الإسلام، ويعتبرها شراً، وهي التي جعلها الله تعالى عذاباً للإنسان، ذلك أن الدنيا عندما تتحوّل في نفس الإنسان من جسر يمرّ عليه الإنسان الى الله تعالى... إلى غاية يطلبها دون الله تعالى... ينحرف الإنسان من الله الى الدنيا، وتتحوّل وجهة

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ١٣١.

(٢) الجمعة: ١٠.

الإنسان منه تعالى الى هذا الحطام الزائل من حطام الدنيا. وإذا انحرف الإنسان من الله تعالى الى الدنيا أصبح كل جهد الإنسان وعمله وسعيه باطلاً، وتعطّل نموّه وتكامله بصورة مطلقة، وأخذ بالانتكاس والسقوط والخسران... وهذا هو القدر المشترك من عاقبة الإنسان في حال الانحراف عن الله تعالى وتختلف درجة سقوط الإنسان وهلاكه بمقدار زاوية انحرافه عن الله تعالى، فكلّما يكون الانحراف أكثر كان سقوط الإنسان أشدّ.

وقد يبلغ الإنسان في الانحراف عن الله تعالى حدّاً يتحرك في الإتّجاه المعاكس لله تعالى فيكون ممّن يأذن بحرب الله تعالى ويعادي الله ورسوله.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الدنيا إذا تحوّلت في نفس الإنسان من «طريق إلى الله» إلى غاية يطلبها الإنسان ويسعى إليها، تحوّلت هذه الدنيا الى عذاب وعناء في حياة الإنسان.

وهذا هو الفرق بين دنيا تطلب الإنسان ودنيا يطلبها الإنسان، فإذا كانت الدنيا تطلب الإنسان، خدمته في الحركة إلى الله، وإذا كان هو يطلبها، وليس يطلب وجه الله كانت الدنيا عقبة في طريقه إلى الله، وليست طريقاً، وكانت الدنيا شراً له وعذاباً.

عن رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الدنيا أمرها بطاعة ربّها، فقال لها: خالفي مَنْ طَلَبَكِ، ووافقي من خالفك، فهي على ما عهد إليها الله وطبعها عليه»[1].

والرواية تحدثنا بلغة الرمز: أن الله تعالى جعل هذه الدنيا عذاباً لمن أطاعها، وجعلها غاية في حركته، وراحة لمن طلب الله تعالى بها، ولم يجعل الدنيا غاية ووجهة له «وخالفها في ذلك».

---

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٣١٥. ومستدرك الوسائل للمحدث النوري ١٣/ ٤٦.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «أوحى الله إلى الدنيا: اخدمي من خدمني، واتعبي من خدمك»[١].

واللغة في هذه الرواية هي نفس اللغة في الرواية السابقة، لغة الرمز، والرواية تقرر، أن الدنيا مخلوقة لخدمة الإنسان إذا كانت غاية الإنسان هي الله تعالى، فإذا تحول الإنسان من هذه الغاية إلى الدنيا وأصبحت الدنيا غاية له كان عليه أن يخدم الدنيا وفي خدمة الدنيا عناء وعذابٌ.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «إن الله جل جلاله أوحى (إلى) الدنيا أن اتعبي من خدمك، واخدمي من رفضك»[٢].

والرواية بنفس اللغة والمضمون، وأكثر صراحة من سابقتيها في هذا المضمون لمن يُحسن فهم هذه اللغة الرمزية للمعارف الإسلامية.

وعن علي عليه السلام: «من خدم الدنيا استخدَمتْه، ومن خدم الله خدمته»[٣].

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «ما من خلقي أحد عظَمها[٤] فقرّت عينه، ولم يحقّرها أحد إلاّ انتفع بها»[٥].

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ٢٠٣. ومن لا يحضره الفقيه ٤/ ٣٦٣ ط ١٤٠٤ جامعة المدرسين ـ قم، ووسائل الشيعة ١١/ ٣١٦ (الاسلامية) ومكارم الاخلاق للطبرسي ٤٣٩، وعدة الداعي لابن فهد الحلي/ ١٠٠ (مكتبة وجداني ـ قم).

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ١٢١. وأمالي الشيخ الصدوق ٣٥٤ ط/ ١٤٠٧، مؤسسة البعثة.

(٣) غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٣٧.

(٤) اي الدنيا.

(٥) بحار الأنوار ٧٣: ١٢١. والكافي للكليني ٣/ ٣١٨ (الاسلامية ـ طهران ط ١٣٦٠)، وأمالي الشيخ الصدوق ٧٦٥ ط/ ٤١٧ (مؤسسة البعثة).

والروايات بهذا المضمون وقريب منه كثيرة، وهي تبقى غير واضحة لمن لا يفهم اللغة التي يستخدمها الإسلام في تبيين وطرح السنن الآلهية في الكون.

أما الذين يحسنون فهم هذه اللغة، فيعرفون أن العذاب الذي تُحدثنا به هذه الروايات هو عذاب الإنسان عند ما ينحرف عن الله إلى الدنيا، وتتحول وجهته إليها، فتكون الدنيا عندئذ عذاباً له، أما إذا كانت وجهته وغايته هي الله، وكانت الدنيا لديه جسراً إلى الله تعالى يسعى عليها الإنسان إلى الله ويبتغي فيها الرزق، فإن الدنيا تنفعه وتخدمه، ولاتضرّه ولا تعذّبه.

صورة أخرى من عذاب الإنسان عند اتباع الهوى:

استعرضنا فيما سبق صورة واحدة من عذاب الإنسان في اتّباع الهوى وطلب الدنيا وهو «تشتّت أمر الإنسان» والانشطار والانقسام والتضارب بين الاهواء في داخل نفسه.

وهناك صورة أُخرى من العذاب يلقاها الإنسان عند ما ينحرف عن الله تعالى إلى الدنيا ويتّبع هواه، وهو عذاب النهم والجشع فإن الإنسان حينما يتحول همه ووجهته من الله تعالى إلى الدنيا لا يشبعه شيء من الدنيا، ولا ينتهي نهمه وحاجته إلى الدنيا، أقبلت عليه أم شحّت وأعرضت عنه... وهي حالة نفسية وكيفية، ولا علاقة لها بالكم، وقد يزداد حرصاً وجشعاً، كلّما ازداد حظه من متاع هذه الدنيا، فيظل الإنسان يلهث وراء الدنيا باستمرار، دون أن يرتوي منها، ويتخلّص من حالة الظمأ الدائمة التي يعاني منها.

الدنيا تشبه ظل الإنسان:

ولعل من أروع الامثلة التي تذكر للدنيا ولطلب الإنسان لها، عند ما تتحول إلى

غاية وقبلة، يطلبها الإنسان في حياته، ما ورد في بعض النصوص عن علي عليه السلام: «مثل الدنيا كظلّك، إنْ وقفتّ وقفَ، وإنْ طلبته بَعُدَ»[1]. وهذه كلمة بليغة في التعبير عن طبيعة علاقة الإنسان بالدنيا، وعلاقة الدنيا بالانسان، فإن الإنسان لا ينال من الدنيا حظاً أكثر، إذا ألحّ في طلبها، ولا يزيد نصيبه منها إذا تهالك عليها، وهي تشبه ظل الإنسان كلما ركض الإنسان خلفه شردت من أمامه، وكأنه يُشرّدها بمتابعته وطلبه لها، فلا يزداد من الركض وراءه إلاّ تعباً وعناءاً... وكذلك الدنيا.

فخير الاساليب في طلبها أن يُجْمل الإنسان في الطلب ولا يتهالك عليها، فإن التهالك على الدنيا لا يزيد حظ الإنسان منها، وإنما يزيد من عنائه وعذابه فقط.

نماذج من النصوص في عذاب الإنسان:

وفيما يلي نستعرض بعض النماذج من النصوص الإسلامية، في عذاب الإنسان عند ما يتّبع الهوى، وتتحول الدنيا في حياته إلى غاية يسعى إليها.

عن رسول الله: «ما سكن حب الدنيا قلباً إلاّ التاط بثلاث: شغلٌ لا ينفد عناؤه، وفقرٌ لا يدرك غناه، وأمل لا ينال مناه»[2].

والفقر هنا ليس حالة كمية، فقد يكون الإنسان فقيراً، وقد يكون ميسور الحال. يملك الكثير، ومع ذلك يركض بنهم وراء متاع الدنيا، وقد يكون غنياً في نفسه، وهو لا يملك من الدنيا إلا القليل.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أصبح والدنيا أكبر همه، فليس من الله في شيء، وألزم قلبه أربع خصال: هماً لا ينقطع أبداً، وشغلاً لا ينفرج عنه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه

---

(١) غرر الحكم للآمدي ٢٨٤:٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٤: ١٨٨. (دار إحياء التراث العربي ـ لبنان) وكنز العمال للمتقي ٣/ ٢٢٩ .

أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً»[١].

وعن علي عليه السلام ايضاً: «من لهج قلبه بحب الدنيا التاط قلبه منها بثلاث : همٌّ لا يغنيه، ومرض لا يتركه، وأمل لا يدركه»[٢].

وعن علي عليه السلام ايضاً: «من كانت الدنيا أكبر همه، طال شقاؤه وغمه»[٣].

وعنه عليه السلام: «من كانت الدنيا همّته، اشتدت حسرته عند فراقها»[٤].

وعنه عليه السلام ايضاً: «المتمتّعون من الدنيا تبكي قلوبهم وإن فرحوا، ويشتد مقتهم لانفسهم وإن اغتبطوا ببعض ما رزقوا»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «من تعلّق قلبه بالدنيا تعلّق قلبه بثلاث خصال: هم لا يُغني، وأمل لا يُدرك ورجاء لا يُنال»[٦].

وعن ابن عباس، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف، فحمد الله وذكره بما هو أهله، ثم قال: «من كانت الدنيا أكبر همّه، فرّق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلاّ ما كتب له»[٧].

وهذه الألوان من العذاب، هي بعض ما يلقاه الإنسان من العقوبة في الدنيا، على

---

(١) ميزان الحكمة: ٣: ٣١٩. وتنبيه الخواطر ١/ ٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لا بن أبي الحديد ١٩: ٥٢. وبحار الأنوار ٧٣:١٣٠.

(٣) بحار الأنوار ٧٣: ٨١

(٤) بحا الأنوار ٧١: ١٨١.

(٥) بحار الأنوار ٧٨: ٢١.

(٦) بحار الأنوار ٧٣: ٢٤.

(٧) مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٤٨، ط ١٤٠٨ دار الكتب العلمية ـ بيروت، وبلفظ قريب منه المعجم الاوسط للطبراني ٥/ ١٨٦ ، ط/ ١٤١٥ دار الحرمين للطباعة ، والجامع الصغير للسيوطي وكنز العمال للمتقي الهندي ٣/ ١٨٤ .

اتّباع الهوى وبعض ما جعل الله تعالى لاتّباع الهوى من عقوبة، في الدنيا قبل الآخره، فإن الخوف والقلق الذي يجده أصحاب المال والسلطان على أموالهم وسلطانهم من القريب والبعيد، هي بعض ما يناله أُولئك الذين اتّخذوا المال والسلطان وجهتهم وغايتهم في الحياة من العقوبة القريبة في الدنيا.

تشتت الإنسان في الآخرة:

نعود مرةً أُخرى إلى حديث تشتّت الإنسان، ولكن هذه المرة في الآخرة بعد الدنيا، وكما يتشتّت أمر الإنسان عند ما يتّبع هواه في الدنيا، كذلك في الآخرة.

وأول هذا التشتيت ما يكون بين أتباع الهوى أنفسهم، حيث كانت أجسادهم مجتمعة في الدنيا، ونفوسهم وأهواؤهم مختلفة، رغم اجتماع أجسادهم، فيبرز في الآخرة هذا الاختلاف الذي كانوا يخفونه في أنفسهم على السطح.

يقول تعالى عن حال الكفار والمنافقين في جهنم: (**كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا**)[١].

والصورة الأُخرى للصراع والاختلاف هي غضب الإنسان على جلده، ويده، ورجله، عند ما تشهد على ما أرتكبه من الجرائم في الدنيا، وهو يريد أن يخفيها عن الله، فتفضحه رجله، ويده، وجلده فيقول لها: (**لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّـهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**)[٢].

وقد ورد في النصوص الإسلامية: أن الذي يعصي الله تعالى ويتّبع هواه في الدنيا يبرأ بعضه عن بعضه في الآخرة، ويلعن بعضه بعضاً، وهي صورة مطابقة لما عليه

---

(١) الأعراف: ٣٨.

(٢) فصلت: ٢١.

صورة أُخرى من عذاب الإنسان عند اتّباع الهوى ١٣١

الإنسان في الدنيا عند ما يتّبع هواه.

عن رسول الله ﷺ «كُفَّ أذاك عن نفسك، ولا تتابع هواها في معصية الله، إذ تخاصمك يوم القيامة، فيلعن بعضك بعضاً، إلاّ أن يغفر الله ويستر برحمته»[1].

(١) المحجة البيضاء للفيض الكاشاني ٥: ١١٥، وإحياء علوم الدين للغزالي ٢/ ٦٦، دار المعرفة ـ بيروت.

٢ـ لبَسَتْ عليه دنياه

ظاهر الدنيا وباطنها

وهذه هي العقوبة الثانية لمن اتّبع الهوى؛ ومعنى تلبيس الدنيا هو ابراز الدنيا وإظهارها بظاهر مغر ليس هو بحقيقة الدنيا، وهذا الظاهر هو مصدر إغراء الدنيا للإنسان، واغترار الإنسان بها، وهذا الذي يغري الإنسان من الدنيا هو السطح الظاهر منها، وهو أمر زائل سريع الزوال، أما عمق الدنيا وباطنها فهو مصدر العبرة واليقظة والزهد في الدنيا.

أما اصحاب البصيرة الذين آتاهم الله تعالى بصيرة نافذة فتخترق بصائرهم هذا القشر الفوقي الزائل، وتنفذ إلى باطن الدنيا وعمقها، فيزهدون فيها، وتكون لهم مصدر عظة وعبرة، وأما الذين أضاعوا ما رزقهم الله من بصيرة، فلا يرون من الحياة الدنيا إلاّ هذا السطح الظاهر، ولا تنفذ أبصارهم إلى ماوراء هذا السطح من باطن الدنيا، فتتعلّق قلوبهم بها، وتخدعهم وتغريهم.

إذن للدنيا ظاهر وباطن، والناس على طائفتين: من لا ينفذ بصره إلى أكثر من ظاهر الحياة الدنيا، ومن يخترق ببصيرته ظاهر الدنيا إلى باطنها، وإلى هذا التقسيم يشير القرآن الكريم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

أما الذين آتاهم الله بصيرةً ووعياً، فلا يلتبس عليهم ظاهر الدنيا بباطنها، والقشر باللبّ، فإذا غضب الله تعالى على الإنسان سلبه بصيرته، ولبّس عليه الظاهر بالباطن،

---

(١) الروم: ٧.

فلا يميّز بين القشر واللب، والظاهر من الباطن، ويحسب القشر لباً، والظاهر باطناً، فيغرّه ظاهر الدنيا ويغترُّبها، ويرى الدنيا من خلال هذا الظاهر زينة مغرية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[١]، فإن الدنيا إنما تزيّنت لهم، لأنهم لا يرون منها إلاّ هذا الظاهر المغري، ولو كانوا يرون من هذه الدنيا باطنها لما تزينت لهم.

ونتحدث فيما يلي عن وجهي الحياة الدنيا:

أ - الوجه الباطن للدنيا.

ب - الوجه الظاهر للدنيا.

أ ـ الوجه الباطن للدنيا

هذا الوجه، كما ذكرنا، لا يبصره إلاّ أصحاب البصائر من الناس، وهو مصدر عظة وعبرة وليس مصدر إغراء، والقرآن الكريم يصف هذا الوجه من الدنيا وصفاً دقيقاً.

وفيما يلي نذكر بعض هذا الوصف الذي يصف به القرآن هذا الوجه من الدنيا:

١ - الدنيا متاع: يقول تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ مَتَاعٌ﴾[٢]. والمتاع هو اللذة المؤقتة في مقابل لذّات الآخره وطيباتها الدائمة والباقية، يقول تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ﴾[٣].

---

(١) البقرة: ٢١٢.

(٢) الرعد: ٨٦.

(٣) التوبة: ٣٨.

٢ - الدنيا عَرَض: يقول تعالى: (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ)(١).

وقال تعالى: (تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ)(٢).

وقال تعالى: (يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)(٣).

والعرض هو الحالة الزائلة، سريعة الزوال، ولذّات الدنيا زائلة، سريعة الزوال، ولا تدوم لأحد، ومع ذلك فهي مغرية شديدة الاغراء.

وفي الدنيا صفتان: أحدهما تزهّد الإنسان في الدنيا، والأُخرى تغري الإنسان بها.

أما التي تزهّد الإنسان في الدنيا، فهي أنها «عَرَضٌ» زائل، سريع الزوال، وأما التي تغري الإنسان بالدنيا وترغّبه فيها فهي أنها قريبة التناول، دانية، وعاجلة. والناس يحبّون العاجلة، ويؤثرون المتعة المؤقتة الحاضرة على اللذة الباقية الآجلة، يقول تعالى: (لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَتَّبَعُوكَ)(٤)، فإن الإنسان - بطبيعته عجول - وهذه العجلة في اقتطاف الثمرة الدانية والقريبة، والعرض القريب الداني، وهذا الاستعجال في اقتطاف العرض السريع يحرمهم من اللذة الباقية في الجنة.

٣ - والدنيا «دار الغرور»: يقول تعالى: (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ»)(٥) والغرور هو كلما يغرّ الإنسان من مال، وجاه، وسلطان، وشهوة، ويخدعه ويلهيه، وكذلك الدنيا تلهي الإنسان، وتشغله، وتتخلّى عنه فجأة.

---

(١) الأنفال: ٦٧.

(٢) النساء: ٩٣.

(٣) الأعراف: ١٦٩.

(٤) التوبة: ٤٢.

(٥) لقمان: ٣٣، وفاطر: ٥.

٤ - والدنيا «متاع الغرور»: وهو تركيب من معنيين يذكرهما القرآن للدنيا: «المتاع» و«الغرور» على انفراد حيناً، ومجتمعةً حيناً آخر، يقول تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[1] ومصدر هذا الغرور هو هذا المتاع المؤقت الزائل.

وهذه وجوه اربعة لباطن الدنيا. . يراها الذين يبصرون باطن الحياة الدنيا، واذا عرف الإنسان الدنيا بها، وعرف بأنها (متاع)، وأنها (عرض)، وأنها (دار الغرور) وأنها (متاع الغرور). . يزهد فيها ولا يتهالك عليها.

المقابلة بين الدنيا والآخرة:

بمراجعة ثانية للقرآن الكريم نستطيع أن نقوم بمقابلة ومقارنة بين الدنيا والآخرة في الأوصاف التي يذكرها القرآن للوجه الباطن من الدنيا، وقد قلنا من قبل: إن القرآن، يعتبر الدنيا عرضاً زائلاً، سريع الزوال، ومتاعاً مؤقتاً لا يدوم لاحد، وأما الآخرة فهي دار القرار والاسقرار، ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾[2]، والدنيا لهو ولعب، وأما الآخرة فهي دار الحيوان، وهي الحياة الحقيقية، وليست حياة اللهو واللعب، ﴿**وَمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[3].

الدنيا في كلمات الإمام (عليه السلام)

والإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام يعرّي الدنيا في كلماته، تعرية كاملة، ويكشف

---

(١) آل عمران: ١٨٥ والحديد: ٢٠.

(٢) المؤمن: ٣٩.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

عن وجهها الذي يغري الناس ويخدعهم، ويبصّر الناس بباطن الدنيا وحقيقتها وواقعها، وكلمات الإمام غنيّة بهذا الوعي، وفيما يلي نستعرض بعض النماذج من كلام الإمام عليه السلام في الدنيا:

يقول عليه السلام: «والله ما دنياكم عندي إلاّ كسَفْر على منهل حلّوا، إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا، ولا لذاذاتُها في عيني إلاّ كحميم أشربُه غسّاقا، وعلقم أتجرع به زُعافا، وسِمّ أفعاة دِهاقاً، وقَلادة من نار»[1].

إن الذي يراه الناس في هذه الدنيا هو الحلول على منهل مترع «سفر على منهل حلّوا»[2] وهذا هو الوجه الظاهر من الدنيا، الذي يتنافس ويتصارع عليه الناس، والذي يراه علي عليه السلام من هذه الدنيا هو سرعة الايذان بالرحيل، وهو الوجه الباطن للدنيا «إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا».

وعند ذلك تكون «لذاذات» الدنيا التي يتسابق عليها الناس عند علي عليه السلام حميماً غساقاً، وسَمّ أفعاة دهاقاً.

ويقول ضرار بن حمزة الشيباني رحمه الله لمعاوية بن أبي سفيان، وقد طلب منه أن يصف علياً عليه السلام: «ولقد رأيته، في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته يتململ تململ السقيم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا إليك عني، أبي تعرّضتِ؟ أم إليّ تشوّقتِ؟ هيهات!! غرّي غيري لا حاجة لي فيكِ، قد طلّقتك ثلاثاً، لا رجعة فيها: فعيشك قصير، وخطرك كبير،

---

(١) بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٢، و ٤٠/ ٣٤٦ (مؤسسة الوفاء ـ بيروت) وحلية الابرار للسيد هاشم البحراني ٢/ ٤٣، وموسوعة الامام علي بن أبي طالب (ع) ح رقم/ ٤١٩٥، ج ١٠ ص ٤٤.

(٢) السفر: المسافرون.

وأملك حقير، آه من قلّة الزاد، وطول الطريق»[١].

وهذه حقائق ثلاث عن باطن الدنيا، يكشفها الإمام عليه السلام ويعرّيها للمغترين بالدنيا: «فعيشك قصير، وخطرك كبير، وأملك حقير».

ويقول عليه السلام: «ألا وإن الدنيا دار غرّارة، خدّاعة، تنكح في كل يوم بعلاً، وتقتل في كل ليلة أهلاً، وتُفرّق في كل ساعة شملاً»[٢].

ويقول عليه السلام: «إن اقبلت غرّت، وإن أدبرت ضرّت»[٣].

ويقول عليه السلام: «الدنيا غرور حائل، وسراب زائل، وسناد مائل»[٤].

ويقول عليه السلام في وصف الدنيا وظاهرها وباطنها: «مثل الدنيا مثل الحيّة مسّها ليّن، وفي جوفها السم القاتل، يحذرها الرجال ذوو العقول، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم»[٥].

وفي هذه الكلمة يضع الإمام عليه السلام النقاط على الحروف، ويميّز بين وجهي الدنيا: الظاهر والباطن، فظاهرها (مسّها ليّن)، كما هو ظاهر الحية التي يلين مسها، وباطنها السم القاتل كما تحمل الحية في جوفها السم القاتل.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ٧٧ وبحار الأنوار ٧٣: ١٢٩. والامالي للشيخ الصدوق ٧٢٤ ط ١٤١٧ (مؤسسة البعثة)، وخصائص الائمة للشريف الرضي ٧١ ط ١٤٠٦ ـ مجمع البحوث الاسلامية/ مشهد) ومستدرك الوسائل للمحدث النوري ١١/ ٣٢٨، ومناقب أمير المؤمنين (ع) محمد بن سليمان الكوفي ٢/ ٥١ ط/ ١٤١٢ ـ قم، مجمع إحياء الثقافة الاسلامية.

(٢) بحار النوار ٧٧: ٣٧٤. والامالي للشيخ الطوسي ٦٨٥ ط ١٤١٤ دار الثقافة ـ قم.

(٣) بحار الأنوار ٧٨: ٢٣. ومطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي ٣٦٢ تحقيق ماجد العطية.

(٤) غرر الحكم للآمدي ١: ١٠٩.

(٥) بحار الأنوار ٧٨: ٣١١. وروى ابن شعبة الحراني هذا الحديث عن هشام عن الامام موسى بن جعفر في تحف العقول ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم.

والناس تجاه الدنيا على طائفتين، أمّا ذوو العقول والبصائر منهم فيتعاملون معها بحذر، كما يتعامل ذوو العقول مع الحية الملساء اللينة، وأمّا غيرهم من الناس فيخدعهم ظاهرها، كما يخدع الاطفال الظاهر اللين الناعم للحية السامة.

وفي خطبة له عليه السلام: **«دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يسْلَم نُزالها. أحوال مختلفة، وتارات متصرفة(١)، العيش فيها مذموم، والأمان منها معدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدَفة، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحِمامها.**

واعلموا - عباد الله - أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية(٢)، فاستبدلوا بالقصور المشيّدة، والنمارق الممهّدة: الصخورَ والاحجار المسنَّدة، والقبور اللاطئة المُلَحَّدة(٣)، التي قد بُني على الخراب فِناؤها(٤)، وشُيد بالتراب بناؤها، فمحلّها مقترب، وساكنها مغترب، بين اهل محلّة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار ودنوّ الدار، وكيف يكون

---

(١) وتارات متصرفة: متنقلة متحولة.

(٢) عافية: مندرسة، بالية.

(٣) اللاطئة: أي اللاصقة بالارض، والملحدة مأخوذة من ألحد القبر، أي جعل له شقاً في وسطه أو جانبه.

(٤) فناء الدار: ساحتها.

بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى[١]، وأكلتهم الجنادل والثرى؟ وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وارتهنكم ذلك المضجع[٢]، وضمّكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور، وبعثرت القبور؟:

(هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْس مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُون)[٣]»[٤].

وروى الشريف الرضي في «نهج البلاغة»: أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لشريح بن الحارث القاضي: **«بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، وأشهدت فيه شهوداً»**؟! فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين.

قال: فنظر إليه نظر مغضب ثم قال له: **«يا شريح، أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسألك عن بيّنتك حتى يخرجك منها شاخصاً، ويسلّمك إلى قبرك خالصاً، فانظر - يا شريح - لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك، فإذاً أنت خسرت دار الدنيا ودار الآخرة! أما إنك لو كنت اتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق، والنسخة هذه:**

---

(١) وقد طحنهم بكلكله البلى. الكلكل: صدر البعير، والبلى: الفناء، ومنه البالي.

(٢) أي كأنكم قد صرتم إلى مصيرهم وحبستم في ذلك المحبس كما يحبس الرهن في يد المرتهن لقرب الموت منكم.

(٣) يونس: ٣٠.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٦٦. وبحار الأنوار للمجلسي ٧٠/ ٨٢، و٧٤/ ٢٩٦ (مؤسسة الوفاء - بيروت) ونهج السعادة للمحمودي ٣/ ١٨٢ وشرح النهج لابن ابي الحديد ١١/ ٢٥٧ ط ١٩٦١م، دار إحياء الكتب العربية.

هذا ما اشترى عبد ذليل، من ميت قد أُزعج للرحيل، اشترى منه داراً من دار الغرور من جانب الفانين، وخطة الهالكين، وتجمع هذه الدار حدود أربعة: الحد الأوّل ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي، وفيه يشرع باب هذا الدار!!

اشترى هذا المغتر بالامل، من هذا المزعَج بالأجل، هذه الدار بالخروج من عزّ القناعة، والدخول في ذل الطلب والضراعة، فما أدرك هذا المشتري فيما اشترى منه من دَرَك، فعلى مبلبل أجسام الملوك، وسالب نفوس الجبابرة، ومزيل ملك الفراعنة، مثل كسرى وقيصر، وتُبَع وحِمْيَرَ، ومن جمع المال على المال فأكثر، ومن بنى وشيّد، وزخرف ونجّد، وادّخر واعتقد، ونظر بزعمه للولد، إشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب، وموضع الثواب والعقاب، إذا وقع الأمر بفصل القضاء (وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، وسلم من علائق الدنيا»[١].

ويقول عليه السلام أيضاً في وصف الدنيا: «فانّ الدنيا رَنِق[٢] مشربها، رَدِغ[٣] مشرعها، يونق[٤] منظرها، ويوبق[٥] مخبرها، غرور حائل، وضوء آفل، وظل

(١) نهج البلاغة، الكتاب الثالث. من كتاب لشريح بن الحارث قاضيه، وبحار الأنوار ٣٣/ ٤٨٥ (مؤسسة الوفاء ـ بيروت) وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٤/ ٢٧، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٢) رنق: كَدِر.

(٣) ردِغ: كثير الطين والوحل.

(٤) يونق: أي يعجب ويغري.

(٥) يوبق: يهلك.

زائل، وسناد[١] مائل، حتى إذا أنس نافرها، وأطمأنَّ ناكرها، قَمَصت بأرجلها[٢]، وقَنَصت[٣] بأحبُلها، واقصدت[٤] بأسْهُمِها، وأعلَقَتَ المرءَ أوهاق المنية[٥]، قائدة له إلى ضَنَكِ المضجع، ووحشة المرجِع، ومعاينة المحل[٦]، وثواب العمل، وكذلك الخلف بعقب السلف: لا تَقلعُ المنيةُ اختراماً، ولا يرعوي الباقون اجتراماً، يحتذون مثالا، ويمضون أرسالا، إلى غاية الانتهاء، وصيور الفناء»[٧].[٨]

ويقول عليه السلام أيضاً: «ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته»[٩].

---

(١) سناد مائل. السناد: الدعامة يسند بها السقف.

(٢) قمص الفرس: هو ان يرفع يديه ويطررحهما معاً.

(٣) وقنصت بأحبلها: أي اصطادت بشباكها وحبالها.

(٤) اقصدت: أي أهلكت.

(٥) أي ربطت بعنقه (اعلقت) حبال الموت (أوهاق المنية).

(٦) معاينة المحل: أي حيث يشهد محله من النعيم أو الجحيم.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة ٨٣ وشرح النهج لابن أبي الحديد ٦/ ٢٤٦، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٨) صيّور الفناء: أي ما يصير ويؤول إليه أمره من فناء الدنيا.

(٩) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٢ وتحف العقول للحراني ٢٠١ ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم، وخصائص الائمة للشريف الرضي ١١٨ ط ١٤٠٦ مجمع البحوث الاسلامية ـ مشهد) وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ٤٤٥ (منشورات الشريف الرضي ـ قم).

ومن كتاب له عليه السلام إلى سلمان الفارسي (رحمه الله) قبل أيام خلافته: «**أما بعد فانما مثل الدنيا مثل الحية، لين مسها قاتل سمها، فأعرض عما يعجبك فيها لقلّة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لما أيقنت به من فراقها وتصرّف حالاتها، وكن آنسَ ما تكون بها أحذرَ ما تكون منها، فإنّ صاحبها كلّما اطمأنّ فيها إلى سرور أشخَصَتْه عنه إلى محذور، أو إلى إيناس أزالته عنه إلى ايحاش، والسلام**»(١).

ويقول عليه السلام أيضاً في وصف الدنيا: «**ألا وإنّ الدنيا قد تصرّمت، وآذنت بانقضاء، وتنكّر معروفها، وأدبرت حَذّاء(٢)، فهي تُحفّز(٣) بالفَناء سكّانها، وتحدو بالموت جيرانَها، وقد أمرّ(٤) منها ما كان حلواً، وكدر منها ماكان صَفْواً، فلم يبق منها إلاّ سلمة كسلمة الأدواة(٥) أو جُرْعة كجرعة المقلة، لو تمزَّزَها الصّديان(٦) لم ينقع، فأزمِعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور المقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنكم فيها الأملُ، ولا يُطولَن عليكم فيها**

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة: ٦٨. وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ٤٤١، منشورات الشريف الرضي ـ قم، والارشاد للشيخ المفيد (باختلاف يسير) ١/ ٢٢٣ ط ١٤١٤ دار المفيد ـ بيروت، وبحار الأنوار للمجلسي ٧٠/ ١٠٥ مؤسسة الوفاء ـ بيروت.

(٢) أي أدبرت سريعة مسرعة.

(٣) تحفز: أي تدفعهم وتسوقهم.

(٤) أمرّ: أي صار مُرّا.

(٥) سَمَلة: بقية الماء في الحوض أو الإناء، والادوات: المطهرة، الابريق.

(٦) تمرز: امتصل قليلا قليلا، والصديان:العطشان. لم يقع: أي لم يُرد.

الأمد»[١].

ويقول عليه السلام: «**أما بعد فإنّي أُحذركم الدنيا فإنّها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلّت بالآمال، وتزيّنت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فَجْعتها، غرّارة ضرّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة، غوّالة، لا تعدو إذاتناهت إلى أُمنيةِ أهل الرغبةِ فيها والرضاء بها أن تكون كما قال الله تعالى: (كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّماء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)**[٢].

لم يكن امرؤ منها في حبرة إلاّ أعقبته بعدها عَبرة، ولم يلق في سرّائها بطناً إلاّ منحته من ضرائها ظهراً، ولم تُطِلّه فيها دَيمةُ رخاء إلاّ هَتَنتْ عليه مُزْنَةُ بلاء، وحري إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكّرة، وان جانبٌ منها إعذَ وذَب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلاّ أرهقته من نوائبها تعباً، ولا يمسي منها في جناح أمن إلاّ أصبح على قوادم خوف، غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلاّ التقوى، من أقلّ منها استكثر مما يؤمّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عما قليل عنه، كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أُبّهة قد جعلته حقيراً وذي نخوة قد ردته

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٢. ومصباح المتهجد للشيخ الطوسي ٦٦٢ ط ١٤١١، مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت، وجواهر الكلام ١١/ ٣٤٣ (دار الكتب الاسلامية) ومن لا يحضره الفقيه للصدوق ١/ ٥١٨ جماعة المدرسين ـ قم، وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي ١٠٨ .

(٢) سورة الكهف: ٤٥.

ذليلاً، سلطانها دول، وعيشها رَنق، وعَذبُها أُجاج، وحُلْوُها صَبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رِمام، حَيّها بعرْضِ موت، وصحيحها بِعَرْض سُقْم، مُلْكها مسلوب، وعزيزُها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب.

ألستم في مساكن من كان قبلكم أطولَ أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعدَ آمالا، وأعدَّ عديداً، وأكثف جنوداً، تعبَّدوا للدنيا أي تعبّد، وآثروها أيّ إيثار، ثمّ ظعنوا عنها بغير زاد مُبلِّغ، ولا ظهر قاطع؟! فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة؟ بل أرهقْتهم بالقوادح، وأوهنَتْهم بالقوارع، وضَعْضَعَتْهم بالنوائب، وعفرَّتهم بالمناخر ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريب المنون، فقد رأيتم تنكُّرَها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها حين ظعنوا عنها لفراق الابد، وهل زودتم إلاّ السغب، أو أحلتهم إلاّ الضنك، أو نورَت إلاّ الظلمة، أو أعقبتهم إلاّ الندامة؟ أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمأنّون، أم عليها تحرصون؟

فبئست الدار لمن لم يتهمها ولم يكن فيها على وجل منها، فاعلموا - وأنتم تعلمون - بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتّعضوا فيها بالذين قالوا: «من أشدّ منّا قوة» حُمِلوا إلى قبورهم فلا يُدعَون ركبانا، وأُنزلوا الاجداث فلا يدعون ضِيفانا، وجُعل لهم من الصفيح أجنانٌ، ومن التراب أكفان، ومن الرفاة جيران، فهم جيرة لا يجيبونِ داعياً، ولا يمنعون ضَيْما، ولا يبالون مندبةً، ان جيدوا لم يفرحوا، وان قحطوا لم يقنطوا، جميع وهم آحاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يُخشى فجعُهم، ولا يرجى دفُعهم، استبدلوا

بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربةً، وبالنور ظلمةً، فجاؤوها كما فارقوها، حفاة عراة، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية، كما قال سبحانه: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)(١).

ويقول عليه السلام أيضاً: «وأُحذّركم الدنيا فإنها منزل قُلعة، وليست بدار نُجعة، قد تزيّنت بغرورها، وغرّت بزينتها، دار هانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرّها، لم يصفّها الله تعالى لاوليائه، ولم يَضنّ بها على أعدائه، خيرها زهيد وشرها عتيد، وجمعها ينفد، وملكها يُسلب، وعامرها يخرب، فما خير دار تُنقض نقض البناء، وعمر يفنى فيها فناء الزاد، ومدة تنقطع انقطاع السير! اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبكم واسألوه من أداء حقه ما سألكم»(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أكثروا ذكر هادم اللذات»(٣).

ويقول عليه السلام أيضاً في وصف الدنيا: «... عباد الله أُوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم، وان لم تحبوا تركها، والمبلية لاجسامكم وان كنتم تحبون تجديدها،

---

(١) الخطبة: ١١١ من نهج البلاغة، والآية من سورة الأنبياء: ١٠٤. وتحف العقول لابن شعبة الحراني ١٨٣ ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم، ومستدرك الوسائل للمحدث النوري ٢/ ٢٧٥، وبحار الأنوار ٧٠/ ٩٨ (مؤسسة الوفاء ـ بيروت)، وجامع احاديث الشيعة ٣/ ٢٩٠.

(٢) الخطبة: ١١٣ من نهج البلاغة. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي ١٤٥، وبحار الأنوار ٧٠/ ١٢٣ و٧٥/ ٤٠ (دار الوفاء)، وشرح ابن ابن الحديد على النهج ٧/ ٢٤٦.

(٣) وسائل الشيعة للحر العاملي ٢/ ٤٢٦ ط (آل البيت)، ومستدرك الوسائل ٢/ ١٠٥.

فإنّما مثلكم ومثلها كَسَفْر سلكوا سبيلا فكأنّهم قد قطعوه، وأمّوا علماً فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها؟ وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث من الموت يحدوه، ومزعج في الدنيا حتى يفارقها رغماً؟ فلا تنافسوا في عزّ الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها، فان عزها وفخرها إلى انقطاع، وان زينتها ونعيمها إلى زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاد، وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء. أو ليس لكم في آثار الاولين مزدجر؟ وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر ان كنتم تعقلون؟! أو لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون؟ وإلى الخلف الباقين لا يبقون؟ أولستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتّى: فميت يُبكى وآخر يُعزّى، وصريع مُبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي؟!

إلاّ فاذكروا هادم اللذات، ومنغّص الشهوات، وقاطع الأمنيات، عند المساورة للاعمال القبيحة، واستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من إعداد نعمه وإحسانه»[1].

وهذا هو الوجه الأوّل للحياة الدنيا، وإنّما أطلنا في استعراض النصوص الإسلامية في وصف هذا الوجه من وجهَي الدنيا، لان الناس في الاغلب يقفون عند ظاهر الحياة الدنيا عن باطنها، ولا تخترق أبصارهم ظاهر الدنيا إلى باطنها، وعسى أن نجد في هذه النصوص ما يعيننا على اختراق ظاهر الدنيا إلى باطنها.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٩. وشرح ابن أبي الحديد ٧١/ ٨١ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

ب ـ الوجه الظاهر للدنيا:

أما الوجه الظاهر للحياة الدنيا فهو وجه الاغراء، فإنّ الحياة الدنيا مغرية، وجذابة لغير ذوي البصائر من الناس، تستميلهم وتستهويهم وتجذبهم وتغريهم، وتلهيهم باللهو واللعب، يقول تعالى:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[١].

﴿وَمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[٢].

﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾[٣].

وهذا الذي يقول عنه تعالى أنه لعب ولهو هو الوجه الظاهر للدنيا، واللهو واللعب في مقابل الجد والاهتمام...

وهذا هو بالدقة الوجه الظاهر للدنيا، يشغل الإنسان باللهو واللعب، ويصرفه عن الجد والاهتمام، ولو صرف نظره من الوجه الظاهر للدنيا إلى باطنها لعزف عن اللهو واللعب وزهد في الدنيا، وشغله أمر نفسه عن غيره من الأمور فان الدنيا «لُماظة».

يقول علي عليه السلام: «ألا مَن يدع هذه اللُماظة»[٤]. واللماظة هي بقية الطعام في الفم يتذوقها ويستمرؤها الإنسان.

وعن علي عليه السلام: «اُحذّركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حُفّت بالشهوات»[٥].

---

(١) الأنعام: ٣٢.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) الحديد: ٢٠.

(٤) بحار الأنوار ٧٣: ١٣٣. ونهج البلاغة كلمة/ ٤٥٦ والعبارة هكذا: «ألا حُرَ يدع هذه اللماظة»، وتحف العقول: ٢٩١.

(٥) بحار الأنوار ٧٣: ٩٦. والرسالة السعدية للعلامة الحلي ١٥٩ ط ١٤١٠ ـ قم.

المقارنة بين الوجه الظاهر والباطن للحياة الدنيا

في القرآن الكريم مقارنة بين وجهي الحياة الدنيا: الظاهر والباطن.

ولنتأمل في طائفة من هذه الايات:

١ - (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أنزَلْنَاهُ مِنَ السَّماء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ)[1]. وهذه الآية مثال معبّر عن الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، وما يؤول إليه أمرها من خراب وبوار مفاجيء.

فتشبيه الدنيا بالمطر الذي ينزل من السماء على الأرض، ويختلط به نبات الأرض، فينمو به نبات الأرض، غذاءً للإنسان والحيوان، وزينة للأرض، (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ...)[2] أتاها أمر الله تعالى فجأة، من صاعقة، أو ريح، أو غيرها، فيجعلها حصيداً وخراباً، كأن لم تغن بالامس، عامرة، زاهية، خضراء، وهو تصوير معبّر ودقيق عن وجهي الحياة الدنيا الظاهر والباطن، فهي خضراء، زاهية، مغرية، ومثيرة، تجذب الانظار، وتستهوي النفوس، ولكن ما ان تطمئن إليها النفوس، حتى يأتيها أمر الله تعالى فجأة، فيجعلها خربة، بائرة، تعزف عنها النفوس.

وإنّ الشطر الأوّل من هذه الآيات مبعث الإغراء والاعتزاز بالدنيا، وهو الوجه الظاهر منها، والشطر الثاني منها منبع العظة والعبرة، وهو الوجه الباطن للدنيا.

---

(١) يونس: ٢٤.

(٢) يونس: ٢٤.

٢ - (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(١).

إنّ الدنيا زينة لا شك فيها، وهذه الزينة هي التي تستهوي أفئدة الناس وتجذبهم، ولكن هذه الزينة تستبطن الابتلاء والاختبار والامتحان، وتستبطن حالات السقوط في هذه الابتلاءات، كالطعمة التي تقدم للصيد.

٣ - (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(٢).

وهذه الآية الكريمة أيضاً في نفس السياق تصوير لوجهي الحياة الدنيا الظاهر والباطن، كالغيث الذي ينزل من السماء، فيسقي نبات الأرض، فيزهو، ويثير اعجاب الفلاح، ثم يهيج فيصفر، ويكون حطاماً فجأة.

تعدد الرؤية إلى الدنيا

والحقيقة أن تعدد وجهي الدنيا ينشأ من تعدد الرؤية إلى الدنيا، وباختلاف الرؤية يختلف وجها الحياة الدنيا، فإن الدنيا حقيقة واحدة، ولكن الناس ينظرون إليها على نحوين:

فمن الناس من ينظر إلى الدنيا نظر «اغترار»، ومن الناس من ينظر إلى الدنيا نظر «اعتبار»، وهذان نحوان من الرؤية، احدهما سطحي يقف عند السطح الظاهر من

(١) الكهف: ٧.

(٢) الحديد: ٢٠.

الدنيا، فتستهوي الإنسان وتغرّه، والآخر عميق ينفذ إلى باطن الحياة الدنيا فيزهد صاحبها فيها، والأمر يتوقّف - إذن - على طريقة رؤية الإنسان للدنيا وفهمه لها، ولكي يصحّح الإنسان طريقة تعامله مع الدنيا ينبغي أن يصحّح قبل ذلك أسلوب رؤيته للدنيا، فكما يرى الدنيا يتعامل معها.

فالذين ينظرون إلى الدنيا نظر «اغترار»، تلهيهم الدنيا، وتستهويهم، وتغرهم، وتكون الحياة لهم لعباً ولهواً، كما يقول القرآن الكريم، والذين ينظرون إلى الدنيا نظرة «اعتبار»، يعملون في الدنيا بصدق وجد، ويشغلهم جِدّ الآخرة عن لهو الدنيا.

وفي كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام دلالات واضحة على ما نذكره هنا من اختلاف الرؤية عند الناس في النظر إلى الدنيا.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظّمه في عيني صغر الدنيا في عينه»[١]، فهناك إذن من يستصغر الدنيا، وهناك من يستعظمها، وهاتان رؤيتان إلى الدنيا.

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضاً في وصف الدنيا: «ما أصف من دار أوّلها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حزن»[٢]، وهذا هو الوجه الباطن للحياة الدنيا، والرؤية الواعية النافذة إلى الدنيا.

ثم يقول عليه السلام: «من ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته»[٣]، وهذه سُنّة من سنن الله

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٨٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٢.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٢.

تعالى في علاقة الإنسان بالدنيا، لا تختلّ، ولا تتغيّر، فمن يركض وراء الدنيا و«يساعيها» ويجاريها تُتْعِبُه، فلا يكاد يحقق طموحه فيها، وكلما يكسب فيها من رزق يطمح فيها إلى أبعد من ذلك، ويسعى إليه، فهو يجاري الدنيا ويركض خلفها، دون أن يصل إلى غايته منها، ومن يتجمّل في طلبها، فإن الدنيا تؤاتيه وتطاوعه، وينال حاجته منها.

ثم يقول عليه السلام وهو موضع الشاهد في هذا النصّ: «من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته»[1].

يقول الشريف الرضي في تفسير هذا الكلام: «والمتأمّل فيه يجد تحته من المعنى العجيب، والغوص البعيد ما لا يُبلغ غايتهُ، ولا يدرك غوره»، وهذا الذي يذكره الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نحوان من الرؤية: أحدهما «إبصار بالدنيا» وهي نظرة الاعتبار، والثاني (إبصار إلى الدنيا)، وهي نظرة الاغترار والافتتان، ولابد لذلك من إيضاح:

إنّ الدنيا قد تكون مرآة ينظر بها الإنسان، وقد تكون غاية ينظر إليها الإنسان وهما نحوان من الرؤية.

فإذا كانت الدنيا مرآة ينظر بها الإنسان إلى الحضارات البائدة، وإلى الذين طغوا واستكبروا على وجه الأرض، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر... فان هذه النظرة تكون نظرة «اعتبار» و«اتعاظ».

وأما عندما تكون الدنيا غاية ينظر إليها الإنسان وينشد إليها، فان الدنيا تستهويه وتفتنه، وتعميه، ويراها حلوة، خضرة، والنظرة الأولى مادة للاعتبار، والثانية مادة

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٨٩، ١: ١٠٦ ط / الصالح.

للافتتان والاغترار، وفي الأولى وعي وبصيرة، وفي الثانية تلبيس وغرور.

ولابن أبي الحديد في شرح هذه الكلمات بيتان في توضيحها، يقول: ونظرت إلى قوله عليه السلام «من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته» فقلت:

دنياك مثل الشمس تدني الـ ... يك الضوء لكن دعوةَ المُهْلكِ
إن أنت أبصرت إلى نورها ... تَغْشُ وإن تُبصر به تدرك

وفي تعميق هذه الرؤية وتأكيدها يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **«... جعل لكم أسماعاً لتعي ما عناها، وأبصاراً لتجلو عن عشاها... وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم،... أرهقتْهم المنايا دون الآمال،... لم يمهدوا في سلامة الابدان، ولم يعتبروا في آنف الاوان،... فهل دفعت الاقارب؟ أو نفعت النواحب؟ وقد غُودِر في محلّةِ الأموات رهيناً وفي ضيق المضجع وحيداً، قد هتكت الهوام جلدته... وعفَتِ العواصف آثارَه، ومحا الحدثان معالمه،... أوَلستم أبناءَ القوم والآباء، وإخوانهم والاقرباء؟ تحتذون أمثلَتهم، وتركبون قَدّتهم، وتطَؤون جادّتَهم، فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها! وكأن الرشد في احراز دنياها!!»**[1].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً في نفس السياق: **«وإنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار**

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٣

وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود»[١].

إنّ الأعمى هو الذي لا يخترق بصره الدنيا، فيقف عندها، ويتعلق بها، فالدنيا «منتهى بصر الأعمى»، وأما البصير فهو الذي يخترق بصره الدنيا، ويرى عاقبتها، ويرى الدار الآخرة، فلا يتوقّف عندها، ويعتبر بها، ويرحل عنها.

ولابن أبي الحديد شارح «نهج البلاغة» شرح جيد لهذه الفقرة غير ما ذكرنا، يقول: «شبه الدنيا وما بعدها بما يتصوّره الأعمى من الظلمة التي يتخيّلها، وكأنها محسوسة له، وليست بمحسوسة على الحقيقة، وإنما هي عدم الضوء، كمن يطّلع في جُبّ ضيّق فيتخيّل ظلاماً فإنه لم ير شيئاً، ولكن لما عدم الضوء، فلم ينفذ البصر تخيل أنه يرى الظلمة، فأما من يرى المبصرات في الضياء، فان بصره ينفذ فيشاهد المحسوسات يقيناً، وهذه حالة الدنيا والآخرة: أهل الدنيا منتهى بصرهم دنياهم، ويظنون أنهم يبصرون شيئاً وليسوا بمبصرين على الحقيقة، ولا حواسهم نافذة في شيء، وأهل الآخرة قد نفذت أبصارهم فرأوا الآخرة ولم يقف احساسهم على الدنيا خاصة، فأُولئك هم أصحاب البصائر على الحقيقة»[٢] وهذا معنىً شريف من معاني الطريقة والحقيقة.

الطريقة الصحيحة للرؤية

إنّ للرؤية كأي فعل آخر من أفعال الإنسان أساليب ومناهج، منها الصحيح ومنها

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨: ٢٧٦.

الخطأ، والقرآن يوضح لنا، فيما يوضح من مناهج السلوك والعمل، المنهج الصحيح للرؤية، يقول تعالى: (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[1]، و«تمديد النظر» طريقة من النظر والرؤية، وهي أن يمد الإنسان نظره إلى ما رزق الله تعالى الناس من رزق، وفي هذا «المد» معنى «التجاوز» وكأنما الإنسان يتجاوز بنظره عما رزقه الله تعالى من رزق إلى ما رزق الآخرين من عباده من زهرة الحياة الدنيا. . وهذه رؤية مذمومة.

وهذا «التمديد» في النظر هو مصدر عذاب الإنسان ومعاناته... فهو يتمنى ما لم يرزقه الله، ويسعى نحوه، فإذا رزقه الله تعالى تمنّى غير ذلك مما لم يرزقه الله تعالى، ورزق الآخرين من عباده... ويستمر الإنسان في ملاحقة الدنيا ومساعاتها - كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام -، والركض وراءها، فيطول عذابه فيها، ولا ينال منها غايته.

ان هذه الطريقة من النظر إلى الدنيا تورث الإنسان الحسرة والتلهّف على ما في أيدي الناس، بعكس النظرة القائمة على أساس التعّفف عما في أيدي الناس.

وغني عن البيان أن نظرة الاستغناء والتعّفف عما في أيدي الناس، وعدم الانشداد به لا يعني القعود عن السعي والعمل والتحرّك في ساحة الحياة، فإن الإنسان المسلم يسعى ويتحرك، ولكن ليس من منطلق التلهّف على ما في أيدي الناس.

إذن لطريقة النظر إلى الاشياء دور كبير في سلامة النفس وتلوثها، فقد تلوّث

---

(١) طه: ١٣١.

النظرة روح الإنسان، وتخلق له عذاباً ومعاناة طويله «رُبَّ نظرة تورث حسرة»[١]، وقد تكون النظرة أساساً ومنطلقاً لاستقامة الإنسان وتقويم سلوكه.

ان الإسلام لا يمنع من النظر، ولكن يعلّمنا كيف ننظر إلى الأشياء.

نتائج وانعكاسات الرؤية على النفس

حب الدنيا والزهد:

لكل طريقة في الرؤية آثارها السلبية أو الايجابية على حياة الإنسان، والإنسان يتعامل مع أي شيء بالطريقة التي ينظر بها إلى ذلك الشيء.

والنظر إلى الدنيا بهذه الطريقة أو تلك تترك آثاراً وانعكاسات واضحة في سلوك الإنسان وفكره ونفسه، ولا سبيل إلى تغيير هذه الآثار إلاّ باجراء تغيير جذري في الطريقة التي ينظر بها الإنسان إلى الدنيا.

وهذه حقيقة على درجة عالية من الأهمية، وداخلة في صلب منهج التربية الإسلامية، وعليه سوف ندرس الآثار والانعكاسات النفسية والسلوكية لكل من الرؤية الساذجة غير النافذة إلى باطن الدنيا، والتي عبّر عنها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بـ «الابصار إلى الدنيا»، والرؤية العميقة والنافذة التي عبّر عنها أمير المؤمنين عليه السلام بـ «الإبصار بالدنيا».

وأعظم آثار هذه الرؤية وتلك هي «حب الدنيا» و«الزهد»، وحب الدنيا هو النتيجة الطبيعية للنظرة الساذجة غير النافذة إلى الدنيا و«الزهد» في الدنيا هو النتيجة

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ١٣٨، فروع الكافي ٥: ٥٥٩ وميزان الحكمة مجلد ١٠. كتاب النكاح للشيخ الانصاري ٤٥ ط ١٤١٥ ـ قم (الباقري)، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٢/ ١١٧، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

الطبيعية للنظرة العميقة والنافذة للدنيا.

وفيما يلي نتوقف عند كل من هاتين الحالتين في حياة الإنسان:

حبّ الدنيا

حب الدنيا هو النتيجة الطبيعية للنظرة الساذجة إلى الدنيا، فإن هذه النظرة كما قلنا لا تستطيع أن تخترق ظاهر الحياة الدنيا، فتتعلق بطبيعة الحال ببهجة الدنيا وزهرتها، وتنشّد إليها.

كما أن الزهد في الدنيا هو النتيجة الطبيعية للنظرة الواعية والنافذة للدنيا.

حبّ الدنيا مصدر كل شر في حياة الإنسان:

إنّ حبّ الدنيا مصدر كل شر في حياة الإنسان، وليس من شر ومحنة في حياة الإنسان إلاّ ويعود بعض جذورها، او كل جذورها إلى «حب الدنيا».

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «حبّ الدنيا أصل كل معصية، وأوّل كل ذنب»[١].

وعن علي عليه السلام: «حبّ الدنيا رأس الفتن وأصل المحن»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «رأس كل خطيئة حبّ الدنيا»[٣].

حب الدنيا يؤدي إلى الكفر:

وهو أسوأ آثار «حب الدنيا»، والقرآن يذكر هذه العلاقة بين «حبّ الدنيا»

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٩٤. وبرواية العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٤٧ (حب الدنيا أصل كل خطيئة) للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وكذلك برواية السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٧، وكذلك في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٢٩.

(٢) غرر الحكم للآمدي ١: ٣٤٢. ومستدرك الوسائل ١٢/ ٤١ وعيون الحكم والمواعظ: ٢٣١.

(٣) بحار الأنوار ٧٣: ٧. وروى «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، الكافي للكليني ٢/ ١٣١.

و«الكفر» وهذا المردود السيئ لحب الدنيا في أكثر من موضع:

١ - يقول تعالى: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وليس الكفر فقط من نتائج «حبّ الدنيا» في هذه الآية المباركة، وإنما تقرر الآية الكريمة حقيقة أبعد من ذلك، وتلك أن حب الدنيا يشرح صدر الإنسان للكفر، فيطمئن الإنسان بالكفر، وينشرح له، ويركن إليه، وهو شر من الكفر، وهؤلاء يغضب الله عليهم، ويطردهم عن رحمته.

٢ - يقول تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ* الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾[2].

والعلاقة واضحة في هذه الآية الكريمة بين «حبّ الدنيا» و«الكفر والصدّ عن سبيل الله».

الآثار النفسية والسلوكية لحبّ الدنيا:

لحبّ الدنيا آثار نفسيّة وسلوكية واسعة على الإنسان، وفيما يلي نشرح طائفة من هذه الآثار على نفس الإنسان وسلوكه وفعله.

١- طول الأمل بالدنيا: وهو من دون شك من الآثار النفسيّة لحبّ الدنيا، فان الإنسان إذا أحب الدنيا وتعلّق بها طال أمله فيها، وهذه هي المعادلة الأولى في هذه القضية.

ومن يطول أمله في الدنيا يقلّ ذكره للموت، ويقصر عمله واستعداده للدار

---

(١) النحل: ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) ابراهيم: ٢ ـ ٣.

الآخرة.

عن علي عليه السلام: «ما أطال عبد الأمل، إلاّ أساء العمل»[١].

وعنه عليه السلام أيضاً: «أكثر الناس أملاً، أقلّهم للموت ذكراً»[٢].

وعنه عليه السلام أيضاً: «أطول الناس أملا، أسوؤهم عملا»[٣].

٢ - الاطمئنان إلى الدنيا والركون إليها: وهو ينتج عن طول الأمل في الدنيا، وطول الأمل ينتج عن حب الدنيا، والرضا بها، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[٤].. والعلاقة واضحة في الآية الكريمة بين الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها.

وهذه حالة من الاحساس الكاذب.. يشعر الإنسان عندها بأن الدنيا دار قرار له، والدنيا ليست بدار قرار، وانما هي متاع زائل، يُسرع إليه الفناء، وإن دار القرار هي الجنة.

قال تعالى: (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ)[٥].

وقال تعالى: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)[٦].

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ١٦٦. ذكرى الشيعة للشهيد الاول ١/ ٢٨٩ ط ١٤١٩ ـ قم، والكافي للكليني ٣/ ٢٥٩ ط ١٣٦٧ (الحيدري)، ووسائل الشيعة ٢/ ٤٢٧ (آل البيت عليهم السلام).

(٢) غرر الحكم للآمدي ١: ١٩٠.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ١٩٠.

(٤) يونس: ٧ ـ ٨.

(٥) الرعد: ٢٦.

(٦) المؤمن: ٣٩.

فالدنيا إذن متاع زائل والآخرة هي دار القرار، بخلاف ما يتوهّمه الناس الذين يركنون إلى الدنيا، وحبّ الدنيا والفرح بها والرضا بها هو الذي يوهم الإنسان بهذا الوهم.

روي عن علي عليه السلام من الحديث القدسي الشريف: قال الله تعالى: «عجبت لمن يرى الدنيا وتصرّف أهلها حالا بعد حال، كيف يطمئن إليها»[١].

وكان فيما أوحى الله تعالى إلى نبيّه وكليمه موسى بن عمران عليه السلام: «يا موسى لا تركن إلى الدنيا ركون الظالمين، وركون من اتّخذها أماً وأباً، واترك من الدنيا ما بك الغنى عنه»[٢].

وهو تعبير شفّاف ودقيق، فان من الناس من يركن إلى الدنيا وهي على ما نشاهد من تقلّب الأحوال، كما يركن الطفل إلى أمه وأبيه، ومن الناس من يرى ما في الدنيا من اللهو واللعب مما يتنافس فيه الناس باطلاً من حطام الدنيا ومتاعها، فيعرفها ولا يغتر بها، وينصرف عنها إلى الحياة الحقيقية الجادة، والحياة الجادّة الحقيقية هي الدار الآخرة ﴿وَمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٩٧. ومسند زيد بن علي ٤٤٧ ط مكتبة الحياة ـ بيروت، وعلل الشرائع للصدوق ١/ ٦٢ ط ١٣٨٥ النجف (الحيدرية)، ومسند الرضا (ع)، داود بن سليمان الغازي ط ١٤١٨، مكتب الإعلام الاسلامي ، ومعدن الجواهر للكراجكي: ٤٤ ط ١٣٩٤ ـ قم.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٣٥٤ و٧٣: ٧٣. والكافي للشيخ الكليني ٢/ ١٣٥ ط ١٣٦٥، دار الاسلامية ـ طهران، ومكارم الاخلاق للطبرسي ٤٥٤ ط ١٣٩٢، الشريف الرضي ـ قم، والجواهر السنية للحر العاملي ٤٤ ط ١٣٨٤ النجف الاشرف.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

٣ - إيثار الحياة الدنيا على الآخرة: وهو أيضاً من آثار ونتائج حب الدنيا، فان الإنسان إذا بالغ في حبّ الدنيا آثرها على الآخرة. وقد ذكر الله تعالى حالة إيثار الدنيا على الآخرة في كتابه الكريم:

(فَأَمَّا مَن طَغَى* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)[١].

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[٢].

وفي الحقيقة هؤلاء يريدون الدنيا فقط، فإن إيثار الدنيا على الآخرة يكون عند التزاحم بين الدنيا والآخرة، وعندئذ لا بد من أن يختار الإنسان: إما الدنيا دون الآخرة، واما الآخرة، دون الدنيا، وهؤلاء يختارون الدنيا دون الآخرة، فهم إذن لا يريدون إلاّ الحياة الدنيا، يقول تعالى: (فَأَعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[٣]. هؤلاء يبيعون الحياة الآخرة بالدنيا. (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ)[٤].

وقد روي عن رسول الله ﷺ في هذا السياق: «من عرضت له دنيا وآخرة، فاختار الدنيا على الآخرة، لقي الله عزّ وجلّ وليست له حسنة يتّقي بها النار، ومن أخذ الآخرة وترك الدنيا لقي الله يوم القيامة وهو راض عنه»[٥].

---

(١) النازعات: ٣٧ ـ ٣٩.

(٢) الأعلى: ١٦ ـ ١٧.

(٣) النجم: ٢٩.

(٤) البقرة: ٨٦

(٥) بحار الأنوار ٧٦: ٣٦٤ و٧٣: ١٠٣. والامالي للشيخ الصدوق ٥٢٥ ط ١٤١٧، مؤسسة البعثة ، وثواب الاعمال للصدوق ٢٨٣ ط ١٣٦٨ ـ قم، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق ٤/ ١٤، ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم، ووسائل الشيعة ١٥/ ٢٠٩ آل البيت .

وعن علي عليه السلام: «من عبد الدنيا وآثرها على الآخرة استوخم العاقبة»[١].

وعن علي عليه السلام: «لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلاّ فتح الله عليهم ما هو أضرّ منه»[٢].

وعن علي عليه السلام: «من لم يبال ما رزء من آخرته إذاسلمت له دنياه فهو هالك»[٣].

٤ - الاستعجال بطيبات الآخرة في الدنيا: وهذه حالة أُخرى نابعة كذلك من حب الدنيا، وهي استعجاله طيبات الآخرة في الدنيا، فإن الله تعالى قد خلق الإنسان ليتمتّع بطيّبات الجنة، فإذا أحب الإنسان الدنيا، وتعلّق بها، واطمأنّ إليها، وركن إلى طيّباتها، فكأنّه استعجل بطيّبات الآخرة في الدنيا، كالفلاّح الذي يستعجل اقتطاف الثمرة قبل أوانها، فيقتطفها فجّة، غير ناضجة، وكالطفل الذي يستعجل راحة الشيخوخة والكهولة، فيقضي وقته في اللعب ويهمل دراسته، ويضحّي براحة المستقبل في أيام كهولته وشيخوخته[٤]. والآية الكريمة دقيقة في تصوير هذا

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ١٠٤. الخصال للصدوق ٦٣٢، واستوخم العاقبة يعني وجدها وخيماً.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ١٠٧. نهج البلاغة حكمة ١٠٦ وشرح ابن أبي الحديد ١٨/ ٢٦٨.

(٣) بحار الأنوار ٧٧: ٢٧٧. مشكاة الأنوار للطبرسي: ٥٢.

(٤) عندما تتزاحم الدنيا والآخرة، يعني «حدود الله» و«الدنيا» فيتطلب الالتزام بحدود الله تعالى وأحكامه الحرمان من بعض الطيبات في الدنيا، ويتطلب التعلق بالدنيا من الإنسان أن يتجاوز أحكام الله تعالى فيقع الإنسان عندئذ على مفرق طريق بين الدنيا والآخرة، وليس من حرمان في الحقيقة، فان الإنسان إذا التزم بحدود الله تعالى في الدنيا رزقه الله تعالى الطيبات في الآخرة، كاملة ناضجة، ودائمة: باقية في دار القرار، ولكن الإنسان يستعجلها في الدنيا فينالها فجة، وغير ناضجة، ومتاعاً يسرع إليه الزوال، ويشوبه الكثير من الاخطار والهموم والآلام.

ونحن إذا أمعنا النظر في النصوص الإسلامية نجد أن هذه القاعدة تنطبق إلى حد ما في مساحة الحلال من الدنيا أيضاً، ولكن ليس بشكل مطلق، فإذا زهد الإنسان في بعض الحلال من الطيبات ←

المعنى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ)[١].

تأمّلوا في قوله تعالى: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا)[٢] وكأن الله تعالى قد ادّخر الطيبات للإنسان في الآخرة وهي دار القرار، فاستعجلها الإنسان وجناها في الدنيا قبل أوان نضجها، وذهب بها، وهي فجة وزائلة.

العاجلة

ولهذا السبب فان القرآن يسمّي الدنيا بـ«العاجلة»، وهي بمعنى الدار التي يستعجل فيها الإنسان اقتطاف طيّبات الآخرة قبل أوانها، يقول تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ)[٣].

ونحن بحاجة إلى الكثير من التأمّل والتفكير في هذه الفقرة الاخيرة من الآية الكريمة: (مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ) فان استعجال الإنسان لطيبات الآخرة في الدنيا ليس بمعنى أن الإنسان سوف ينال ما يشاء هو من طيبات الدنيا، بل أن الله تعالى يعطي

←

ادخره الله تعالى له في الآخرة... ولعل ذلك لئلا تستدرجه هذه الطيبات إلى التعلق بالدنيا وحبّها، أو لمواساة الطبقة التي لا تستطيع أن تتمتع بها من المؤمنين... ومهما يكن من أمر فلا منافاة بين تطبيق هذه القاعدة وقوله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)؟؟.

(١) الأحقاف: ٢٠.

(٢) الأحقاف: ٢٠.

(٣) الإسراء: ١٨.

الإنسان عاجلا، إذا استعجل طيبات الآخرة في الدنيا، ما يشاء من الرزق من قليل أو كثير، لمن يريد من عباده، فأمر الرزق يبقى بيد الله تعالى، يتحكّم فيه، ولا يتحكّم فيه الإنسان إذا استعجل هذا الرزق.... ولكنه يحرم من طيبات الآخرة، ويفرط فيها بما استعجل من طيبات الدنيا من غير حلها.

وفي هذا السياق يقول تعالى:

(وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)[١] أي عجّل لنا حصتنا في الدنيا قبل يوم الحساب، ويقول تعالى: **(كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)**[٢]. ويقول تعالى: **(إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً)**[٣].

وعندما نمعن النظر في النصوص الإسلامية نجد أن مسألة التزاحم بين الدنيا والآخرة لا تقع دائماً في مساحة الحرام، فقد يكون هذا التزاحم في مساحة «الحلال» أيضا، وهذه النقطة من رقائق الفكر الإسلامي.

فقد نجد في جملة من النصوص الإسلامية: أن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام والصالحين من عباد الله كانوا يكرهون الافراط في التمتّع بالطيبات، ولعل السبب في ذلك: أن الافراط في التمتّع بالطيّبات يحبّب الدنيا إلى الإنسان، ويزيد من تعلق الإنسان بالدنيا، ولا نشك أن بعض هذا التزاحم بين طيبات الدنيا والآخرة في مساحة الحلال، وليس فقط في مساحة الحرام، وهذا التزاحم من التزاحم التنزيهي وليس بمعنى تحريم ما أخرج الله تعالى لعباده من الزينة ومن طيبات الرزق، فان شأن هذا التزاحم شأن آخر

---

(١) سورة ص: ١٦.

(٢) القيامة: ٢٠.

(٣) الإنسان : ٢٧.

غير الحلال والحرام، وهو كما ذكرنا قبل قليل من رقائق الفكر الإسلامي.

ولنستعرض أولا طائفة من النصوص الإسلامية في هذا المعنى ثم نقوم بتحليلها وتفسيرها ثانياً:

النصوص

يقول عمر بن الخطاب قلت لرسول الله ﷺ: أُدع الله يا رسول الله أن يوسّع على أُمتك، فقد وسّع الله على فارس وروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً ثم قال: «أفي شكٍّ أنت يابن الخطاب. أُولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»[١].

وأُتي رسول الله ﷺ بخبيص (نوع من الحلوى) فأبى أن يأكله: فقيل أتحرّمه؟ فقال: لا، ولكن أكره أن تتوق إليه نفسي ثم تلا: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا)[٢].

وعن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة أُم إبراهيم، وإنه لمضطجع، وإن بعضه على التراب، وتحت رأسه وساده، محشوة ليفاً، فسلمت عليه، ثم جلست: فقلت: يا رسول الله: أنت نبي الله، وصفوته، وخيرته من خلقه، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير، فقال رسول الله ﷺ: «أُولئك قوم عجلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع، وانما أُخّرت لنا طيباتنا»[٣].

---

(١) كنز العمال: ٤٦٦٤.

(٢) نور الثقلين ٥: ١٥. والخبيص: نوع من الحلوى. ورواه المفيد في الامالي عن أمير المؤمنين (ع): ٨٣ وسنن النبي (ص) للطباطبائي: ١٩٧ .

(٣) نور الثقلين ٥: ١٥. وبحار الأنوار ٦٣/ ٣٢٠ (مؤسسة الوفاء) و١٠٩/ ٢٤٠ من نفس الطبعة، والمستدرك للحاكم ٤/ ١٠٤، ومجمع البيان ٩/ ١٤٧ ط ١٤١٥ (الاعلمي)

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل على أهل الصفة، وهم يرقعون ثيابهم بالأَدَم، ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حُلَّة، ويروح في أخرى، ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأُخرى، ويستتر بيته كما تستتر الكعبة؟» قالوا نحن يومئذ خير. قال: بل أنتم اليوم خير»[١].

ورأى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وعليها كساء من أجلة الإبل، وهي تطحن بيدها، وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «يابنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقالت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه، فأنزل الله (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّا لنحبّ الدنيا، وأن لا نؤتاها خير من أن نؤتاها، وما أوتي ابن آدم منها شيئاً إلاّ نقص حظَّه من الآخرة»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «آخر نبي يدخل الجنة سليمان بن داود عليه السلام وذلك لما أُعطي في الدنيا»[٤].

وعن علي عليه السلام: «كلّما فاتك من الدنيا شيءٌ فهو غنيمة»[٥]. أي أنك تغنمه

---

(١) نور الثقلين ٥: ١٧. وتخريج الاحاديث للزيلعي ٣/ ٢٨٤ ط ١٤١٤ (ابن خزيمة)، وجوامع الجامع للطبرسي ٣/ ٣٥٢ ط ١٤٢١ جماعة المدرسين ـ قم.

(٢) نور الثقلين ٥: ٥٩٤. وميزان الحكمة ٣: ٣٢٦ ـ ٣٢٧. والتمحيص للاسكافي ط قم، ومكارم الاخلاق للطبرسي ١١٧، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣/ ١٢٠ ط ١٣٦٧/ النجف.

(٣) بحار الأنوار ٧١: ٨١ وميزان الحكمة ٣: ٣٢٦.

(٤) بحار الأنوار ١٤: ٧٤. والمبسوط للسرخسي ٣٠/ ٢٥٤، ولم ينسبه إلى أمير المؤمنين (ع)، والتمحيص للاسكافي: ٤٩ ط (مدرسة الامام المهدي ـ قم).

(٥) غرر الحكم للآمدي ٢: ١١١. ونهج البلاغة حكمة/ ٢٥١.

وتدّخره لآخرتك.

وعنه عليه السلام: «مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة وسوء العقبى»[١].

وعنه عليه السلام: «من طلب من الدنيا شيئاً فاته من الآخرة أكثر مما طلب»[٢].

وعنه عليه السلام: «ما زاد في الدنيا نقص في الآخرة، وما نقص من الدنيا زاد في الآخرة»[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال علي بن الحسين عليه السلام: «ما عرض لي قط أمران، أحدهما للدنيا، والآخر للآخرة، فآثرت الدنيا إلاّ رأيت ما أكره قبل أن أمسي».

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: عن بني أُمية: «أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة منذ ثمانين سنة وليس يرون شيئاً يكرهونه»[٤].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في شرح هذا المعنى: «واعلموا أن ما نقص من الدنيا، وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح، ومزيد خاسر، ان الذي أُمرتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه[٥]، وما أُحل لكم أكثر مما حُرم عليكم، فذروا ما قلّ لما كثر[٦]، وما ضاق لما اتسع، قد تُكفِل لكم بالرزق،

(١) غرر الحكم ونهج البلاغة، الحكمة: ٢٤٣، ٢: ٢٨٢ و٢: ٣٤٣. وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ص ٤٤١ (منشورات الشريف الرضي ـ قم) وعيون المواعظ للواسطي الليثي: ٤٨٩.

(٢) غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٢١.

(٣) غرر الحكم وميزان الحكمة ٣: ٣٢٦، ٢: ٢٦٨.

(٤) بحار الأنوار ٧٣: ١٢٧. وكتاب الزهد للحسين بن سعيد: ٥١ ط ١٣٩٩/ قم.

(٥) يعني أن الذي سمح لكم به في دين الله اكثر مما نهيتم عنه.

(٦) فاتركوا ما قل من مواضع التحريم والنهي لما كثر من مواضع الحل والسماح والاباحة.

بالرزق، وأُمرتم بالعمل[١]، فلا يكوننّ المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله[٢]، مع أنه والله لقد اعترض الشكّ ودخل اليقين[٣]، حتى كأن الذي ضمن لكم قد فرض عليكم، وكأن الذي قد فرض عليكم قد وضع عنكم[٤] فبادروا العمل، وخافوا بغتة الاجل[٥]، فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق[٦]، ما فات اليوم من الرزق رجي غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته، الرجاء مع الجائي واليأس مع الماضي فـ(اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ)[٧][٨].

دراسة تحليلية للنصوص

هذه طائفة من النصوص الإسلامية، لا سبيل إلى التشكيك فيها، من حيث السند،

---

(١) قد ضمن الله لكم رزقكم (بجهد يسير) وامركم الله بالعمل في العبادة وفي سبيل الله فرضاً من عند الله.

(٢) فلا يكون عندكم العمل لطلب الرزق المضمون أولى وأكثر من العمل المفروض عليكم من جانب الله.

(٣) دخل اليقين يعني أفسد الشك اليقين.

(٤) وبلغ الشك بكم حداً، تتوهمون فيه: أن الذي ضمنه الله لكم من الرزق بجهد يسير قد فرض الله عليكم فيه العمل الكثير، وأن الذي فرضه الله عليكم ان تعملوا به من الواجبات قد وضعها ورفعها عنكم.

(٥) بغتة الاجل يعني مفاجأة الاجل.

(٦) فإن العمر الذي فات لا يعود ولا ترجى عودته، ولكن الذي يفوتكم من الرزق يرجى عودته في المستقبل، فكونوا على ما لا ترجى عودته أحرص منكم على ما ترجى عودته.

(٧) آل عمران: ١٢٠.

(٨) نهج البلاغة، الخطبة: ١١٣. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٣٧٠.

ومن حيث المتن، فهي كثيرة ومستفيضة، ةولا يمكن التشكيك فيها جميعاً، وهي لاتختص بالمحرمات فقط، وانما تعم الحرام والحلال من اللذات، وتوسع مساحة التزاحم بين الدنيا والآخرة، بما يشمل مساحة الحلال أيضاً، والنصوص ظاهرة في ذلك، ولا سبيل إلى تخصيصها بالمساحة المحرّمة من اللذات، ليكون قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)[١] وقوله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٢]. خاصاً بمساحة الطيبات التي أحلّها الله تعالى، وهذه الطائفة من النصوص تخصّ المساحة المحرمة من اللذات ومتع الحياة الدنيا.

فكيف نفهم هذه النصوص إذن؟ وكيف نوفق بين هذه النصوص من جانب والايات التي تلوناها من كتاب الله قبل قليل في الدعوة إلى التمتع بطيبات ما رزق الله تعالى عباده، والانكار على الذين يحرّمون طيبات الله تعالى من جانب آخر؟

نحاول فيما يلي ان شاء الله الاجابة على هذا السؤال ضمن مجموعة من النقاط، أرجو أن نتدرّج معها إلى الاجابة على هذا السؤال:

١ - ليس معنى النصوص التي استعرضنا جملة منها قبل قليل: أن الإسلام قد حظر على المسلمين أن ينتفعوا ويتمتّعوا بطيبات ما رزق الله تعالى عباده، فان حكم الله تعالى فيما خلق لعباده من الزينة والطيبات هو الاباحة والاذن، إلاّ أن ينهى الله تعالى عن ذلك، يقول تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

---

(١) البقرة: ١٧٢.

(٢) الأعراف: ٣٢.

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(١).

وليس معنى هذه الطائفة من النصوص أن يقعد الإنسان عن السعي والحركة على وجه الأرض، فان حكم الله تعالى في ذلك هو قوله تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ)(٢).

ولكن على أن لا يستغرق السعي والتحرك للدنيا كل هم الإنسان وجهده، وأن يكون سعيه للدنيا في طريق حركته إلى الله تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)(٣). فالاصل في حركة الإنسان هو ابتغاء الآخرة ولكن على أن لا ينسى نصيبه من الدنيا.

٢ - ورغم هذا التوضيح الذي لا نشكّ في صحّته فان التعاكس بين الدنيا والآخرة ليس فقط في مساحة الحرام، وانما في مساحة الحلال أيضاً.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحبّ الدنيا وتولاّها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب، وماش بينهما كلّما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعد ضرّتان!»(٤).

وما يتمتّع به الإنسان في هذه الدنيا من متعة طيبة محلّلة لا يعاقبه الله عليها، لانه

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الجمعة: ١٠.

(٣) القصص: ٧٧.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة: ١٠٠. خصائص الائمة للشريف الرضي: ٩٧ ط ١٤٠٦ (مجمع البحوث الاسلامية ـ مشهد) وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ١٤٥ .

لم يحرمها عليه، ولكن ينقص بنسبتها من طيباته في الجنة، فان متع الدنيا تذهب في الأغلب بفرص الإنسان في كسب طيبات الآخرة... وهذا هو السر في التزاحم بين الدنيا والآخرة في المساحة المحللة من الطيبات، وسوف نوضّح هذا المعنى ضمن مجموعة من الأمثلة:

أ - مهما يرزق الله تعالى عباده من عمر فإنه يمكنه من الصيام، والصيام واجب في شهر رمضان، ومندوب في سائر أيام السنة، ومن أعظم المستحبات، وقد روى أبو جعفر الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «قال الله عزّ وجلّ: الصوم لي وأنا أجزي به»[1].

وما يفوت الإنسان من ثواب الصيام كل يوم يفطر به من أيام السنة، لا يعرفه إلاّ الله تعالى.

إذن كل يوم يفطر الإنسان فيه بما رزقه الله تعالى في هذه الدنيا من الطيبات فانه ينقص من طيباته في الجنة ما لايعلمه إلاّ الله، ولا نشك أن هذا الرزق من الرزق الحلال في الدنيا، ولكن يفوّت عليه فرصاً عظيمة لكسب طيبات الآخرة، وهذا مثال من أمثلة التزاحم بين الدنيا والآخرة في مساحة الحلال.

ب - كل ليلة يستسلم الإنسان فيها للنوم يتمتّع من دون شك بمتعة طيبة من متع الحياة الدنيا، فإن النوم من أطيب لذّات الحياة الدنيا، ولكن كلما يستسلم للرقاد فان ذلك يخسره تلك الليلة نافلة الليل، وثواب التهجد آناء الليل.

فإذا قدّر الله تعالى لعبد أن يعيش سبعين سنة فقد مكّنه من كسب هذا الثواب لمدة سبعين سنة، وكل ليلة تفوته فيها صلاة الليل ينقص مما قدر الله تعالى له من

---

(١) بحار الأنوار ٩٦ : ٢٤٩ ـ ٢٥٤ ـ ٢٥٥. والجامع للشرائع ليحيى بن سعيد الحلي: ١٦٢ ط ١٤٠٥ مؤسسة سيد الشهداء (ع).

الطيبات شطراً، حتى إذا أكمل السبعين في هذه الغفلة والضياع نفد كل ما قدر الله تعالى له من الطيّبات «لو كان يدأب هذه الفترة من عمره في عبادة الله تعالى».

ج - إذا رزق الله تعالى عبداً كمية من المال، فقد أتاح له فرصة كبيرة ليكسب طيبات الحياة الآخرة بانفاقها في سبيل الله، فكلما أنفق الإنسان شيئاً من هذا المال على لذاته وشهواته خسر شطراً مما أعد الله تعالى له من الطيبات فيما لو كان ينفق في سبيل الله، فإذا انفق كلما رزقه الله تعالى من مال في شهواته خسر كلما أعد الله تعالى له من طيبات الحياة الآخرة، فيما لو كان ينفقها في مرضاة الله تعالى، ولو كان ذلك كله في غير ما حرم الله تعالى من الذات والشهوات.

وهكذا يولد الإنسان برأس مال كبير من الفرص الكبيرة لكسب طيبات الحياة الآخرة، فإن المال، والعمر، والشباب، والصحة، والذكاء، والموقع الاجتماعي، والعلم، وغير ذلك من مواهب الله تعالى هي رأس المال الذي يمكّن الإنسان من كسب طيبات الآخرة، وكلما يفرّط في شيء من ذلك يخسر شطراً من هذه الطيبات، يقول تعالى: (وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)[1].

وهذه الخسارة التي تشير إليها هذه الآية الكريمة في المواهب التي وهب الله تعالى عباده أولا، وفيما جعل الله تعالى في هذه المواهب لهم من فرص لكسب طيبات الآخرة ثانياً، وكلّما فرّط الإنسان في موهبة من هذه المواهب التي رزقه الله تعالى، أنفقها في لذاته وشهواته، فإنه يخسر في الحقيقة شطراً مما أعد الله تعالى من طيبات الآخرة.

ولأمير المؤمنين عليه السلام كلمة بليغة ورائعة في تصوير هذا المعنى: يقول عليه السلام: «واعلم

---

(١) سورة العصر: ١ ـ ٢.

أن الدنيا دار بليّة، لم يفرغ صاحبها فيها قط ساعة إلاّ كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة»[١]، والفراغ هنا هو أن يفرغ الإنسان عن ذكر الله تعالى وعن العمل في سبيله، فيعطل جوارحه عن العمل في سبيل الله وجوانحه عن ذكر الله.

وهذا الفراغ ولو كان ساعة، وفي غير معصية الله، يعود عليه حسرة يوم القيامة، لأنه عطّل شطراً ممّا وهبه الله من نعمة العمر، والوعي، والقلب عن ذكر الله وطاعته، وفوّت على نفسه من مرضاة الله تعالى وطيّبات رزقه في الآخرة ما لا يستطيع أن يدركه بعد أبداً، فكل ما يناله فيما بعد من الطيّبات لا يجبر هذا الذي فاته من الرزق.

٣ - ومن سنن الله تعالى في خلقه أن حركة نمو الإنسان وكماله، وقربه إلى الله تعالى يتمّ على طريق ذات الشوكة، وفي شظف العيش وقسوة الابتلاء، والبأساء والضراء، يقول تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ)[٢].

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالَّثمَرَاتِ. .)[٣].

(. . فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)[٤].

وهذه الآية الأخيرة تفسّر لنا طبيعة العلاقة بين حركة الإنسان التكاملية إلى الله

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٩. وبحار الأنوار ٣٣/ ٥١١ (مؤسسة الوفاء) وشرح ابن أبي الحديد ١٧/ ١٤٥ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٢) العنكبوت: ٢.

(٣) البقرة: ١٥٥.

(٤) البقرة: ٤٢.

من جهة، والابتلاء والخوف والجوع والنقص من جهة أُخرى، فإن التضرّع إلى الله من أفضل وسائل التقرب إلى الله تعالى، ولا يتحقّق التضرّع في حياة الإنسان إلاّ من خلال النقص في الأنفس والأموال والجوع والخوف والبأساء والضرّاء.

إذن فكلّما يتنعم الإنسان بطيّبات الدنيا وبالعافية في جسمه وأهله ورزقه فانّه يخسر بمقدارها التضرّع إلى الله، وبالتالي يخسر الحركة والتقرب إلى الله تعالى، وطيّبات الحياة الآخرة.

وهذا الشظف والشدة في المعيشة والحياة قد يُعدّها الله تعالى للصالحين من عباده إعداداً ليتضرّعوا إليه، وقد يختاره أولياء الله الصالحون لأنفسهم اختياراً.

٤ - وقد يكون سبب هذا العزوف عن طيّبات الحياة الدنيا أن الإنسان يخشى على نفسه أن تستدرجه طيبات الدنيا إلى حبّ الدنيا، فيبعده حبّ الدنيا عن الله تعالى، وعن طيّبات الحياة الآخرة، فان العلاقة بين التمتّع بطيّبات الحياة الدنيا وحب الدنيا علاقة متبادلة «جدليّة»، فالتمتّع بطيّبات الحياة الدنيا يحبّب الدنيا إلى نفس الإنسان، ويشدّه إليها، وبالعكس أيضاً، يدعو حبّ الدنيا الإنسان إلى استعجال طيّبات الآخرة في الدنيا، والاستغراق في طيّبات الدنيا.

وعليه فلكي لا يقع الإنسان فريسة لحب الدنيا من حيث لا يعلم، فان عليه أن يحذر من أن تستدرجه طيّباتها إلى هذه الغاية.

٥ - وقد نلتقي في النصوص الإسلامية بما لا ينسجم مع هذا التصوّر الذي شرحناه، كالنصّ الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام في العهد الذي عهده إلى محمد بن أبي بكر عند ما نصّبه والياً على مصر، يقول الإمام عليه السلام:

«واعلموا - عباد الله - أن المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في أُخراهم، سكنوا

الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أُكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبّرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ، والمتجر الرابح، أصابوا لذّة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا تُردّ لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذّة»(١).

إنّ هذا النص بصدد المقارنة بين المتّقين وغير المتّقين، وهو سياق آخر غير سياق النصوص المتقدمة، فإن النصوص المتقدمة كانت في موضع المقارنة بين درجات المتّقين وليس في موضع المقارنة بين المتّقين وغيرهم، وهما أمران مختلفان، وحكمهما يختلف.

الرؤية النافذة إلى الدنيا

وإذا تجاوزنا الرؤية السطحية والساذجة إلى الدنيا نلتقي بنوع آخر من الرؤية، يختلف عنها، بالعمق، والجد، والنفوذ، وهو «الرؤية النافذة» وهذه الرؤية تتجاوز السطح الظاهر من الحياة الدنيا إلى باطن الدنيا وعمقها، وإذا كانت الرؤية السطحية «الضحلة» إلى الدنيا تبعث «حبّ الدنيا» والاغترار بها في نفس الإنسان، فإن الرؤية النافذة والعميقة إلى الدنيا تمنح الإنسان «الزهد» في الدنيا والعزوف عنها، ذلك أن الرؤية النافذة تنفذ إلى ما وراء ظاهر الحياة الدنيا، وتكشف عن زوال متاع الدنيا وتقلّبها، وما يؤول إليه أمر الإنسان في الدنيا، فيزهد الإنسان فيها.

وقد ورد في النصوص الإسلامية تأكيد كثير على النظر إلى الدنيا من خلال هذه

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٢٧. وبحار الأنوار للمجلسي ٣٣/ ٥٨١ (دار الوفاء)، ونهج السعادة للشيخ المحمودي ٤/ ١١٠، وشرح ابن أبي الحديد ١٥/ ١٦٣ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

الرؤية، والتنبيه إلى الموت، والأمر بذكر الموت، والنهي عن طول الأمل في الدنيا، والغفلة عن الموت.

و«الموت» هو الوجه الباطن لهذه الدنيا، والذي يحاول الإنسان أن يفر منه، ويتناساه، وقد ورد في النصوص الإسلامية: «ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من الموت» فان الموت من اليقين الذي لا سبيل للشكّ فيه، ومع ذلك يحاول الإنسان أن يفرّ منه ويتناساه.

وقد ورد في النصوص الإسلامية التأكيد على ذكر الموت، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «أكثروا ذكر الموت، فإنّه لمْ يكثر الإنسان ذكر الموت إلاّ زهد في الدنيا»(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من صوّر الموتَ بين عينيه هان أمر الدنيا عليه»(٢).

وعن الإمام علي عليه السلام: «أحقّ الناس بالزهادة من عرف نقص الدنيا»(٣).

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ العقلاء زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة، لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة، وأنّ الآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة، طلبته الدنيا، حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة، فيأتيه الموت(٤)،

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٦٤. الدعوات للقطب الراوندي: ٢٢٦ ط مدرسة الامام المهدي ـ قم، ورواه الشهيد الاول في الذكرى عن الامام الباقر عليه السلام ١/ ٢٨٩، مؤسسة آل البيت ـ قم.

(٢) غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٠١. ح/ ٨٦٠٤، ٢٢٠٩ .

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ١٩٩.

(٤) يعني ان الدنيا تطلب رزق ابناءها الذي قدره الله تعالى لهم الى اجالهم، ولكن ابناءها يسعون الى المزيد من هذا الرزق، ويطلبونه بحرص وتهالك عليه، ليكسبوا المزيد منه، ولكنهم لا يجدون ما يسعون اليه من المزيد.

فالدنيا اذن طالبة وهي في الوقت نفسه مطلوبة، والاخرة طالبة لانها تطلب الناس عند نهاية اجالهم، اذا استوفوا رزقهم الذي قدره الله تعالى لهم. قال تعالى: (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ

←

أوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً) ومطلوبة في نفس الوقت لان الصالحين من عباد الله يطلبون الاخرة باعمالهم.

ولابد من توضيح لمعنى الرزق المقدر المضمون المكفول الذي يرزق الله تعالى، ولا يزيده سعي الانسان اليه مهما تهالك عليه وطلبه الانسان وسوف نلخص هذه المسألة من مجموعة نقاط كما يأتي ان شاء الله .

١ـ الرزق من عند الله، وهو الذي يرزق عباده خاصة، ونسبة الرزق الى الله خاصة في القرآن ذات دلالة عميقة على هذا المعنى:

(وكلوا مما رزقناكم)، (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ) (أنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم) (نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم) (نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ) وعشرات الايات بهذا المعنى وهذا السياق .

٢ـ والله تعالى ضامن متكفل لرزق عباده . (وما من دابة الا على الله رزقها) هود/٦٠.

٣ ـ ورزق العباد مقدر من عند الله تعالى خاصة بسطاً وتقديراً ولا يزيده جهد العبد وحرصه وإلحاحه في طلب الرزق عما قدر الله له من الرزق.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) سبأ/٣٦.

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) الزمر / ٥٢.

(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) الاسراء /٣٠ .

وقد جاء في الحديث القدسي الذي يرويه ثقاة الحفاظ عن رسول الله ﷺ عن الله تعالى: (لا يؤثر عبد هواه على هواي الا شتت امره، ولبست عليه دنياه، وشغلت قلبه بها، ولم أؤته منه الا ما قدرت له) بحار الأنوار ٧٨/٦٧.

عن الامام الصادق عليه السلام: «كان امير المؤمنين عليه السلام يقول: اعلموا علما يقيناً ان الله تعالى لم يجعل للعبد وان اشتد جهده، وعظمت حيلته، وكبرت مكايده، ان يسبق ما سمي له في الذكر الحكم». بحار الأنوار ٣٣/١٠٣ ، ويقول عليه السلام: «اعلموا ان عبدا وان ضعفت حيلته، ووهنت مكيدته، لن ينقص مما قدر الله له، وان قوي عبد في شدة الحيلة وقوة المكيدة انه لن يزداد على ما قدر الله). بحار الأنوار ٧٧/ ٦٨ ، والنصوص الاسلامية بهذا المعنى كثيرة.

٤ ـ لذلك على الانسان ان يُجمل في طلب الرزق لا يقعد عن الرزق، ولا يحرص عليه، ويتحمل في سبيله من يقعده عن سائر ما يطلبه الله منه.

ويفسد عليه دنياه وآخرته»[1].

وروي أن الإمام الكاظم عليه السلام حضر جنازة فقال: «إنّ شيئاً هذا أوّله لحقيق أن

←

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (الا وان الروح الامين نفث في روعي: انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله واجملوا في الطلب، ولا يحمل احدكم استبطاء شيء من الرزق يطلبه بغير حله، فانه لا يدرك ما عند الله الا بطاعته» . الكافي ٧٤/٢.

٥ ـ ولكن ليس معنى ذلك ان يقعد الانسان عن الرزق، ولذلك فقد ورد في القران التأكيد على السعي في طلب الرزق (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) الجمعة /١٠.

(وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) النحل/١٤.

(وجعلنا اية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) الاسراء/١٢.

(جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) القصص/٧٣.

وعن امير المؤمنين عليه السلام: «الدنيا دول فاطلب حظك باجمل الطلب» بحار الأنوار ٢٦/١٠٣.

٦ ـ والتقدير الالهي في الرزق من التقديرات الالهية التعليقية، بمعنى ان من يسعى الى رزقه يرزقه الله ما قدر له من الرزق ومن لا يسعى الى الرزق يحرم الرزق المقدر.

وهذا هو معنى القدر التعليقي والقدر المعلق. والقدر المعلق كالقضاء المعلق، فإن المرض من القضاء المعلق، فاذا حفظ الانسان نفسه من المرض، يسلم من هذا القضاء، ومن الآجال الاجآل المعلقة، فاذا اخذ الانسان بأسباب الاحتياط والأمن سلم من الاجل المعلق... كذلك التقدير الالهي في الرزق من التقدير المعلق.

وقد ورد هذا المعنى عن امير المؤمنين عليه السلام: « اطلبوا الرزق فانه مضمون لطالبه». الارشاد ٣٠٣/١.

٧ـ ومعنى ذلك ان ضمان الرزق عند الله ضمان معلق على الطلب.

ولذلك فعلى الانسان السعي الى الرزق (أولاً) ولكن يجمل في الطلب (ثانياً) ، ويطلب رزقه من دون حرص وجشع، ومن دون ان يستهلك فيه كل جهده ووقته وفرضه التي يطالبه الله فيها من فروض وواجبات، وخير ما نعرف من نصوص في ذلك ما روي عن الامام الحسن عليه السلام: «لا تجاهد الطلب جهاد الغالب، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم، فان ابتغاء الفضل من السنة، والاجمال في الطلب من العفة، وليست العفة بدافعة رزقا، ولا الحرص بجالب فضلاً». بحار الأنوار ٢٦/١٠٣.

(١) بحار الأنوار ٧٨: ٣٠١. والكافي ١/ ١٨، ومستدرك الوسائل ١٢/ ٤٨.

يُخاف آخره»[١].

وتجدون في هذه النصوص العلاقة الواضحة بين «الزهد» و«ذكر الموت»، وبتعبير آخر بين «الرؤية» و«السلوك»، فإن ذكر الموت نحو، من الرؤية كما قلنا، والزهد نحو، من السلوك.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في توجيه «الرؤية» وتثقيف الناس بالرؤية الصحيحة إلى الدنيا، وتمكينهم منها:

«كونوا عن الدنيا نزّاها، وإلى الآخرة ولأها... ولا تشيموا بارقها، ولا تسمعوا ناطقَها، ولا تجيبوا ناعقها، ولا تستضيئوا بإشراقها، ولا تُفْتَنُوا بأعلاقها، فإن بَرْقَها خالب، ونُطْقَها كاذب، وأموالَها محروبة، وأعلاقها مسلوبة»[٢].

وعنه عليه السلام أيضاً: «وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم»[٣].

وإخراج القلوب من الدنيا هو قطع التعلّق بها، وهو «الموت الإرادي» في مقابل خروج الأجساد عن الدنيا الذي هو «الموت القهري» اللا إرادي، والإمام عليه السلام يأمرنا أن نستبق الموت القهري بالموت الإرادي، وقطع التعلق بالدنيا وهو «الزهد»، وهذا هو معنى الحديث المعروف: (موتوا قبل أن تموتوا، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)[٤]، ولا بدّ أن نتحدّث عن «الزهد» حتى نستطيع أن نفهم هذه الرؤية النافذة إلى باطن الحياة الدنيا وعلاقتها بالزهد.

---

(١) . نوار ٧٨: ٣٢٠. ومعاني الاخبار لشيخ الصدوق: ٣٤٣، وتحف العقول: ٤٠٨.

نة، الخطبة: ١٩١.

الخطبة: ١٩٤.

٦٩، ص ٥٩، وتحفة الاحوذي للمباركفوري ٦ / ٥١٥، ويروي المجلس في الكلمة فقط.

الزهــد

«الزهد» حالة تقابل «حبّ الدنيا»، وهما حالتان مـن السلوك تنبعـان مـن رؤيتـين مختلفتـين، فـان «حـبّ الـدنيا» حالـة سـلوكية نابعـة مـن رؤيـة ظـاهر الحيـاة الـدنيا، و«الزهد» حالة معاكسة لحبّ الدنيا ينبع من الرؤية النافذة إلـى بـاطن الـدنيا و«حـبّ الدنيا» هو «التعلّق بالدنيا»، وفي مقابله «الزهد» وهو «التحرر مـن الـدنيا»، ولا بـدّ مـن توضيح وشرح لهذا المعنى.

أقول: إنّ «حبّ الدنيا» يتبلور في معنيين اثنين: «الفرح» و«الحزن». الفرح بما يناله الإنسان من طيّبات الدنيا، و«هذا هو الوجه الإيجابي لحب الدنيا»، والحـزن علـى مـا فقد من لذّات الدنيا وطيّباتها ولما أصابه من ابتلاء في نفسه وأهله ورزقه.

ولمّا كان «الزهد» في مقابل «حبّ الدنيا»، فان الزهد في الحقيقة هو التحـرّر مـن الفرح بما يناله الإنسان من الدنيا، والتحرّر من الحزن عما فاته من الدنيا.

يقول تعالى: (لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ)[1].

(لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)[2].

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الزهد كلّـه فـي كلمتـين مـن القـرآن، قـال الله تعالى: (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ) فمن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بـالآتي فهو الزاهد»[3].

---

(١) آل عمران: ١٥٣.

(٢) الحديد: ٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٧٨: ٧٠ وورد بنفس المضمون والمعنـى عـن الإمـام الصـادق عليه السلام بحـار الأنـوار ٧٨: ١٩٣.

وعن علي عليه السلام: «الزهد كلمة بين كلمتين من القرآن قال الله: (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا) فمن لم يأسَ على الماضي، ولم يفرح بالاتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه»(١).

وعن علي عليه السلام: «من أصبح على الدنيا حزيناً، فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً، ومن لهج قلبه بحبّ الدنيا التاط قلبه منها بثلاث: هَم لا يُغِبُّه، وحرص لا يتركه، وأمل لا يدركه»(٢).

وهو نحو من التوجيه للتحرّر من الحزن والفرح، فإن «الحزن» على الدنيا نحو من عدم الرضا بقضاء الله، فلا يفوت الإنسان شيء من الدنيا إلاّ بقضاء من الله وقدره، و«حبّ الدنيا» يحمّل الإنسان ثلاث حالات: همّاً، وحرصاً، وأملا... وكذلك يرهق الإنسان ويعذبه ويقلقه.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضاً أنه قال: «أيّها الناس انما (الناس في) الدنيا ثلاثة: زاهد، وراغب، وصابر، فأمّا الزاهد فلا يفرح بشيء من الدنيا أتاه، ولا يحزن على شيء منها فاته، وأمّا الصابر فيتمنّاها بقلبه، فإنْ أدرك منها شيئاً صرف عنها نفسه، لما يعلم من سوء عاقبتها وأمّا الراغب فلا يبالي من حِلٍّ أصابها أم من حرام»(٣).

وهو من أروع النصوص الإسلامية في تحديد معنى الزهد، وتصنيف الناس، وموقع الزاهدين في هذا التصنيف، فالناس ثلاثة: أمّا زاهد، أو صابر، أو راغب.

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٣٢. و٧٠/٧٨، ومرآة العقول ٢٧١/٨.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة: ٢٢٨ ط / الصالح. وتحف العقول للحراني: ٢١٧، وبحار الأنوار ٦٩/ ١٩٦ (دار الوفاء).

(٣) بحار الأنوار ١: ١٢٠ - ١٢١. والتوحيد للصدوق: ٣٠٧ ط جماعة المدرسين ـ قم، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤٣٣ (الشريف الرضي ـ قم) ومستدرك الوسائل ١٢/ ٤٦.

الزاهد هو المتحرّر من الدنيا وأفراحها وأحزانها.

والصابر لم يتحرّر بعد، ولكنّه يكافح، ليتحرر من حبّ الدنيا، وأفراحها، وأحزانها.

والراغب هو المستسلم للدنيا، والمنقاد لها، ولأفراحها، وأحزانها.

والطائفة الأولى والثالثة متقابلتان تماماً، من حيث التحرّر من الدنيا، والانعتاق من قيودها، والاستسلام، والانقياد لها.

ويدعو أمير المؤمنين علي عليه السلام الناس إلى أن ينقلوا أفراحهم وأحزانهم من الدنيا إلى الآخرة، وهو من أفضل التوجيه للفرح والحزن، فان الآخرة أولى بأفراحنا عندما ننالها بطاعة الله، وأولى بحزننا عندما تفوتنا طاعته وذكره تعالى.

يقول عليه السلام فيما يكتبه إلى عبد الله بن عباس: **«أما بعد، فإنّ العبد ليفرح بالشي الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذّة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل وإحياء حق، وليكن سرورك بما قدّمت، وأسفك على ما خلّفت، وهمّك فيما بعد الموت»**[1].

الزهد مصدر كل خير:

كما أن «حبّ الدنيا» مصدر كل شر في حياة الإنسان فإنّ «الزهد» مصدر كل خير في حياة الإنسان، وذلك أن حبّ الدنيا يجعل الإنسان في أسر الدنيا والهوى وأسارته، وحب الدنيا والتعلق بها مصدر كل شر وسقوط في حياة الإنسان، والزهد

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٦. وبحار الأنوار ٣٣/ ٤٩٢ (دار الوفاء ـ لبنان).

تحرّر وانعتاق من أسر الهوى والدنيا، والتحرر والانعتاق من أسرهما مصدر كل خير في حياة الإنسان.

وقد وردت في النصوص الإسلامية الاشارة إلى هذا المعنى بصيغ مختلفة، وبصورة متكرّرة، وإليك مجموعة من النصوص الإسلامية بهذا المضمون:

عن الصادق عليه السلام: «جُعل الخيرُ كلّه في بيت وجُعل مفتاحُه الزهد في الدنيا»[١].

وعن علي عليه السلام: «الزهد أصل الدين»[٢].

وعنه عليه السلام: «الزهد أساس اليقين»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «الزهد مفتاح باب الآخرة، والبراءة من النار، وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسّف على فوتها ولا إعجاب في تركها، ولا انتظار فرج منها، ولا طلب محمدة عليها، ولا عوض منها، بل ترى فواتها راحة، وكونها آفة، وتكون أبداً هارباً من الآفة، معتصماً بالراحة»[٤].

الآثار النفسية والسلوكية للزهد:

وللزهد آثار ونتائج كبيرة في حياة الإنسان في نفسه وسلوكه منها:

١ - قصر الأمل:

فإن الزهد ينتج «قصر الأمل» في الحياة الدنيا، كما كان حبّ الدنيا في الاتجاه

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٤٩. وأصول الكافي ٣/ ١٢٨ (الاسلامية ـ طهران) ووسائل الشيعة ١١/ ٣١٢.

(٢) غرر الحكم للآمدي ١: ٢٩. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٣٥.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ٣٠. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٢٥.

(٤) بحار الأنوار ٧٠: ٣١٥. ومستدرك وسائل الشيعة ١٢/ ٤٥٨، ومصباح الشريعة: ١٣٧ ط ١٤٠٠ (الاعلمي ـ بيروت)، وجامع السعادات ٢/ ٤٨ (النعمان ـ النجف).

المقابل ينتج «طول الأمل».

والإنسان إذا خفّت علاقته بالدنيا وتحرّر منها، لا يطول أمله فيها بطبيعة الحال، فيعيش في الدنيا ويتمتّع بمتاعها ولذّاتها، ولكن لا يفارقه ذكر الموت وانقطاع لذّات الدنيا فجأة.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من يرغب في الدنيا فطال فيها أمله، أعمى الله قلبه على قدر رغبته فيها، ومن زهد فيها فقصُر فيها أمله، أعطاه الله علماً بغير تعلّم، وهدىً بغير هداية، وأذهب عنه العماء، وجعله بصيراً»[١].

ومن هذه الرواية نعرف أنّ: الزهد يؤدّي إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يؤدي إلى البصيرة والهدى، والرغبة في الدنيا تؤدي إلى «طول الأمل» وطول الأمل يؤدي إلى العمى، فيا ترى ما هو سرٌّ هذه العلاقة بين قصر الأمل والبصيرة؟

إنّ طول الأمل يشدّ الإنسان بالدنيا شدّاً وثيقاً، ويحبّب الدنيا إلى نفسه حبّاً جمّاً، وحبُّ الدنيا يحجب الإنسان عن الله تعالى، فإذا قَصُر أملُهُ بالدنيا ارتفع الحجاب الذي يحجبه عن الله تعالى، وانكشف الغطاء عن قلبه وبصيرته.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «الزهد في الدنيا قصر الأمل، وشكر كل نعمة، والورع عن كل ما حرّم الله»[٢].

وعن علي عليه السلام: «الزهد تقصير الآمال، وإخلاص الأعمال»[٣].

وعنه عليه السلام أيضاً: «أيها الناس، الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورع عند

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ٢٦٣. وتحف العقول للحراني: ٦٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٧: ١٦٦ وبمضمونها رواية اخرى عن امير المؤمنين عليه السلام رواها في ٧٨: ٥٩ من البحار. والكافي ٥/ ٧١ (الاسلامية ـ طهران)، والخصال للشيخ الصدوق: ١٤.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ٩٣.

المحارم، فإنْ عزب ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة»[١].

٢ - التحرّر والانعتاق من الانفعالات الدنيوية:

التحرّر من الفرح بما يناله الإنسان من الدنيا والحزن على ما يفوته من الدنيا.

يقول علي عليه السلام: **«فمن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»**[٢].

ولأمير المؤمنين عليه السلام كلام رائع، شأن كل كلامه عليه السلام في وصف نتائج الزهد في حياة الإنسان، أنقله بالنص من «نهج البلاغة»: يقول عليه السلام: **«وأسْمِعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم، ان الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتدّ حزنهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا. قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملكَ بكم من الآخرة، والعاجلة أذهبَ بكم من الآجلة، وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرّق بينكم إلاّ خُبث السرائر وسوء الضمائر. فلا توازرون، ولا تناصحون، ولا تباذلون، ولا توادّون؟! ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم، حتى يتبيّن ذلك في وجوهكم وقلة صبركم عما زوي منها عنكم؟ كأنها دار مقامكم، وكأن متاعها باق عليكم!! وما يمنع**

---

(١) نهج البلاغة الخطبة: ٨١

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٣٢٠ ونهج البلاغة، الحكمة: ٤٣٩. وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤٢٤ ط (الشريف الرضي ـ قم) ومستدرك الوسائل ١٢/ ٤٦، ومشكاة الأنوار للطبرسي: ٢٠٨.

أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلاّ مخافة أن يستقبله بمثله، قد تصافيتم على رفض الآجل، وحبّ العاجل، وصار دين أحدكم لعقةً على لسانه، صنيع من قد فرغ من عمله، وأحرز رضا سيدّه»[١].

٣ - نفي الركون إلى الدنيا:

من آثار «الزهد» في نفس الإنسان نفي الركون إلى الحياة الدنيا، فان نفس الإنسان - إذا أحبّت الدنيا وتعلّقت بها - تميل إلى الركون إلى الدنيا وإلى اعتبارها مقراً ومقاماً دائماً له، وإذا زهد الإنسان في الدنيا، وأخرج حبّ الدنيا من قلبه، وانتزع نفسه منها ولم يركن إليها، كانت الدنيا له ممراً وقنطرة إلى الآخرة.

والناس يرون الدنيا على نحوين اثنين: فمنهم من يرى الدنيا دار مقام، فيركن إليها، ومنهم من يرى الدنيا ممرّاً وجسراً للعبور منها إلى الآخرة فلا يركن إليها، وكل يعيش في الدنيا ويعمّرها، ويتمتّع بما آتاه الله تعالى فيها، ولكنّ الأوّل منهما تركن إليها نفسه ويتّخذها مقراً ومقاماً، فينتزعه الموت منها انتزاعاً قهرياً، والثاني منهما يتّخذها جسراً وممرّاً، ولا تركن إليها نفسه، ولا تشقّ عليه مفارقتها، عندما يأتيه الموت.

وقد ورد في النصوص الإسلامية تمثيلات رائعة، تصوّر حالة الإنسان في الدنيا وفترة مكث الإنسان فيها، وأنها كما يلجأ الراكب إلى ظلّ شجرة في الطريق عن حرّ الشمس ساعة أو بعضَ ساعة، ليستريح ثم يتركها ويذهب لشأنه، كذلك مكث الإنسان في الدنيا.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة: ١١٢. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي ص ١٦٦، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/ ٢٤٩، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

فهل تصلح الدنيا أن يتّخذها الإنسان مقراً ومقاما، ويركن إليها؟

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما لي وللدنيا، انما مَثَلي كمثل راكب مرّ للقيلولة في ظلّ شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»(١).

وعن علي عليه السلام في وصية لابنه الحسن عليه السلام: «... يابنيّ إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها، وزوالها، وانتقالها، وأنبأتك عن الآخرة وما أُعدّ لاهلها فيها، وضربت لك فيهما الأمثال، لتعتبر بها، وتحذو عليها، انما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم سَفْرٍ(٢) نبا بهم منزل جديب فأمّوا منزلا خصيباً، وجناباً مريعاً، فاحتملوا وعثاء الطريق، وفراق الصديق، وخشونة السفر... ومَثَل من اغترّ بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم إلى منزل جذيب، فليس شيء أكره اليهم ولا أفضح عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه... »(٣).

ودخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو على حصيرة قد أثّرت في جنبه فقال: يا نبيّ الله، لو اتّخذت فراشاً أوثر منه؟ فقال صلى الله عليه وآله: «مالي وللدنيا، ما مَثَلي ومثلَ الدنيا إلاّ كراكب سار في يوم صائف فاستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها»(٤).

وعن علي عليه السلام: «إنّ الدنيا ليست بدار قرار ولا محلّ إقامة، إنّما أنتم فيها كركب عرشوا وارتاحوا، ثم استقلّوا فغدوا وراحوا، دخلوها خفافاً،

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ١١٩.

(٢) سَفْر بفتح السين وسكون الفاء بمعنى قوم مسافرين.

(٣) نهج البلاغة، في الكتب: ٣١. من وصية لولده الحسن عليه السلام، وعيون الحكم للواسطي الليثي: ١٧٩، كشف المحجة لثمرة المهجة للسيد ابن طاووس: ١٦٢ ط ١٣٧٠ الحيدرية ـ النجف.

(٤) بحار الأنوار ٧٣: ١٢٣. وتاج العروس للزبيدي ٧/ ٥٨٣ ط ١٤١٤ دار الفكر.

وارتحلوا عنها ثقالا، فلم يجدوا عنها نزوعاً، ولا إلى ما رتكوا بها رجوعاً»[١].

وقيل للنبي ﷺ: كيف يكون الرجل في الدنيا؟ قال: «كما تمرّ القافلة، قيل: فكم القرار فيها؟ قال: كقدر المتخلّف عن القافلة، قيل: فكم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال: غمضة عين، قال الله عزّ وجلّ: (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِن نَهَار)»[٢].

عن علي عليه السلام: «الدنيا ظلّ الغمام، وحلم المنام»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «إنّ الدنيا عند العلماء مثل الظل»[٤].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلاّ فيها[٥]، ولا ينجى بشيء كان لها[٦]، أُبتلي الناس فيها فتنة فما أخذوهُ منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه[٧]، وما أخذوه منها لغيرها، قدموا عليه[٨] وأقاموا فيه، فانها عند ذوي

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ١٨.

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ١٢٢. وميزان الحكمة ٢/ ٩١٧.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ١٠٢.

(٤) بحار الأنوار ٧٣: ١٢٦. وكتاب الزهد للحسين بن سعيد الكوفي ٥٠ ط ١٢٩٩ ـ قم.

(٥) لان السلامة من أخطار الدنيا واعراضها لا يكون في الدنيا بالعلم والعمل الصالح، وظرف العلم والعمل الصالح هو الدنيا.

(٦) ولا ينجي بشيء كان لها، لان كلما يكون للدنيا ومن اجلها فهو لذة عابرة، لا ينجو بها الإنسان من مزالق الدنيا واخطارها.

(٧) (فما اخذوه منها لها) أي من الدنيا للدنيا كان متاعاً زائلا يخرجون منها لا محالة بالموت ويحاسبون عليه.

(٨) وأما ما اخذوه منها للآخرة، فسيقدمون عليه يوم القيامة، ويقيمون فيه.

ذوي العقول كفيء الظلّ بينا تراه سابغاً حتى قلص، وزائداً حتى نقص»[١].

الدنيا قنطرة:

وبهذه الرؤية التي يسلّح الإسلام بها المسلم، يجد الإنسان المسلم الدنيا جسراً، يمرّ عليه، وليست داراً يستقرّ فيها، وهذه رؤية متميزة إلى الدنيا تستتبع حالة متميّزة «هي حالة عدم الركون» وتستتبع سلوكاً معيناً في الدنيا.

عن المسيح عليه السلام: «إنما الدنيا قنطرة»[٢].

وعن علي عليه السلام: «أيها الناس انّما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم»[٣].

وعن علي عليه السلام: «الدنيا دار ممرّ ولا دار مقرّ، والناس فيها رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها»[٤].

العلاقة المتبادلة بين الأسباب والنتائج:

من روائع الفكر الإسلامي كشف العلاقة المتبادلة بين الأسباب والنتائج في المسائل الانسانية، فقد تكون العلاقة السببية تتردد بين طرفي العلاقة وهذه هي العلاقة التبادليّة (الجدلية)، وكل منهما يؤثّر في الطرف الآخر تأثيراً إيجابياً، ويطلق عليها في المنطق عنوان (الدور المعي) وأمثلة ذلك كثيرة في المسائل الإنسانية. ومن أمثلته العلاقة بين الزهد والبصيرة، فكما أن البصيرة تؤدّي إلى «الزهد» كذلك

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٦٣.

(٢) بحار الأنوار ١٤: ٣١٩.

(٣) نهج البلاغة: ١٩٤.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٢٩.

«الزهد» يؤدّي إلى البصيرة[١].

وفيما يلي نذكر مجموعتين من النصوص الإسلامية تخصّ كل مجموعة منهما إحدى هاتين المعادلتين المتبادلتين والمتقابلتين.

في علاقة الزهد بالبصيرة:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالى:

(أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَبِّهِ)[٢]. فقال: «إن النور إذاوقع في القلب انفسح له وانشرح» قالوا يا رسول الله: فهل لذلك علامة يعرف بها؟ قال: «التجافي من دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[٣]. وهو إشارة للعلاقة السببية بين البصيرة والزهد.

وعن علي عليه السلام: «أحقّ الناس بالزهادة، من عرف نقص الدنيا»[٤].

وعنه عليه السلام أيضاً: «من صوّر الموت بين عينيه، هان أمر الدنيا عليه»[٥].

وعنه عليه السلام أيضاً: «زهد المرء فيما يفنى، على قدر يقينه فيما يبقى»[٦].

والروايات الثلاثة تشير كذلك إلى العلاقة السببية بين (المعرفة) و(اليقين) من

---

(١) وقد لا يكون على نحو (الدور المعي)، وإنما يكون على نحو السببية التصاعدية، بأن تؤدي البصيرة إلى درجة من الزهد، ثم يؤدي الزهد إلى درجة أعلى من البصيرة، وتؤدي البصيرة إلى درجة أعلى من الزهد وهكذا في تسلسل تصاعدي، وهو معنى رقيق ودقيق في الثقافة الإسلامية.

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) بحار الأنوار ٧٣: ١٢٢. ومشكاة الأنوار للطبرسي ٤٦٧ ط ١٤١٨ دار الحديث ـ قم، والتفسير الاصفى للفيض الكاشاني/ ١٨٠٣ ط ١٤٢٠ مكتب الاعلام الاسلامي.

(٤) غرر الحكم للآمدي.

(٥) غرر الحكم للآمدي.

(٦) بحار الأنوار ٧٠: ٣١٩. غرر الحكم: ١١٢٠ و٢٩٢٢ .

جانب، والزهد من جانب آخر، وهو ما ذكرناه من علاقة البصيرة بالزهد.

وفي علاقة البصيرة بالزهد:

نقرأ عن رسول الله ﷺ : «يا أبا ذر: ما زهد عبد في الدنيا، إلاّ أنبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، ويبصّره عيوب الدنيا وداءها ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[1].

وعن رسول الله ﷺ: «من يرغب في الدنيا فطال فيها أمله، أعمى الله قلبه على قدر رغبته فيها، ومن زهد فيها فقصُر أمله أعطاه الله علماً بغير تعلّم، وهدىً بغير هداية، وأذهب عنه العماء وجعله بصيراً. ألا أنه سيكون بعدي أقوام لا يستقيم لهم الملك إلاّ بالقتل والتجبّر، ولا يستقيم لهم الغنى إلا بالبخل، ولا تستقيم لهم المحبة في الناس إلاّ باتباع الهوى والتسيير في الدين، ألا فمن أدرك فصبر على الفقر، وهو يقدر على الغنى، وصبر على الذل وهو يقدر على الغزّ، وصبر على البغضاء في الناس وهو يقدر على المحبة، لا يريد بذلك إلاّ وجه الله والدار الآخرة أعطاه الله ثواب خمسين صديقاً».[2]

وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «هل منكم من يريد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلّم، وهدياً بغير هداية؟ هل منكم من يريد أن يذهب عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا أنه من زهد في الدنيا، وقصر أمله فيها، أعطاه الله علماً بغير تعلّم، وهدياً بغير هداية. ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلاّ بالقتل والتجبّر ولا الغنى

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ٨٠، ومكارم الأخلاق للطبرسي: ٤٦٣ ط ١٣٩٢ الشريف الرضي، وجامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي ١٤/ ٣٩.

(٢) بحار الأنوار ٧٧: ٢٦٣. وتحف العقول للحراني: ٦٠ ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم، وبحار الأنوار ٧٧ / ١٦٣ وكنز العمال ٣/ ٢٠٩.

إلاّ بالبخل. .الخ»[١].

وعن رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا رأيت أخاك قد زهد في الدنيا فاستمع منه، فانه يُلقّى الحكمة»[٢].

وهذه الروايات تشير إلى العلاقة السببية بين الزهد والبصيرة، بخلاف الروايات السابقة.

وهكذا يتبادل البصيرة والزهد، فيؤدّي الزهد إلى البصيرة، وتؤدي البصيرة إلى الزهد، وكذلك يتبادل «الزهد» و«قصر الأمل» في الدنيا فيؤدّي الزهد إلى قصر الأمل ويؤدي قصر الأمل إلى الزهد.

وفي علاقة«قصر الأمل» بـ«الزهد» روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الزهد يخلق الابدان، ويحدد الامال، ويقرب المنية، ويباعد الامنية، من ظفر به نصب، ومن فاته تعب»[٣].

وبالعكس في علاقة الزهد بقصر الأمل روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «استجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل»[٤]، وكشف العلاقة المتبادلة بين هذه العناصر المتقابلة من روائع وخصائص الفكر الإسلامي.

ومن خصائص العلاقة المتبادلة هو: الحركة الصاعدة للإنسان بين هذين القطبين المتبادلين «البصيرة» و«الزهد»، أو بين «قصر الأمل» و«الزهد» مثلا، فان البصيرة

---

(١) الدر المنثور ١: ٦٧. في تفسير قوله تعالى: (وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ).

(٢) بحار الأنوار ٧٧: ٨٠

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٣١٧. وروضة الواعظين للفتال النيسابوري وفي نهج البلاغة، قسم الحكم، الحكمة/ ٧٢ (الدهر يخلق الابدان) أي يبليها، بدل الزهد.

(٤) بحار الأنوار ٧٨: ١٦٤. وتحف العقول ص ٢٨٥ و٢٨٦ .

تؤدي إلى الزهد، والزهد يؤدي إلى مستوىً أرفع من البصيرة، ثم البصيرة الجديدة تؤدي إلى مستوىً أرفع من الزهد، وهكذا يتصاعد الإنسان بين هذين القطبين.

الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة

أ ـ الدنيا المذمومة:

وبعد، فقد ذكرنا من قبل أن للدنيا وجهاً ظاهراً ووجهاً باطناً، والوجه الظاهر للدنيا هو مصدر «الاغترار» ويغرس حبّ الدنيا في نفس الإنسان، والوجه الباطن منها مصدر «الاعتبار» ويغرس في نفس الإنسان «الزهد»، والوجه الظاهر هو «الدنيا المذمومة» في النصوص الإسلامية، كما أن الوجه الباطن هو «الدنيا الممدوحة».

وفي الحقيقة ان وجهي الدنيا هما نهجان للنظر إلى الدنيا، كما ذكرنا من قبل، فليس للدنيا وجهان، وإنّما الدنيا حقيقة واحدة، فإذا نظر إليها الإنسان نظر الاغترار كانت الدنيا مذمومة، وإذا نظر إليها الإنسان نظر الاعتبار كانت الدنيا ممدوحة، ومن عجب أنّ الوجه المذموم من الدنيا يستخرج من الوجه الظاهر للدنيا المثير والمغري والمشبع باللذات والشهوات.

وفيما يلي نشير إلى طائفة من النصوص الإسلامية الواردة في تبيان الوجه المذموم للدنيا:

يقول تعالى: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ)[1].

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ)[2].

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)[3].

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ)[4].

---

(١) البقرة: ٢١٢ .

(٢) الأنعام: ٣٢ .

(٣) العنكبوت: ٦٤.

(٤) الحديد: ٢٠ .

وعن علي عليه السلام: (أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حُفّت بالشهوات)(١).

وفي حديث المعراج: (يا أحمد، إحذر أن تكون مثل الصبي، إذا نظر إلى الأصفر والاخضر أحبّه، وإذا أعطى شيئاً من الحلو والحامض اغتر به)(٢).

وعنه عليه السلام: «الدنيا تُذِلّ»(٣).

التحذير من الدنيا:

ومن هذه الدنيا يحذّرنا أمير المؤمنين عليه السلام فيقول عليه السلام: «أُحذّركم الدنيا فإنّها ليست بدار غبطة، قد تزيّنت بغرورها، وغرّت بزينتها لمن كان ينظر إليها»(٤).

ويقول عليه السلام أيضاً: «أُحذّركم الدنيا فإنها حُلوة خضرة، حُفّت بالشهوات»(٥).

وعنه عليه السلام: «احذروا هذه الدنيا، الخدّاعة الغدّارة، التي قد تزيّنت بحليّها، وفتنت بغرورها، فأصبحت كالعروسة المجلوة، والعيون إليها ناظرة»(٦).

ب ـ بركات الدنيا الممدوحة:

والوجه الآخر للدنيا أو الرؤية الأُخرى للدنيا هي الدنيا الممدوحة أو الرؤية الممدوحة لها، ومن عجب أن هذه الرؤية الممدوحة للدنيا تستخرج من باطن الدنيا الزائل المتقلّب، والدنيا المذمومة تستخرج بالعكس من الوجه الظاهر، المغري

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة/ ١١١ .

(٢) ارشاد القلوب: ٢٠٠ . وبحار الأنوار ٧٧/ ٢٢ .

(٣) غرر الحكم: ٤٤١، ١٤١١/ ١٤٧٣ .

(٤) بحار الأنوار ٧٨: ١١ ح/ ٦٩، ومطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي ص ٢٦٠.

(٥) بحار الأنوار ٧٣: ٩٦.

(٦) بحار الأنوار ٧٣: ١٠٨. ودستور معالم الحكم لابن سلامة ص ٣٨ ط مكتبة المفيد ـ قم.

والمثير، الملذ للدنيا.

ومهما كان من أمر فإن للدنيا وجهين: وجهاً ممدوحاً ووجهاً مذموماً، والدنيا في وجهها الممدوح رابحة، وليست خاسرة، ونافعة وليست ضارة، ولها بركات ومنافع عظيمة منها أنها بلاغ الآخرة، ومركب المؤمن، ودار صدق، ومتجر أولياء الله، ولا يصح ذمّها بهذا المعنى، ولنلق نظرة في النصوص الإسلامية التي تتعرض لبركات الوجه الممدوح من الدنيا:

١ ـ الدنيا بلاغ الآخرة:

عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «الدنيا دنياءان، دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة»[١].

ويقصد الإمام عليه السلام بدنيا البلاغ: الدنيا التي تبلّغ الإنسان الآخرة، وتوصله إلى الله، وهو معنى البلاغ، وهذه هي احدى الدنيائين، وهي الدنيا الممدوحة.

والدنيا الثانية: هي الدنيا الملعونة، وهي التي تبعّد الإنسان وتطرده عن الله تعالى، فإن اللعن بمعنى الطرد والابعاد، ولا بد أن تكون دنيا الإنسان واحدة من هاتين، اما دنيا البلاغ إلى الله، أو دنيا البعد عن الله.

والحقيقة الأخرى التي تنطوي عليها هذه الحقيقة: أن الإنسان لا يمكن أن يراوح في مكانه في الدنيا، فاما أن يتقرب إلى الله تعالى أو يبتعد عن الله تعالى.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ»[٢].

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٢٠. والكافي ٢/ ٣١٧ ط دار الكتب الاسلامية ـ طهران.

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ٨١ ونهج البلاغة، قسم الخطب، الخطبة رقم: ٤٥، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤٤٠.

إذن البلاغ لابد أن يكون هو الغاية هذه الدنيا، وما يطلبه الإنسان في هذه الدنيا من مال ومتاع فهو واسطة و«أداة» للوصول إلى تلك الغاية، فعلى الإنسان - إذن - أن يكتفي من طلب الدنيا بما يكفيه للوصول إلى تلك الغاية، فلا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تجعلوا الواسطة غاية يطلبها الإنسان لنفسها، فان الدنيا وما فيها من المتاع واسطة، وليست غاية، والغاية البلاغ.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الدنيا خلقت لغيرها، ولم تخلق لنفسها»[١].

ومن الخطأ: أن تتحول الواسطة إلى غاية، كما أن من الخطأ: أن تكون الواسطة واسطة وغاية في وقت واحد، ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ».

وأما عن السعي والحركة لنيل الدنيا، يقول الإمام عليه السلام: «لا تسألوا فيها فوق الكفاف»، وهو تحديد دقيق للنظرية الإسلامية في «السعي للرزق»، فان متاع الدنيا واسطة من دون شك لبلاغ الآخرة، ولا بدّ من السعي لتحصيله وكسبه، ولكن ما لا ينبغي أن ينصرف الإنسان إليه هو الحد الزائد عن الكفاف، و«الكفاف» ما يكفي الإنسان من متاع لتحقيق «البلاغ» وهو ما يسدّ حاجة الإنسان في الحياة الدنيا.

وللإنسان حاجة حقيقية، وأخرى وهمية كاذبة، أما الحقيقية فهي معروفة وضرورية ولابد منها، لكي يعيش الإنسان ويحقق البلاغ في حياته الدنيا، وأما الحاجة الوهمية والكاذبة التي تتمثّل للإنسان على صورة «الحاجة» فهي من الجشع، وإذا استسلم الإنسان لها فلا نهاية لها، وليس لها من حدّ تقف عنده، وتستهلك كل حركة الإنسان وجهده، ولا تزيده إلاّ عذاباً وحرصاً.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة: ٤٥٥. وبحار الأنوار ٧٠/ ١٣٣ ط (دار الوفاء).

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «يابن آدم: ان كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فان أيسر ما فيها يكفيك، وان كنت انما تريد ما لا يكفيك فان كل ما فيها لا يكفيك»[١].

وقد تقدم قريباً عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا وان الدنيا دار لا يُسلَم منها إلاّ فيها، ولا ينجى بشيء كان لها، ابتلي الناس بها فتنة، فما أخذوه منها لها أُخرجوا منه وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه»[٢].

وهذه الكلمات على إيجازها تحمل معاني كبيرة، فالدنيا «دار لا يسلم منها إلاّ فيها» فهي مركب المؤمن للفرار من الشيطان والوصول إلى الله تعالى، والسُلّم الذي عليه يرقى الإنسان إلى الله، والوعاء الذي فيه يتكامل الإنسان في حركته إلى الله، وبغيرها لا يسلم الإنسان.

ومن عجب أن الذي يعتزل الدنيا لا يبلغ الغاية التي أرادها الله تعالى له في القرب والثواب والأجر، فقد شاء الله أن لا ينال الإنسان هذه الغاية إلاّ في الدنيا وبالدنيا.

وبالدنيا يسلم الإنسان من السقوط في الدنيا. وهذه النقطة من أرق المعاني التي تحملها إلينا النصوص الإسلامية. وهذه هي الفقرة الأولى من كلمة الإمام عليه السلام.

إذن فالدنيا واسطة ووسيلة لا يمكن الاستغناء عنها لتحقيق هذه الغاية الرفيعة، وهذه هي الحقيقة الأولى في هذا النص.

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٣٨. ووسائل الشيعة ٥/ ٢٤١ ط الاسلامية، وبحار الأنوار ٧٠/ ١٧٦ ط دار الوفاء ـ بيروت.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٦٣. وروضة الواعظين ص ٤٤٠، وبحار الأنوار ٧٠/ ١١٩ ط (دار الوفاء ـ بيروت).

ولكن على أن لا تكون الدنيا التي تحمل الإنسان إلى الله غاية في نفسها، فإذا تحوّلت الدنيا للإنسان إلى غاية، وليست واسطة، لم ينج الإنسان بها «ولا ينجى بشيء كان لها». فإذا أخرج الإنسان الدنيا من موضعها الصحيح في نفسه وهو الوساطة، وأعطاها من نفسه منزلة الغاية والهدف، فقدت الدنيا القدرة على أن تنجيه من الشيطان، وتوصله إلى الله. . ولا يسلم الإنسان من الدنيا بشيء من الدنيا اتخذها الإنسان غاية له، وهذه هي الحقيقة الثانية في هذا النص.

ثم إن ما يأخذه الإنسان من هذه الدنيا للدنيا، وليس لله، وليس ليتقرّب به إلى الله، ولا ليمكّنه من الوصول إلى مرضاة الله، فهو شيء يلهيه عن الله تعالى.

وعجيب أمر هذه الدنيا، إن أخذ الإنسان منها شيئاً وسيلة وواسطة سلك به إلى الله، وادّخره الله تعالى له، وبقي له وأقبل عليه، وأقام فيه، في آخرته، وإذا أخذ منها شيئاً، غاية، وليس وسيلة، ألهاه عن الله، وأبعد طريقه إليه تعالى، ثم ينتزعه منه الموت أنتزاعاً، ثم يحاسب عليه حساباً عسيراً، إذا قدم على الله تعالى. (فما أخذوه منها لها أخرجوا منه، وحوسبوا عليه).

ومن المهم أن نعرف أن الفرْق ليس بالكم، وإنما بالكيف، فقد ينال الإنسان دنياً عظيمة وواسعة كما نالها سليمانعليه السلام، فيوظّفها في سبيل الله تعالى، وللوصول إليه، فتبقى له عملا صالحاً، يقدم عليه في الآخرة، وقد ينال الإنسان دنيا بائسة، يطلبها لنفسها، فتنتزع منه، ويحاسب عليها، وهذه هي الحقيقة الثالثة في هذا النص.

ثم ان هذه الدنيا إذا أُخذت لنفسها، كانت «عاجلة» تختص بهذه الدنيا، ولا تمتد إلى الآخرة، وزائلة لا تبقى ويسرع إليها الزوال، وإذاكانت لغيرها كانت «آجلة» تسبقه إلى الله، فإذا قدم على الله تعالى وجدها حاضرة عند الله، وكانت باقية، لا يجد اليها الزوال سبيلا (وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)، «وما أخذوه منها لغيرها قدموا

عليه وأقاموا فيه» وهذه هي رابعة الحقائق في هذا النص الشريف.

وفي الدعاء الوارد في زيارة الحسين عليه السلام: «ولا تشغلني بالاكثار عليّ من الدنيا، تلهيني عجائب بهجتها، وتفتنني زهرات زينتها، ولا بإقلال يضرّ بعملي، ويملأ صدري همّه»[١].

والذي ذكرناه من قبل في شأن الدنيا، وعلاقتها بالانسان، وما يبقى له منها، وما يزول، وما ينفعه منها، وما يضرّه، من حيث الكيف فقط، ولا علاقة له بالكم، ولكن للكم أيضاً دور في تأثير الدنيا إيجاباً وسلباً، وتكييفها، فالاكثار من الدنيا وبهجتها يشغل الإنسان ويلهيه عن الله تعالى، وقلّما يتّفق أن يكثر حظ الإنسان من الدنيا، ولا تشغله وتصرفه عن الله، إلاّ بجهد وعناء كبيرين، كما أن الدنيا إذا شحت على الإنسان وأدبرت كان ذلك نوعاً آخر من الابتلاء يشغل الإنسان عن الانصراف إلى الله.

ولذلك فان النص يطلب من الله تعالى أمراً وسطاً بينهما، لا إكثاراً يلهي الإنسان عن الله، ولا إقلالاً يضرّ بعمله ويشغله عن الله.

٢ـ الدنيا مركب المؤمن:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تسبّوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن، فعليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر»[٢].

---

(١) بحار الأنوار ١٠١: ٢٠٨. وكامل الزيارات لابن قولويه ص ٤٣٧ ط ١٤١٧ مؤسسة النشر الإسلامي/ مؤسسة نشر الثقافة، وتهذيب الاحكام للشيخ الطوسي ٦/ ٦٨ ط دار الكتب الاسلامية ـ طهران ١٣٦٥هـ.

(٢) بحار الأنوار ٧٧: ١٧٨. وأعلام الدين في صفات المؤمنين للديلمي: ٣٣٥، والفتوحات المكية لابن عربي ٤/ ٥٤٢.

فالدنيا هي المركب الذي يركبه الإنسان إلى الله تعالى، ويفرّ به عن جهنم، وهذا هو الوجه الممدوح للدنيا، فلولا الدنيا لما استطاع الإنسان أن يحقّق مرضاة الله، وأن يتحرك إلى الله، وإنما يصل أولياء الله تعالى إلى ما يصلون إليه من مقام رفيع عند الله بالدنيا.

ولنلق نظرة سريعة إلى سائر العناوين التي تختزنها الدنيا الممدوحة:

٣ـ الدنيا دار صدق واعتبار.

٤ـ الدنيا دار عافية.

٥ـ الدنيا دار غنى وتزود.

٦ـ الدنيا دار موعظة.

٧ـ الدنيا مسجد أحبَاء الله.

٨ـ الدنيا متجر أولياء الله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام وقد سمع رجلا يذمّ الدنيا:

«أيها الذام للدنيا المغترّ بغرورها المنخدع بأباطيلها! أتغتر بالدنيا ثم تذمّها، أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك؟ متى استهوتك؟ أم متى غرّتك؟ أبمصارع آبائك من البِلى، أم بمضاجع أُمهاتك تحت الثرى؟ كم علّلت بكفيك؟ وكم مرّضت بيديك؟ تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الاطباء، غداة لا يغني عنهم دواؤك، ولا يجدي عليهم بكاؤك، لم ينفع أحدَهُ إشفاقُك، ولم تُسعَفْ فيه بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوتك، وقد مَثَّلَتْ لك به الدنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك.

ان الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى

لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها.

مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنّة.

فمن ذا يذمّها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثّلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور؟! راحت بعافية وابتكرت بفجيعة، ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتْهُمْ الدنيا فتذكّروا، وحَدّثَتْهُم فصدقوا، ووعظتْهم فاتّعظوا»[١].

٩ـ الدنيا سوق:

عن الإمام الهادي عليه السلام: «الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون»[٢].

١٠ـ الدنيا عون على الآخرة:

عن الإمام الباقر عليه السلام: «نعم العون الدنيا على الآخرة»[٣].

١١ـ الدنيا ذخر:

عن علي عليه السلام: «الدنيا ذخر والعلم دليل»[٤].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ١٢٦. وتحف العقول لابن شعبة الحراني: ١٨٧، وخصائص الائمة للشريف الرضي ص ١٠٢ ط ١٤٠٦ مجمع البحوث الاسلامية ـ مشهد.

(٢) بحار الأنوار ٧٨: ٣٦٦. وتحف العقول ص ٤٨٣.

(٣) بحار الأنوار ٧٣: ١٢٧. والكافي ٥/ ٧٢ (الاسلامية) ومن لا يحضره الفقيه ٣/ ١٥٦.

(٤) غرر الحكم للآمدي: ١٢٢٤، وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٤٦.

١٢ـ الدنيا دار المتقين:

عن الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) قال: «الدنيا»[١].

١٣ـ الدنيا تحرز الآخرة:

عن علي عليه السلام: «بالدنيا تحرز الآخرة»[٢].

إذن فالدنيا ممدوحة في الإسلام وهي متجر أولياء الله، ومسجد أحبّاء الله، والبلاغ إلى الآخرة، والمحل الذي يتزوّد منه المؤمنون، هذا كله لو أنه أبصر بالدنيا، وأما لو أبصر إليها فهي تعميه كما يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام [٣].

وقد روي أنه عليه السلام لما قال: «أيها الذام للدنيا أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك»؟ قال قائل: بل أنا المتجرّم عليها يا أمير المؤمنين. فقال: «فلم ذممتها؟ أليست دار صدق لمن صدقها»[٤].

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ١٠٧.

(٢) بحار الأنوار ٦٧: ٦٧. ونهج البلاغة الخطبة ٤٧، ونهج السعادة ١/ ٣٦٨.

(٣) بحار الأنوار ٧٨: ٤. ونهج البلاغة الخطبة ١٣١، وروضة الواعظين للفتال: ٤٤٥.

(٤) بحار الأنوار ٧٨: ١٧. ومطالب السؤول لابن طلحة الشافعي: ٢٥٤.

٢ـ وأشغلتْ قلبه بها

التبادل بين الجريمة والعقوبة

هذه هي العقوبة الثالثة للذين يُعرضون عن الله تعالى ويقبلون على أهوائهم، وهي عقوبة من نوع الجريمة، والعقوبة إذا كانت من سنخ الجريمة تكون «تكوينية» وليست «قضائية»، والعقوبة التكوينية من أكثر العقوبات عدالةً، ولا سبيل للفرار منها، والجريمة هنا هي الانشغال بالهوى عن الله، والعقوبة من نفس النوع، وهي الانشغال بالدنيا عن الله: «وشغلت قلبه بها».

إذن فان العلاقة بين الجريمة والعقوبة علاقة تبادلية «جدلية»، فان الجريمة وهي «الانشغال بالهوى عن الله» تستوجب العقوبة وهي «الانشغال بالدنيا عن الله»، وهي بطبيعة الحال جريمة بل تضاعف الجريمة، وتوسعها، وتصعدها، فيستحق المجرم العقوبة نفسها بدرجة أعلى من السابقة، وهكذا تكون العلاقة بين الجريمة والعقوبة جدلية، كما ذكرنا من قبل في علاقة (الزهد) بـ(قصر الأمل في الدنيا)، وبالعكس، ولكنها تختلف عنها في كونها تصعّد الجريمة وتشدّدها، فتستحق بذلك درجة أعلى من العقوبة، وبهذه الطريقة تتحرّك الجريمة وتكبر في خط متصاعد.

ويرتكب الإنسان الجريمة أوّل ما يرتكب وهو يملك كامل اختياره، ويتمتّع بكل ما رزقه الله تعالى من الحصانة ضد السقوط والانحراف، فإذا استمر في الجريمة ولم يرتدع، عاقبه الله تعالى بتسليط نفس الجريمة عليه بدرجة ما، وفي هذه العقوبة يسلبه الله تعالى بعض ما رزقه من حصانة، وبعض ما رزقه من سيطرة على نفسه، وقدرة على الاختيار.

وكلما تتصاعد درجة العقوبة أكثر تزداد درجة تسلّط الجريمة عليه، وتضعف قدرته على نفسه، وتضعف درجة الحصانة لديه، حتى يسلبه الله تعالى كل ما وهبه

من الحصانة، وكل سيطرة على نفسه، وهذه العاقبة التي ينتهي إليها أمثال هؤلاء المجرمين من فقدان الحصانة والسيطرة على النفس، من دون أن ينتفي استحقاقهم للعقوبة، لأن المراحل الأولى من ممارستهم للجريمة كانت مقترنة بالحصانة الكاملة عن الجريمة، والسيطرة على النفس، والقدرة التامة على الاختيار، وذلك كمن يُلقي بنفسه من مكان شاهق بالاختيار، فيفقد عند السقوط السيطرة على نفسه... فإن مثل هذا الإنسان لا يُعد فاقداً للاختيار، إذا كانت المقدمات التي أدّت به إلى هذه النتيجة اختيارية، وهو معنى القاعدة المعروفة: (الاضطرار بالاختيار لا ينافي الاختيار).

الوجه الإيجابي والسلبي للاشتغال بالدنيا

وللاشتغال بالدنيا وجهان: وجه إيجابي ووجه سلبي.

أما الوجه الإيجابي فهو أن ينصرف همَّ الإنسان إلى الدنيا، ويتعلّق بها، وتكون الدنيا مبلغ همّه واهتمامه، وهذه الحالة في حد نفسها حالة مرضيّة خطيرة، تستحوذ الدنيا فيها على قلب الإنسان وتسيطر عليه.

وقد ورد في الدعاء عن رسول الله ﷺ: «اللّهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»[1].

وليس من بأس على الإنسان أن يهتم بدنياه في الحد المعتدل المعقول، أما إذا جعل الدنيا أكبر همومه فقد حكّم الدنيا على قلبه، وجعل لها السلطان الأوّل على

---

(١) بحار الأنوار ٩٥: ٣٦١ ومبلغ علمنا بمعنى منتهى علمنا. وفقه السنة للسيد سابق ١/ ٦١١، وإقبال الاعمال للسيد ابن طاووس ٣/ ٣٢١ ط ١٤١٦ مكتب الاعلام الاسلامي. وغوالي اللئالي لابن أبي جمهور الاحسائي ١/ ١٥٩.

حياته، وكانت الدنيا هي التي توجهه، وهذه هي الحالة المرضية للقلب، وقد ورد في وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن المجتبى عليه السلام: «ولا تكن الدنيا أكبر همّك»[1].

وأما الوجه السلبي للاشتغال بالدنيا فهو الانقطاع عن الله، فإن الاشتغال بالدنيا انقطاع إليها عن الله، وهو أمر طبيعي، فان الدنيا إذا كانت أكبر هم الإنسان فانها تكون هي الموجّهة له، وليس مرضاة الله تعالى، وعندئذ ينغلق قلب الإنسان على الله تعالى بمقدار ما ينفتح قلبه على الدنيا، فإذا كانت الدنيا أكبر همه كانت مرضاة الله تعالى أقل اهتماماته وأضعفها، وإذا كانت الدنيا كل همّه انغلق قلبه على الله تعالى انغلاقاً كاملاً.

وهذه الحالة «السلبية» تأتي نتيجة للحالة السابقة، وهي من أخطر الحالات المرضية عند الإنسان.

والقرآن الكريم يستعرض هذه الحالة المرضية في مواضع كثيرة، وبعناوين متعدّدة، نستعرض هنا جملة منها، على شكل عناوين مما يعدّده القرآن من أعراض هذه الحالة وتطوّراتها، وإليك طائفة من هذه العناوين.

صور وعناوين لانغلاق القلوب على الله

١ ـ الرين:

وهو كالصدأ الذي يعلو القلب، يقول تعالى: (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٠٢. ومستدرك الوسائل ١١/ ٢٨٤ و١٣/ ٣٥، والأرشاد للشيخ المفيد ١/ ٢٣٤ ط ١٤١٤ دار المفيد.

يَكْسِبُونَ)[١]، يقول الراغب في «المفردات» في تفسير هذه الآية: «أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعُمّي عليهم معرفة الخير من الشر»[٢].

٢ ـ الصرف:

وهي كالعقوبة يصرف الله فيها القلوب اللاهية عن ذكره، يقول تعالى: (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ)[٣].

٣ ـ الطبع:

يقول تعالى: (وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)[٤]. أي صبغ قلوبهم بصبغة غير صبغة الله، وهي صبغة الهوى والدنيا.

٤ ـ الختم:

يقول تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)[٥]. والختم أشد من الطبع، وهو الأثر الذي يتركه الخاتم.. وكانوا يختمون على الظروف لإغلاق الظرف.

٥ ـ الأقفال:

يقول تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا)[٦]، وهو أشد منهما.

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) المفردات للراغب الاصفهاني: ٢١٤ تحقيق نديم مرعشي.

(٣) التوبة: ١٢٧.

(٤) الأعراف: ١٠٠.

(٥) البقرة: ٧.

(٦) سورة محمّد: ٢٤.

٦ـ التغليف:

يقول تعالى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)(١). ويقول تعالى: (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)(٢).

٧ـ التكنين:

قال تعالى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّة مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ)(٣). ويقول تعالى: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)(٤).

٨ـ التشديد:

يقول تعالى: (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ)(٥).

٩ـ القسوة:

يقول تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ اللَّهِ)(٦).

ويقول تعالى: (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ)(٧).

تلك صور من انغلاق القلب وأعراضه وتطوراته يذكرها القرآن ضمن هذه العناوين.

---

(١) البقرة: ٨٨

(٢) النساء: ١٥٥.

(٣) فصّلت: ٥.

(٤) الأنعام: ٢٥.

(٥) يونس: ٨٨

(٦) الزمر: ٢٢.

(٧) الحديد: ١٦.

ولهذا الإجمال تفصيل لا يسعه المقام.

كيف تتحوّل الدنيا إلى سجن؟

فإذا انغلق قلب الإنسان على الله تعالى تحولت الدنيا إلى سجن يحتوي الإنسان، ويستحوذ عليه ولا يستطيع أن يخرج منه، فإن السجن يحبس الإنسان عن الخروج ويقيّد حركته، وكذلك الدنيا تسجن الإنسان وتقيّد حركته، وتمنعه من الاقلاع والانطلاق، وتستأثر بكل اهتماماته وطموحاته، وتقطعه عن الله تعالى.

وقد ورد هذا المعنى في النصوص الإسلامية، ففي الدعاء عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «ولا تجعل الدنيا عليّ سجناً»[1]، وفي الدعاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ولا تجعل الدنيا عليّ سجناً، ولا تجعل فراقها لي حزناً»[2].

ومن عجب أن يشق على السجين فراق السجن ويحزن له إذا خرج منه، فإنّ هذا السجن ليس كسائر السجون التي يمقتها الناس، بل يألفونه ويركنون إليه ويمكّنونه من أنفسهم ولا يرضون بمفارقته، فإذا انتزع منهم انتزاعاً حزنوا عليه وشقّ عليهم أن يفارقوه.

وعندما يمكّن الإنسان الدنيا من نفسه تشتبك الدنيا على الإنسان، كما يشتبك الاخطبوط على الغريق، فتغل يديه ورجليه، وتقيّد حركته، وتستعبده.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الدنيا كالشبكة تلتفّ على من رغب فيها»[3].

ومرة أُخرى يلفت نظرنا هذه العلاقة بين «السجن والسجين» في النصوص

---

(١) بحار الانوار ٩٧: ٣٧٩.

(٢) بحار الأنوار ٩٧: ٣٣٨. ومصباح المتهجد: ٥٥٠ ط ١٤١١ مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت.

(٣) غرر الحكم للآمدي: ٦٣٨٧ و٦٣٨٨ و٦٣٨٩.

الإسلامية «تلتفّ على من رغب فيها».

وعنه عليه السلام أيضاً: «من أحبّ الدينار والدرهم فهو عبد الدنيا»[١].

أهل الدنيا

أُولئك «أهل الدنيا» وان للدنيا أهلا، وللآخرة أهلا، وأهل الدنيا هم الذين يخلدون إلى الدنيا ويركنون إليها، ولا يطيقون مفارقتها، كما لا يطيق الإنسان مفارقة أهله.

وأهل الآخرة يعيشون في الدنيا، كما يعيش غيرهم، ويتمتّعون بطيّباتها ولذاتها كما يتمتّع غيرهم، ولكن دون أن يخلدوا إلى الدنيا ويركنوا إليها... وهؤلاء هم أهل الله.

ولأهل الآخرة صفات، ولأهل الدنيا صفات، ونجد في حديث المعراج وصفاً لاهل الدنيا:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ من حديث المعراج وهو قيم جليل كثير الفوائد من الأحاديث القدسية ـ: «يا أحمد، أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضا، لا يعتذر إلى من أساء إليه ، ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه، كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمنه بعيد، وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، وان أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويدّعون بما ليس لهم، ويتكلّمون بما يتمنّون، ويذكرون مساوئ الناس ويخفون حسناتهم»[٢].

---

(١) بحار الأنوار ١٠٣: ٢٢٥. والخصال للشيخ الصدوق: ١١٣ ط ١٤٠٣ جماعة المدرسين، ووسائل الشيعة للحر العاملي ١٤/ ١٢ الاسلامية.

(٢) بحار الأنوار ٧٧: ٢٣. والجواهر السنية للحر العاملي ص ١٩٤ ط ١٣٨٤ (النعمان ـ النجف).

إن أهل الدنيا يسكنون إليها، ويجدون فيها أُنساً وسكناً، وتستقر نفوسهم فيها، والدنيا ليست بدار قرار، فإذا أنس الإنسان بها، وسكن إليها فقد وقع في شرك تلبيس الدنيا، حيث يتوهّم أن الدنيا دار قرار، وهي ليست بدار قرار.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «... وأعلم أنك انما خُلقت للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وأنك في منزل قلعة ودار بلغة، وطريق إلى الآخرة... وإياك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها، وتكالبهم عليها، فقد نبّأك الله عنها، ونَعَتْ لك نفسها، وتكشّفت لك عن مساويها... »[1].

تلبيس الدنيا

وهذا من تلبيس الدنيا، حيث يتوهمها الإنسان دار قرار، يأوي ويسكن إليها، وهي دار مجاز وعبور، لا قرار لها، ولا قرار فيها، والإنسان فيها غريب، يقيم فيها أياماً لينتقل منها إلى الآخرة، وهو مع ذلك يركن إليها ويخلد إليها.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر سبيل»[2]، وعن علي عليه السلام: «أيها الناس إنّما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم»[3].

والمسألة هنا نفسية، فإن الإنسان الذي يعبر طريقاً، لا يمكّن الطريق من نفسه، بعكس الذي يستقر في دار، فانه يألف الدار، ويمكّن الدار من نفسه.

---

(١) نهج البلاغة الكتاب: ٣٧، وتحف العقول ص ٧٦، وكشف المحجة ص ١٦٥ .

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ٩٩. ومسند الشهاب لابن سلامة ١/ ٣٧٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير ٣/ ٢٣٠ .

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٣ والامالي للشيخ الصدوق: ١٧٢.

وللمسيح عيسى بن مريم عليه السلام كلمة معبّرة ورائعة في هذا المعنى: فقد روي عنه عليه السلام: «من ذا الذي يبني على موج البحر داراً، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً»[١]، إنّ الدنيا لا قرار لها، كما لا قرار لموج البحر، فكيف تسكن النفوس إليها، وتخلد إليها، وهل يمكن أن يتخذ الإنسان لنفسه داراً على موج البحر؟

وروي أن جبرئيل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ قال: «كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر»[٢]، وهذا الاحساس الذي يحسّ به شيخ الأنبياء عليه السلام في اللحظات الاخيرة من عمره هو الاحساس الصادق الذي خلص من تلبيس الدنيا.

فإذا ألف الدنيا وسكن إليها تغيّر عنده هذا الاحساس وأنس بها، والتفّت عليه الدنيا، وأوقعته في شركها، ووقع في تلبيسها، وهذا حال «أهل الدنيا» الذين يتصوّرون أن فيها قراراً وسكناً للإنسان.

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ٣٢٦ (دار الوفاء ـ بيروت)، والامالي للشيخ المفيد ص ٤٣ ط ١٤١٤ دار المفيد، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩/ ٢٨٧ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٢) ميزان الحكمة ٣: ٣٣٩. ومستدرك الوسائل ١١/ ١٨٥، وبحار الأنوار ٧١/ ٣٢٦، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٧٣.



الفصل الثالث

من يؤثر

هوى الله على هواه

تحدثنا في الفصل السابق بتفصيل عمّن يؤثر هواه على هوى الله، ونتحدّث الآن إن شاء الله عمن يؤثر هوى الله على هواه، وقبل أن ندخل تفاصيل البحث نعيد ذكر الأحاديث القدسية الشريفة مرة أخرى ليتصل البحث بما سبقه:

روى الشيخ الصدوق في كتابه «الخصال» بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إن الله عزّ وجلّ يقول: بجلالي، وجمالي، وبهائي، وعلائي، وارتفاعي لا يؤثر عبد هواي على هواه إلاّ جعلت غناه في نفسه، وهمّه في آخرته، وكففت عنه ضيعته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر»[1].

وروي في «ثواب الأعمال» بسنده عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: وعزّتي وعظمتي وجلالي وبهائي وعلوّي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلاّ جعلت همه في آخرته، وغناه في قلبه، وكففت عليه ضيعته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[2].

وروى ابن فهد في «عُدة الدّاعي» عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله: وعزّتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوّي وارتفاع مكاني لا يُؤثر عبد هواي على هواه، إلاّ استحفظته ملائكتي وكفّلت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر وأتته الدنيا وهي راغمة»[3].

ورواه الشيخ الكليني في «أُصول الكافي» بسنده عن أبي جعفر عليه السلام: «... إلاّ كففت عليه ضيعته وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر»[4].

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٧٥ عن الخصال.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٧٧ عن ثواب الاعمال.

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٧٨ عن عدة الداعي.

(٤) بحار الأنوار ٧٠: ٧٩ عن أصول الكافي.

ايثار الإنسان لهوى الله على هواه

ومعنى الايثار هو أن يُحكّم الإنسان إرادة الله تعالى على هواه، وينهى النفس عن الهوى بموجب حكم الله، (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)(١).

ومفرق الطريق بين «التقوى» و«الفجور» هو النقطة التي يتزاحم عندها أمر الله تعالى ونهيه وهوى الإنسان، فإذا آثر الإنسان هوى الله تعالى على هواه سلك سبيل التقوى، وإذا آثر هوى نفسه على هوى الله تعالى سلك سبيل الفجور.

وفيما يلي شرح موجز للمكاسب العظيمة التي يجنيها العبد بإيثار هوى الله تعالى (أمره وحكمه) على هواه:

١ ـ جعلت غناه في نفسه

المعروف عند الناس أن الغنى والفقر شأن من شؤون الذهب والفضة... ويقاسان بمقاييسهما، ولا علاقة لهما بالنفس، ونلتقي في الإسلام مفهوماً مغايراً لهذا المفهوم تماماً عن «الغنى والفقر»، حيث يعتبرهما الإسلام من شؤون النفس لا المال، فيكون الإنسان غنياً، وإن كان فقيراً من حيث المال، ويكون فقيراً وان كان غنياً من حيث المال.

ففي دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: «اللّهم اجعل غناي في نفسي، واليقين في قلبي، والاخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني».

فكيف ينقلب مفهوم الغنى والفقر من محور الذهب والفضة إلى محور النفس؟

---

(١) النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

إن في الأمر سراً، وان السرّ الكامن في هذا الانقلاب هو من أسرار هذا الدين وعجائبه الكثيرة.

ولنتأمل في أمر هذا الانقلاب بعض الوقت.

دور «المصطلحات الإسلامية» في تصحيح الافكار

«الفقر» و«الغنى» مصطلحان إسلاميان، وللاسلام اهتمام خاص بالمصطلحات، فقد نسخ الإسلام جملة من المصطلحات الجاهلية، وأسّس مجموعة كبيرة من المصطلحات، ويستخدم الإسلام هذه المصطلحات في تصحيح الافكار والتصورات والرؤى، كما يستخدمها الإسلام في تأسيس أنظمة جديدة للتقييم، فإن للجاهلية أنظمتها الخاصة في التقييم، وللاسلام نظامه الخاص به في التقييم.

فقد يلغي الإسلام قيمة جاهلية إلغاءً كاملا، ويؤسّس قيمة جديدة في الحياة الاجتماعية، وقد يحوّل الإسلام ما كان الناس يعتبرونه في الجاهلية «ضد القيمة» في السياسة والاخلاق والاجتماع والقضاء... إلى قيمة سياسية أو أخلاقية أو اجتماعية...

فقد كانت «الانثى» في الجاهلية ضد القيمة تماماً، وكان الناس يتشاءمون من «البنات»، فحوّل الإسلام «ضد القيمة» هذه إلى «قيمة» من أشرف القيم وأسماها.

والاختلاف في القيم ينشأ من الاختلاف في أنظمة التقييم، ولكل قيمة نظام تتبعه وتنشأ عنه، ولا نستطيع أن نفهم «القيم» إلاّ من خلال الانظمة التي تعتمدها هذه القيم.

والإسلام يستخدم المصطلحات التي أسّسها ويتبنّاها في تغيير نظام التقييم، وبالتالي في تغيير القيم، وإحداث انقلاب شامل فيها، وللاستشهاد على ذلك يكفي أن نشير إلى الدور الذي يؤدّيه المصطلح الجديد للفقر والغنى الذي أسّسه الإسلام في تغيير نظام التقييم، وبالتالي في انقلاب القيم، وإليك بيان ذلك:

الفقر والغنى في نظام التقييم الإسلامي

الفقر والغنى عند الناس تعبيران عن قلّة المال ووفرته، والفقير هو الذي لا يملك كميّة كبيرة من الذهب والفضة و... ، والغني هو الذي يملك كمية كبيرة منهما. ويحدّد الناس درجات الغنى بكمية المال، فكلّما يتوفّر لأحد قدرة شرائية أكثر يكون أغنى، وبالعكس كلمّا يكون حظ الإنسان من النقد أقل يعتبره الناس أشد فقراً.

إذن «الفقر» و«الغنى» هما حالتان كمّيتان عند الناس.

النظام الجاهلي للتقييم:

ولا ضير إلى هذا الحد في أمر هذا المصطلح، والإسلام لا يعارض هذا المصطلح لو كان الأمر يقف عند هذا الحد. ولكن الأمر ليس كذلك، فإن هذه الحالة الكمية «الغنى» تتحوّل في نظام التقييم الجاهلي إلى قيمة اجتماعية وسياسية، بكل مستلزمات القيمة من احترام وتقدير ومكانة اجتماعية ونفوذ سياسي، وثقة الناس، وهذا من أبرز مصاديق انقلاب الكم إلى الكيف في النظام الجاهلي.

وعندما نمعن النظر في هذا الانقلاب نجد أن الذهب هو الكم الذي ينقلب إلى الكيف ويتحوّل إلى قيمة اجتماعية وسياسية، وليس من ريب في أن هناك بين «الكم» و«الكيف» علاقة مباشرة في الحياة الاجتماعية، ولا سبيل إلى نفي هذه العلاقة وإنكارها، ولكن الإسلام يقلب هذه المعادلة، فيجعل الكم تبعاً للكيف، لا العكس.

مثال ذلك: إنقلاب الصدق والتقوى في التعامل الاقتصادي إلى اتّساع دائرة العمل الاقتصادي، وانقلاب الصدق والتقوى في العمل السياسي إلى اتساع رقعة المؤيدين في الانتخابات. وهذا هو الوضع السليم في المجتمع.

أما عندما ينعكس الأمر، ويكون «الكم» هو مقياس «التقييم» في الحياة الاجتماعية والسياسية، فإن المجتمع يتعرّض لتهديد حقيقي في قيمه وأُصوله.

وهذا هو ما حصل بالذات في الحضارات الجاهلية، حيث انقلب النظام القيمي الصحيح في حاكمية الشطر المعنوي، على الشطر المادي من الحياة إلى نظام قيمي فاسد وجاهلي بحاكمية الشطر المادي على الشطر المعنوي، وأصبحت المادة هي أساس التقييم وليس العكس.

وهذا ما حدث للمسلمين بعد أن اتّسعت دائرة الفتوحات الإسلامية. فقد جاء الإسلام بنظام جديد للتقييم في حياة الناس لم يألفه الناس في أيام الجاهلية، وجعل الشطر المعنوي من الحياة أساساً للتقييم، والشطر المادي من الحياة تبعاً للشطر المعنوي، فلما أن اتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية، وفتح الله على المسلمين كنوز كسرى وقيصر، وفتح عليهم آفاق الأرض وكثرت اموالهم، غلبتهم المادة انقلب عندهم نظام التقييم رأساً على عقب، فأصبح الذهب والفضّة هو الاساس في التقييم، وعادت هيئتهم كهيئتهم قبل أن يبعث الله رسول الله ﷺ إماماً وهاديا ورسولا للناس.

ولما جاء أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحكم بعد أيام عثمان بن عفان، وجد أن المسلمين قد انتكسوا تماماً، كمن لبس الثوب مقلوباً، فجعل ظاهره باطناً وباطنه ظاهراً، وأعلاه إلى الاسفل وأسفله إلى الأعلى، يقول عليه السلام في بني أُمية: «ولُبس الثوب لُبْسَ الفرو مقلوباً»[1].

ووجد الناس قد عادوا كهيئتهم يوم بعث رسول الله ﷺ قد انقلبوا عما جاءهم به رسول الله ﷺ من عند الله إلى ما كانوا عليه في الجاهلية قبل الإسلام.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨.

يقول عليه السلام: «ألا وان بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله[1] نبيكم، والذي بعثه بالحق لتبلبلنّ بلبلةً، ولتغربلنّ غربلةً، ولتساطُنّ سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم»[2].

يقول الإمام عليه السلام إنهم سوف يتعرّضون لفتنة شاملة، وردّة عن قيم الإسلام ومفاهيمه وأُصوله ومناهجه، كما ينقلب القدر بالغليان فيكون أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، وأنهم يسكرون من غير شراب بل من الذهب والفضة. يقول عليه السلام: «ذاك حيث تسكرون من غير شراب، بل من النعمة والنعيم»[3].

كذلك كانت حالة المسلمين بعد أن اتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية ووسّع الله تعالى عليهم في أرزاقهم، وهذه هي مأساة الحضارة الجاهلية عندما تستدرجه النعمة والمال.

ولكي يقلب الإسلام نظام التقييم الجاهلي إلى نظام تقييم آخر يقع في النقطة المقابلة لنظام التقييم الجاهلي، يستحدث مصطلحاً آخر للغنى والفقر ويستخدم هذا المصطلح الجديد لتغيير النظام التقييمي الجاهلي إلى نظام تقييمي في النقطة المقابلة له، وهذا ما سنبحثه إن شاء الله.

النظام الإسلامي للتقييم:

هناك اتجاهان إثنان لتفسير «الغنى»، أحدهما يفسّر الغنى بكمية الذهب المتوفرة للإنسان، وهو التفسير الموضوعي المحسوس لهذه الكلمة، وهذا التفسير يرادف كلمة «الثريّ» تقريبا بمعنى صاحب الثروة.

---

(١) قبل البلاغ ونزول الكتاب، حيث كان الناس يعيشون الحياة الجاهلية وقيمها وأنظمتها.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة/ ١٨٧ .

والتفسير الآخر هو التفسير الذاتي لهذه الكلمة، وهو تفسير الغنى بغنى النفس الذي يتأتّى للإنسان من ناحية الثقة بالله تعالى والتوكّل عليه، ولا علاقة للغنى بهذا المعنى بسعة ذات اليد أو ضيقها، فقد يملك الكثير من المال وهو فقير، وقد لا يملك مالا وهو غني في نفسه.

وهذا معنى آخر للغنى والفقر يختلف تماماً عن المعنى الأوّل المحسوس والموضوعي لهذه الكلمة، والغنى بناءاً على هذا المعنى، غناه في نفسه وليس في يده وخزانته.

والإسلام عندما استحدث هذا المعنى الجديد للغنى والفقر، يريد به أن يحدث تغيراً شاملا في نظام التقييم الجاهلي، ويجعل هذا المصطلح أساساً لنظام تقييم جديد يقع في النقطة المقابلة لنظام التقييم الجاهلي، وينقل التكريم والوجاهة من محور الذهب والفضة إلى محور المعرفة والاخلاق.

ولنستعرض النصوص الإسلامية في معنى الغنى والفقر، بادئين أولا بطائفة من النصوص الإسلامية الواردة في معنى «الغنى»، ثم نشرح النظام الجديد الذي يضعه الإسلام للتقييم:

مصطلح الغنى في النصوص الإسلامية:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «الغنى في القلب، والفقر في القلب»[٢].

---

(١) تحف العقول: ٥٧، ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم، والمجموع لمحيي الدين النووي ١٣/ ٢١٨، والمغني لابن قدامة ٤/ ٤٥٥، وكنز الفوائد للكراجكي: ٢٨٨، ونيل الاوطار للشوكاني: ٧/ ١٣٣ .

(٢) البحار ٧٢: ٦٨، ومجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٢٧، والمعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٥٤.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الغني من استغنى بالقناعة»[١].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا كنز أغنى من القناعة»[٢].

وعنه عليه السلام: «طلبت الغنى فما وجدت إلاّ القناعة، عليكم بالقناعة تستغنوا»[٣].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «لا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس»[٤].

وعن الإمام الهادي عليه السلام: «الغنى قِلَّةُ تَمنّيكَ، والرضا بما يكفيك»[٥].

إذن، فالإسلام يحوّل الفقر والغنى من محور الذهب والفضة، والعين والعقار، إلى محور النفس، بل تذهب النصوص الإسلامية إلى اكثر من ذلك، فتقرّر أن الغنى بالمقياس الموضوعي يلازم الفقر بالمقياس النفسي «الذاتي» غالباً.

ففي الغالب كلما يزداد حظ الإنسان من الدنيا يزداد فقراً في نفسه، وهذه العلاقة العكسية بين «الغنى» بالمقياس الموضوعي والغنى بالمقياس «الذاتي والنفسي» ليست من حيث المفهوم، فلا تعاكس بينهما في المفهوم، وإنّما تنشأ هذه العلاقة العكسية من ناحية التبعات التي تلحق «الغنى» بالمفهوم الشائع عند الناس غالباً.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... وغنيّها (الدنيا) فقير»[٦].

---

(١) غرر الحكم للآمدي ١: ٦٢. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي ص ٤٧.

(٢) نهج البلاغة، القسم الاول رقم ٨٨ وبحار الأنوار ٦٩ / ٤١١.

(٣) سفينة البحار ٢: ٨٧، الحياة ٣: ٣٤٢، و٦٩/ ٢٩٩، وجامع احاديث الشيعة ١٤/ ٢١٢، ومستدرك وسائل الشيعة ١١/ ١٩٢.

(٤) تحف العقول: ٢٠٨. وبحار الأنوار ٧٨/ ١٦٥.

(٥) البحار ٨٧: ٣٦٨. و٧٥/ ١٠٩، ومحاسبة النفس للكفعمي: ١٤٢، ونهج السعادة ٧٥/ ٤٢٧، ونزهة الناظر وتنبيه الخواطر: ١٢٨.

(٦) بحار الأنوار ٧٨/ ٢٢، ومطالب السؤول لابن طلحة الشافعي: ٢٦١.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «من أصاب الدنيا أكثر، كان فيها أشدّ فقراً»[١].

ونتساءل لماذا هذا التلازم بين الغنى «في عرف الناس» والفقر الروحي؟ وما هو سبب هذه العلاقة العكسية بين الغنى بالمقياس الموضوعي والذاتي؟

أقول: نجد في النص التالي الاجابة عن هذا السؤال وتفسير هذه العلاقة العكسية بين الغني على هذا المفهوم وذاك، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الغنيُّ الشَرِهُ: فقير»[٢].

والمقصود في هذا النص من «الغنيّ» هو الغني بالمقياس الموضوعي، والمقصود من «الفقير» الفقير بالمقياس النفسي «الذاتي».

وكلمة «الشَرَه» المتوسطة بينهما تفسر هذه العلاقة، فان الغني بالمفهوم الشائع عند الناس يلازم الشَرَه غالباً، وعندما يزداد حظ الإنسان من الدنيا يزداد شَرَهُهُ وحرصه عليهما عموماً، وهذه هي المعادلة الأولى.

وكلما يزداد شَرَهُ الإنسان وحرصه يزداد عذابه وقلقه ومعاناته، وهذه هي المعادلة الثانية.

وإلى هاتين الحقيقتين يشير القرآن الكريم: يقول تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ)[٣]، ويقول تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ)[٤]. والشّره هو سبب هذا العذاب في نفوس هؤلاء.

---

(١) الخصال للصدوق: ٦٤. وبحار الأنوار ٧٣/ ٩٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٨: ٢٢ و ١٠. والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ١١٨٧ ط ١٤٢٢ دار الحديث/قم.

(٣) التوبة: ٥٥.

(٤) التوبة: ٨٥.

والشَرَه والحرص من أقوى حالات الفقر الروحي، وأشد حالات الفراغ النفسي، وهي الحالة التي كان الناس عليها في عصر النبي داود عليه السلام لمّا أمرهم الله تعالى برحلة التوبة والعود إليه تعالى.

وتعكس الآية الكريمة التالية من سورة «ص» عمق هذا الشره النفسي: ﴿إِنَّ هٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[1].

الانقلاب في نظام التقييم:

إذن فقد استحدث الإسلام معنىً جديداً للغنى، وحوّل الغنى في هذا المعنى الجديد من محور النقد والعين والعقار، إلى محور النفس، وقلب بذلك التقييم من محور المال إلى محور النفس.

فليست قيمة الإنسان في الإسلام بما يملك من النقد والعين والعقار، كما هي كذلك عند الناس في الأعراف الجاهلية، وإنّما يضع الإسلام قيمة الإنسان على أساس الإيمان بالله تعالى والتقوى والعلم والقيم الاخلاقية، من دون أن ينفي المعنى الشائع عند الناس «المعنى الاقتصادي» للغنى والفقر، ولكن الجديد الذي يطرحه الإسلام هو فكّ نظام التقييم من المعنى الاقتصادي للغنى والفقر، وربط هذا النظام بالمعنى الجديد لهما الذي استحدثه الإسلام.

والآن تأملوا في هذه الكلمة العلويّة التي تختزل كل هذا الانقلاب الذي شرحناه في نظام التقييم بكلمة موجزة:

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس الخير أن يكثر مالك، ولكن الخير أن يكثر علمك،

---

(١) سورة ص: ٢٣.

وأن يعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربّك، فإن احسنت حمدت الله، وأن أسأت استغفرت الله»[١].

وهذا الانقلاب في القيم يستتبع بطبيعة الحال انقلاباً في المواقع الاجتماعية والسياسية، فإن «التقييم» في كل حضارة يرتبط من جهة بنظام التقييم، ومن جهة أُخرى بالمواقع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية.

فإذا كنا نلاحظ في الحضارة الجاهلية الغربية المعاصرة نفوذ رأس المال وسيطرته على المواقع السياسية والاقتصادية والاعلامية، ودور رأس المال الكبير في انتخابات رؤساء الجمهوريات، وسيطرته الكاملة على وكالات الانباء، وأجهزة الاعلام، والقرار السياسي، فإن سبب ذلك في رأينا هو أن هذه الحضارة قائمة على أساس التقييم بالمادة، وليس بالقيم الاخلاقية والروحية.

والأمر في الإسلام بالعكس تماماً، فإنّ التقييم يقوم على أساس القيم الأخلاقية والروحية، وعلاقة الإنسان بالله تعالى والعدالة والتقوى والعلم، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣]. فيشترط التقوى والعدالة في إمام المسلمين، وفي القاضي الذي يقضي بينهم، وفي الإمام الذي يؤمّهم بالصلاة، وفي الأمين الذي يأتمنه المسلمون على أموالهم، وفي الشاهد الذي يشهد عند القاضي، وفي القيّم الذي يتولّى أمور الأيتام والأوقاف،

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة رقم/ ٢٠، ١١٢٨. وكشف اللثام للفاضل الهندي ١١/ ٥٢٤، ومستدرك وسائل الشيعة ١٢/ ١٢١، وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٤١١، وبحار الأنوار ٩/ ٣٨ و٦٩/ ٤٠٩.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) الحجرات: ١٣.

وفي سائر المواقع الاجتماعية والسياسية والدينية، ولذلك فإن هذا الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في القيم يستتبع بطبيعة الحال انقلاباً شاملا آخر في المواقع السياسية والاقتصادية والعلمية والدينية والاجتماعية.

وهكذا يتدرّج الأمر في تسلسل طبيعي:

١ - انقلاب في نظام التقييم.

٢ - انقلاب في التقيم والقيم.

٣ - انقلاب في المواقع السياسية والاجتماعية.

والآن، وبعد هذا التوضيح لهذا المصطلح الجديد الذي استحدثه الإسلام ودوره في حياة الناس، نستطيع أن ننصرف إلى الحديث عن «غنى النفس» الوارد في الحديث القدسي الشريف «جعلت غناه في نفسه».

غنى النفس

ما هو غنى النفس؟ وكيف نكسب الغنى لأنفسنا؟

ان غنى النفس هو أن يفكّ الإنسان ثقته عن المادة والدنيا ويربطها بالله تعالى، فإن الدنيا سريعة الزوال، والله تعالى لا يزول، والمادة محدودة، ولا حدود لسلطان الله تعالى وعظمته.

وعندئذ يكون الإنسان غنياً بتوكّله على الله تعالى وثقته بالله، فلا يضعف ولا يهتز، ولا يتزلزل مهما تغيرت ظروفه وتقلّبت به الأحوال من يسر إلى عسر، ومن رخاء إلى شدّة، ومن سرّاء إلى ضرّاء، ذلك أن غنى هؤلاء في أنفسهم، ولا يفارقهم في حال.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور»[١]،ذلك أن الغنى كامن في عمق نفوسهم، لا يمكن أن ينتزعه عن نفوسهم حال أو ظرف، وغناهم في إيمانهم بالله، وثقتهم به، وتوكّلهم عليه، ورضاهم بحكمه، وهذا هو الغنى بالله والذي لا غنى بعده ولا يغيّره ظرف أو حال.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أباذر استغن بغنى الله تعالى، يغنك الله»[٢].

وعن علي عليه السلام: «الغنى بالله أعظم الغنى، والغنى بغير الله أعظم الفقر والشقاء»[٣].

وبناءاً على هذا المعيار في فهم «الغنى» و«الفقر» يكون غنى الإنسان أكثر كلّما تكون ثقته بالله تعالى أعظم، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن أحبّ أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه مما في يده»[٤].

وليس معنى الثقة بالله تعالى إلغاء الاسباب المادية، فإنّ إلغاء الاسباب المادية خروج على سنن الله تعالى، ويرفضه الإسلام، وإنما معنى الثقة بالله الركون والاطمئنان بالله تعالى دون غيره، مهما كانت الاسباب التي يستخدمها لتحقيق غاياته.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٣ (خطبة المتقين) التي ألقاها الامام عليه السلام استجابة لطلب همام رضي الله عنه.

(٢) مكارم الاخلاق: ٤٦٩ ط ١٣٩٢ (الشريف الرضي) وبحار الأنوار ٧٧/ ٨٨، ومستدرك الوسائل ١٥/ ٢٢٧، وأعلام الدين للديلمي: ٢٠٠.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ٩١ و٩٢. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٥٤.

(٤) تحف العقول: ٢٦. وكشف اللثام للفاضل الهندي ١١/ ٥٣٠ و٢/ ٥٣٢، والكافي للكليني ٢/ ١٢٩ (دار الكتب الاسلامية)، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤٢٦، ووسائل الشيعة ١٥/ ٢٤١ (الاسلامية)، ومستدرك الوسائل ١٥/ ٢٢٢.

العوامل التي تكسب الإنسان الغنى في النفس:

العوامل التي تكسب الإنسان الغنى كثيرة، ونحن نذكر فيما يلي أهم هذه العوامل:

١ - اليقين بالله تعالى: وهو أعلى درجات الغنى، فإن الإنسان إذا تيقّن برحمة الله تعالى بعباده ولطفه بهم واستجابته لدعائهم، وتيقّن بأن الله رزاق رؤوف رحيم، وأن رحمته موصولة ومتصلة لا تنقطع، ولا تنفدُ خزائن رحمته، ولا تزيده كثرة العطاء إلاّ كرماً وجودا، فلا يكاد يشعر بالفقر والضياع أبداً.

وإنّما يشعر الإنسان بالفقر إذاعدم هذا اليقين، ولم يبلغ إيمانه بالله تعالى حد اليقين، وهو أعلى مستويات الإيمان، وأعزّ ما يرزق الله تعالى عباده من رزق، وهذا اليقين هو مفتاح الغنى.

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مفتاح الغنى اليقين»[1]، وليس ما وراء هذا الغنى غنى للإنسان.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «كفى باليقين غنىً، وبالعبادة شغلا»[2].

٢ - التقوى: وهي من أهم عوامل الغنى، فإن الإنسان إذا التزم بحدود الله تعالى وتقيّد بها، أشعره الله تعالى بالغنى في نفسه، وطرد عن نفسه الفقر.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كفى بالتقى غنى»[3].

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ٩.

(٢) الكافي ٢: ٨٥ وفقه الرضا لعلي بن بابويه: ٢٨١ ط ١٤٠٦ ـ مشهد، والمحاسن لمحمد بن خالد البرقي ١/ ٢٤٧ ط ١٣٧٠ (الاسلامية) والكافي للكليني ٢/ ٨٥ وكتاب التمحيص للاسكافي ٦١ ط (مدرسة الامام المهدي ـ قم)، ووسائل الشيعة ١/ ٦٢ (الاسلامية).

(٣) تحف العقول: ٣٠.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «يا جابر إن أهل التقوى هم الأغنياء، أغناهم القليل من الدنيا، فمؤنتهم يسيرة، ان نسيت الخير ذكّروك، وإن عملت به أعانوك، أخروا شهواتهم ولذّاتهم خلفهم، وقدّموا طاعة ربّهم أمامهم»[١].

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أخرجه الله تعالى من ذل المعاصي إلى عزّ التقوى، أغناه الله بلا مال، وأعزّه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس»[٢].

وهذا النص واضح ودقيق فيما ذكرناه من المعنى لغنى النفس، وإن الغنى في النفس يتم من غير مال، كما يكون الإنسان عزيزاً بالله من غير عشيرة، ويدفع الوحشة عن نفسه بالله من دون أنيس، والتقوى مصدر الغنى، والعزّ، والأُنس في نفس الإنسان ، فإنّ الإنسان إذا اتّقى الله والتزم بحدوده وأحكامه، رزقه الله تعالى الغنى في نفسه، وطرد عنه الفقر، والذّل، والوحشة.

وقد ورد في الحديث القدسي الذي نحن بصدده: «لا يؤثر هواي على هواه إلاّ جعلت غناه في نفسه»[٣]، ومخالفة النفس هو التعبير السلبي عن التقوى في مقابل الوجه الإيجابي للتقوى وهو امتثال حدود الله تعالى.

٣ - الوعي والتعقّل: وإذا كان اليقين والتقوى هما مفتاحا الغنى، فإن الوعي هو مفتاح اليقين والتقوى والسبيل اليهما، ولا يتخلّف الإنسان عن الوعي والتقوى إلاّ بالجهالة وانعدام الوعي، والوعي هو «التعقّل».

وقد ورد في النصوص الإسلامية هذا المعنى بصورة متكرّرة.

---

(١) تحف العقول: ٢٠٨. وموسوعة أحاديث أهل البيت للشيخ هادي النجفي ١٠/ ٨٠.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ١٩١. ومن لا يحضره الفقيه ٤/ ٤١٠، والامالي للشيخ الطوسي: ١٤٠.

(٣) قد ذكرنا مصادره تفصيلا في أول الكتاب، فراجع.

عن علي عليه السلام: «لا غنى مثل العقل، ولا فقر أشدّ من الجهل»(١).

وعنه عليه السلام: «إن اغنى الغنى: العقل»(٢).

وعنه عليه السلام: «غنى العاقل بعلمه، وغنى الجاهل بماله»(٣).

وعن الإمام الكاظم عليه السلام في حديثه المعروف لهشام: «يا هشام: من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرّع إلى الله في مسألته بأن يكمل عقله»(٤).

آثار الغنى في حياة الإنسان:

لغنى النفس مكاسب عظيمة في حياة الإنسان ، والإنسان الذي أغناه الله تعالى في نفسه يشعر بارتباط دائم بالله، ويحس بمعيّة الله تعالى له، وأنّه لا تفارقه رعاية الله وتسديده وتأييده له في حال من الأحوال، فيعيش مطمئناً بالله تعالى، واثقاً بتأييده وتسديده له، وبأنّ الله لن يتخلّى عنه، ولن يكله إلى نفسه في حال من الأحوال.

فيشعر في أعماق نفسه بثقة مطلقة وطمأنينة بالله، وثبات، واستقرار، وراحة القلب والضمير، لا يكاد يعاني من حرص أو حسد أو جشع أو طمع أوقلق، فان هذه الاعراض جميعاً من أعراض فقر النفس، وقد مرّ علينا قبل قليل حديث الإمام

(١) تحف العقول: ٢٠١ ط ١٤٠٤ جماعة المدرسين ـ قم، العقل والجهل في الكتاب والسنة/ ٥٩، وروضة الواعظين: ٨ وغرر الحكم/ ١٠٤٧٢.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة: ٣٨. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ١٦٠، ونهج السعادة ٧/ ١٢٧ و٨/١٩٢، ودستور معالم الحكم لابن سلامة: ٢١ ، وكنز العمال للمتقي الهندي ١٦/ ٢٦٦.

(٣) غرر الحكم للآمدي ٢: ٤٧، ح/ ٦٢٨١، والعلم والجهل للري شهري: ١٢٦.

(٤) تحف العقول: ٣٨٨، والكافي للكليني ١/ ١٨، ومستدرك الوسائل ١٣/ ٣٤، و١٥/ ٢٢٤.

الكاظم عليه السلام لهشام في هذا الصدد.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيراً»(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أشرف الغنى، ترك المنى»(٢).

وعنه عليه السلام: «الغنى الاكبر: اليأس عمّا في أيدي الناس»(٣).

والمال إذا لم يكن معه غنى النفس، فهو مصدر قلق وعذاب للإنسان يزيد من حرصه وقلقه وعذابه، يقول تعالى: **(إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ)**(٤). ويقول تعالى: **(إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ)**(٥).

---

(١) الكافي ٢: ٣١٦. ووسائل الشيعة ١١/ ٣١٨، وجامع الاحاديث ١٤/ ٢٩ .

(٢) الكافي ٨: ٢٣. ونهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة/ ٣٤، ومن لا يحضره الفقيه ٤/ ٣٨٩.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة: ٩٣٤٢.

(٤) التوبة: ٥٥.

(٥) التوبة: ٨٥

٢ـ ضمنت السماوات والأرض رزقه

هذه هي الفقرة الثانية من جزاء الذين يؤثرون هوى الله تعالى على هواهم، ويحكّمون حكم الله تعالى وارادته على أهوائهم وإرادتهم.

هؤلاء يجزيهم الله تعالى بأن يجعل غناهم في أنفسهم أولاً، وقد تحدثنا عنه بتفصيل. وثانياً: يضمّن السماوات والأرض رزقه، وهذه هي الفقرة الثانية التي نتحدث عنها الآن، ولسنا نحتاج إلى توضيح: أن هذه الفقرة ليست بمعنى أن يهمل الإنسان السعي إلى الرزق، بل معنى ذلك أنّ الله تعالى يوفّقه في سعيه وحركته.

التوفيق:

وهذا التوفيق هو الذي يضمّنه الله تعالى السماوات والأرض للمؤمن، أي يجعل السماوات والأرض ضامناً لرزق المؤمن وتوفيقه، والسماوات والأرض في الحديث القدسي بمعنى كل الاسباب المادية في الكون، فلربّ سعي للإنسان يذهب سدىً ولا يأتيه بثمرة، وقد يطوي الإنسان سنين من عمره في حركة دائبة وسعي متواصل ثم لا يبلغ ما يريد، ولربّ عمل صغير وجهد متواضع يؤتي ثماراً طيبة مباركة، وهذا وذاك من «سوء التوفيق» و«حسن التوفيق» والله عزّ وجلّ هو ولي التوفيق.

والذي تضمنه السماوات والأرض بأمر من الله تعالى، من رزق المؤمن الذي يؤثر هوى الله تعالى على هواه هو التوفيق.

ومعنى «التوفيق» أن الله تعالى يجعل سعيه وحركته في الموضع النافع، كالمطر الذي ينزل على تربة خصبة صالحة، فلرب مطر ينزل على الأرض دون أن تنبت الأرض، ودون أن تأتي بثمر، ولربّ مطر قليل ينزل على تربة صالحة في الوقت المناسب ويأتي بخير كثير ويصلح الأرض.

وهذا هو التوفيق، وهو أمر آخر لا علاقة له بسعي الإنسان وحركته.

وحتى لو كان الإنسان يملك شطراً من الأسباب المادية، فإن ما يغيب عنه وما يعجز منه من أسباب التوفيق أضعاف ما يملكه منها، وكلها بيد الله تعالى، فإذا وفّق الله تعالى عبداً كانت حياته وجهده وعمله مباركاً.

يقول القرآن عن لسان المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[1].

وما لم يوفّق الله تعالى عبداً ويُرد به خيراً فإنه لا ينال من أسباب الخير بجهده وعقله إلاّ القليل، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا ينفع اجتهاد بغير توفيق»[2]. فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً وفّقه ووضع جهده في موضعه من أسباب النجاح والفلاح فيكون جهده مثمراً.

يقول الإمام علي عليه السلام: «خير الاجتهاد ما قارنه التوفيق»[3].

وقد ورد في الحديث: إن «التوفيق أشرف الحظّين»[4]، ويقصد به حظ الإنسان من أسباب السعادة والخير التي ينالها بجهده وعقله، وإمكاناته التي أعطاها الله تعالى له، وهو أحد الحظّين وأقلّهما شأناً، والحظ الآخر هو أن يهدي الله تعالى عبده لما يغيب عنه من أسباب الخير، أو لما لا تناله يده من أسباب الخير، ويضعه في موضع أسباب السعادة والخير، وهذا هو الحظ الثاني وهو أشرفهما كما في الحديث.

ولا شك في أن «التوفيق» عامل غيبي من الخارج، يضع الإنسان في مواضع الخير وأسبابه، وهو شيء آخر غير الامكانات العقلية والفطرية والقوة التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، فإنّ هذه الإمكانات التي أودعها الله تعالى في الإنسان، لا

---

(١) مريم: ٣١.

(٢) غرر الحكم للآمدي ٢: ٣٤٥. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي: ٥٤٠.

(٣) غزر الحكم للآمدي ٢: ٣٥١. وعيون الحكم والمواعظ: ٢٣٩.

(٤) غرر الحكم للآمدي ١: ٨٢، ومحاسبة النفس للكفعمي: ٨٥.

تستطيع لوحدها أن تنهض بالانسان وتقوده إلى أسباب الخير وتجنّبه أسباب الشرّ، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً أعانه على صرف جهده وإمكاناته في مواضعها من الخير، وفي الحديث التالي إيضاح كاف لهذه الحقيقة:

روي أن رجلا سأل الصادق عليه السلام.

فقال: يا ابن رسول الله! ألست أنا مستطيعاً لما كُلِّفْت؟

فقال له عليه السلام: «ما الاستطاعة عندك؟».

قال: القوة على العمل.

قال له عليه السلام: «قد أُعطيت القوة، ان أعطيت «المعونة».

قال له الرجل: فما المعونة؟

قال عليه السلام: «التوفيق».

قال (الرجل): فلم إعطاءُ التوفيق؟

قال (الإمام) عليه السلام: «هل تستطيع بتلك القوة دفع الضرر عن نفسك، وأخذ النفع إليها بغير العون من الله تبارك وتعالى»؟

قال: لا.

قال عليه السلام: «فَلَم تنتحل ما لا تقدر عليه؟»

ثم قال: «أين أنت من قول العبد الصالح: (وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ)[1].

وهذه الرواية تصنف القوى العاملة والمؤثرة في حياة الإنسان إلى ثلاثة أصناف:

١ - القوانين الطبيعية والاجتماعية «سنن الله» من الخير والشرّ، ففي هذا الكون

---

(١) بحار الأنوار ٥: ٤٢ والآية الكريمة (وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) سورة هود:٨٨، وفقه الرضا لعلي بن بابويه: ٣٥١.

الواسع خير وشر خلقه الله تعالى، والانسان يطلب الخير ويدفع عن نفسه الشر.

٢ - القوى التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان وجوارحه والتي يستعملها للوصول إلى أسباب الخير والاحتراز عن اسباب الشر في الطبيعة والمجتمع.

٣ - والتوفيق والعون الإلهي الذي يهدي به الله تعالى عباده إلى أسباب الخير، ويعينهم عليها ويأخذ بأيديهم إليها، لينالوا منها ما كان يغيب عنهم، أو ما كانت أيديهم تقصر عنه، ومن دون هذا الاخير لا ينال الإنسان شيئاً من الخير.

روى الكراجكي في «الكنز» قال: قال الصادق عليه السلام: «ما كل من نوى شيئاً قدر عليه، وما كل من قدر على شيء وُفّق له، ولا كل من وفّق لشيء أصابه، فإذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والاصابة فهنا لك تمّت السعادة»[1].

والاصابة ضرب من التوفيق وهو التوفيق في التوفيق.

و«التوفيق» من الأبواب الواسعة لمعرفة الله، والإنسان يهتدي إلى الله من أبواب كثيرة من أعظمها ثلاثة:

١ - الفطرة.

٢ - العقل «الأدلّة العقلية».

٣ - التعامل مع الله تعالى.

والاخير «التعامل مع الله» باب واسع للمعرفة يلجه ذوو البصائر من الناس، ويهب الإنسان من الإيمان والثقة والطمأنينة والاتكال ما لا تهبه الفطرة ولا العقل، فإن الإنسان من خلال التعامل مع الله يشعر بقرب الله تعالى منه ومعيّته له... ومن خلال

---

(١) بحار الأنوار ٥: ٢٠٩ ـ ٢١٠. والارشاد للشيخ المفيد ٢/ ٢٠٥ ط ١٤١٤ دار المفيد ـ لبنان، وكنز الفوائد للكراجكي: ١٩٥، ومشكاة الأنوار للطبرسي: ٥٧٦.

مراقبة مواقع تأييد الله تعالى وتوفيقه له ومعيّته له في السراء والضراء يزداد إيماناً بالله تعالى وثقة به وتوكلاً عليه.

وللتوفيق الإلهي في حياة الإنسان أسباب وقوانين وأُصولٌ، وليس أمراً عفوياً في حياة الناس، فمن أنعم الله تعالى عليه بالتوفيق لا بدّ أن يكون أهلا وموضعاً لهذه الرحمة الإلهيّة، ومن سلب الله تعالى عنه التوفيق ووكله إلى نفسه، فلا بد أن يكون ممن أضاع هذه الفرصة على نفسه، فلم يعد بعد موضعاً لنزول هذه الرحمة.

فليس في رحمة الله تعالى شحٌّ أو بخلٌ، ولا نفاد لخزائن رحمته، وانما ينعم من الناس من ينعم بالتوفيق الإلهي، ويحرم من يحرم من الناس من توفيق الله، وتختلف درجات الناس وحظوظهم من توفيق الله على قدر استحقاقهم وأهليّتهم وسعة وعائهم النفسي. فليس من الصدفة أن يهتدي الحرّ وزهير (رحمهما الله) فيلتحقان بالركب الحسيني من الموقع المناوئ لهذا الركب، وليس من الصدفة ان يقرر عمر بن سعد ان يستجيب لطلب ابن زياد في قتال الحسين ﷺ، فإن لهذا وذاك من (التوفيق)، و(سوء التوفيق) اسباباً في سلوك الإنسان ونفسه

والتوفيق من أبواب رحمة الله تعالى، ينزل على عباد الله بقدر وعاء نفوسهم، ويحرم الذين خسروا أنفسهم من هذه الرحمة الإلهية رأساً، والإنسان هو الذي يحدد حجم وعاء نفسه بجهده وعمله [1].

وهذا هو دور العامل الغيبي في مسألة الرزق، والرزق من عالم الشهود، وعامل التوفيق من عالم الغيب.

---

(١) مقتبس بتصرف من كتاب «المذهب التاريخي في القرآن للمؤلف»: ٤٠ ـ ٤٩.

العلاقة بين عالم الغيب والشهود

من المسائل الأساسية في الفكر الإسلامي مسألة «الغيب» وعلاقة الغيب بالشهود، والناس يختلفون في هذه المسألة اختلافاً شديداً، فمن الناس من ينفي عالم الغيب نفياً كاملا، ومنهم من يعترف بالغيب في مقابل «الشهود» ولكن ينفي العلاقة بين «الغيب» و«الشهود».

والإسلام يؤمن بالغيب ويدعو إلى الإيمان به، ويجعل الإيمان بالغيب الشرط الأوّل للإسلام.

(الم*ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)(١).

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)(٢).

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ)(٣).

ثم يربط بين عالم «الغيب» وعالم «الشهود» ويقرّر أن بين هذين الأفقين الرحيبين من الوجود جسوراً كثيرةً تربط بينهما، ويقرر أنّ كل واحد منهما يؤثّر في الآخر، الغيب يؤثر في الشهود وعالم الحس، والشهود يؤثّر في الغيب.

وإنّ لتقوى الله وخشيته بالغيب، والكفّ عن المعاصي تأثيراً مباشراً على حياة الإنسان المادية، وتيسير العسير من أمر حياته ومعاشه، وفتح أبواب المعيشة والرزق، يقول تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ

---

(١) البقرة: ١ ـ ٣.

(٢) الأنبياء: ٤٩.

(٣) يس: ١١.

يَحْتَسِبُ)[١]. (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً)[٢].

هذا في علاقة عالم الشهود بعالم الغيب. وفي الاتجاه المعاكس في علاقة عالم الغيب بعالم الشهود:

روي عن رسول الله ﷺ: «لولا الخبز ما صلّينا»[٣].

وعنه ﷺ : «وبه (الخبز) صلّيتم وبه صمتم»[٤].

وعنه ﷺ: «فلولا الخبز ما صلّينا ولا صمنا، ولا أدّينا فرائض ربّنا عزّ وجلّ»[٥].

وهذا من علاقة الغيب بالشهود، بعكس الحالة الأولى.

دور العامل الغيبي في تفسير التاريخ:

ولوجود هذه العلاقة المتينة بين عالم الغيب وعالم الشهود، يعتبر القرآن «الغيب» عاملا من أهم عوامل حركة التاريخ، وينفي النظرية المادية في تفسير التاريخ، وينفي أن يكون العامل المادي هو العامل الوحيد لحركة التاريخ، بل قد يتحرّك التاريخ بعكس الاتجاه الذي يتطلبه العامل المادي.

تأمّلوا هذه الآيات من كتاب الله: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) الطلاق: ٢ ـ ٣.

(٢) الطلاق: ٤.

(٣) الكافي ٥: ٧٣. وشرح أصول الكافي للمازندراني ٢/ ٩، وتفسير السمعاني ٤/ ١٣٢.

(٤) الكافي ٦: ٣٠٣. ووسائل الشيعة ١٦/ ٥١٢، وبحار الأنوار ٦٦/ ٢٧٢.

(٥) الكافي ٥: ٧٣. والمحاسن لمحمد بن خالد البرقي ٢/ ٥٨٦، ووسائل الشيعة ١٦/ ٤٦٢.

وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)[١].

إنّ النقطة الأولى في دور العامل الغيبي في حركة التاريخ في هذه الآية المباركة هي أن النصر من عند الله، والعوامل المادية مُعدّات للنصر، والله تعالى هو وحده واهب النصر (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ). وهذه نقطة حاسمة في فهم حركة التاريخ، والنقطة التي تفترق عندها النظرية الإسلامية عن النظريات المادية.

والنقطة الثانية: انتكاسة «حُنين» جاءت على خلاف ما تقتضيه «الكثرة العددية» التي هي من عوامل النصر في التفسير المادي للتاريخ.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ)[٢].

والنقطة الثالثة: نزول السكينة من عند الله على رسوله وعلى المؤمنين في ساحة المواجهة والقتال، وهذه السكينة التي طمْأَنَتْهُم سَاعةَ الشدة، وثَبّتت أقدامَهم على أرض المعركة، وانتزعت من قلوبهم الخوفَ والهزيمةَ والقلقَ... كانت من عند الله فقط، وأنزل الله تعالى جنوداً لم يروها، يهزمون الكفار من أمامهم وينشرون الرعب في صفوف الكفّار، ويثبتون قلوب الذين آمنوا في مواجهة أعدائهم.

ثم نقرأ هذه الآيات المباركات من سورة آل عمران:

(بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ هذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَف مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم

---

(١) التوبة: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) التوبة: ٢٥.

بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[١].

هذا الامداد الغيبي في ساعة الشدّة والبأس بخمسة آلاف من الملائكة حسم المعركة لصالح المسلمين، وبعث الله الطمأنينة بهم إلى قلوب المؤمنين، وجعلهم بشرى لهم في أشدّ الساعات وأحرجها.

ثم تقرر الآية هذا المبدأ الحاسم والنقطة الفارقة في فهم حركة التاريخ بين الإسلام والمادية: (وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[٢].

كما تقرر سورة آل عمران أيضاً في الدروس التي يعطيها القرآن للمؤمنين عقيب انتكاسة أُحد: (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ)[٣].

إنّ هذا الاستعلاء في ساحات المعركة نابع عن الإيمان بالله أولا، وقبل كل شيء، ثم عن العوامل المادية الميدانية التي تتطلّبها ضرورات المواجهة في ساحات القتال.

ونقرأ في سورة الأعراف في نفس المضمون:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[٤]، هذه البركات يفتحها الله تعالى على عباده من السماء والأرض بالايمان والتقوى قبل أي شيء ثم بالعوامل المادية التي تتطلبها هذه البركات.

هذا من الجانب الإيجابي في علاقة الإيمان والتقوى بالنصر والدعم في ساحات

---

(١) آل عمران: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) آل عمران: ١٢٦.

(٣) آل عمران: ١٣٩.

(٤) الأعراف: ٩٦.

المواجهة العسكرية، وفي الازدهار والعمران واليسر والرزق في ساحات الحياة المدنية.

وبالعكس أيضاً تصحّ هذه العلاقة في ارتباط سقوط الحضارات وهلاك الامم بالسيئات والموبقات وتجاوز حدود الله تعالى والتمرّد عليه.

ولنتأمل في هذه الايات المباركات من سورة الأنعام: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ)(١).

والهلاك والسقوط هنا بالذنوب والسيئات والمعاصي، وهو الأمر الذي تهمله المادية من الحساب في تفسير سقوط الحضارات، ويعطيه القرآن الدور الأوّل في تفسير التاريخ.

ثم نقرأ في نفس السورة هذه الآيات المباركات التي ترسم لنا «الدورة التاريخية» بصورة كاملة: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(٢).

وهذه ثلاث مراحل من تاريخ الامم من الولادة إلى الهلاك، والتفاعل فيها بين

---

(١) الانعام: ٦.

(٢) الانعام: ٤٢ ـ ٤٥.

الغيب والشهود أوضح الاشياء في هذه الآيات.

المرحلة الأُولى: مرحلة «الابتلاء» وفي هذه المرحلة يقوّم الله تعالى عود الأُمة، ويعطيها الصلابة والقوة.

وإنّ «السيئات» في هذه المرحلة تستنزل البلاء، والتضرّع إلى الله يكشفان البلاء (فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ). (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)(١).

وهذه العلاقة قائمة بين الغيب والشهود «السيئات ← نزول البلاء» «التضرع والإيمان ← ارتفاع البلاء» وهذه العلاقة هي التي لم يهتد إليها الفكر المادي، وهدانا الله تعالى إليها في كتابه.

والمرحلة الثانية: مرحلة «الاستدراج والاملاء» والعلاقة في هذه المرحلة بين الغيب والشهود واضحة، فإنه مع الاسترسال في المعاصي والانغماس في السيئات، وعدم الاعتبار بالمصائب والنوازل في مرحلة الابتلاء، قد يفتح الله أبواب النعمة والرزق على الناس، ولكن النعمة في هذه المرحلة نقمة وليست رحمة، ويريد الله تعالى لهم أن يتمادوا في غيّهم ليأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)(٢).

المرحلة الثالثة: مرحلة السقوط والمحق (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(٣).

والحمد هنا على النقمة وليس على النعمة، وعلى المحق والهلاك وليس على

---

(١) الدخان: ١٢.

(٢) الأنعام: ٤٤.

(٣) الأنعام: ٤٥.

نعمة الحياة والله تعالى يُحمد على الانتقام من الظالمين كما يُحمد على الرحمة بالمؤمنين المستضعفين.

والعلاقة بين الغيب والشهود في هذه المرحلة لا تختلف عن المراحل السابقة، فإن الأمة تبطر وتطغى وتستكبر على وجه الأرض، وتفرح فينزل عليها عذاب الاستئصال والمحق (**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ**)[1].

إذن فالعامل الغيبي، في النظرية الإسلامية عنصر من أهم عناصر حركة التاريخ.

العوامل الغيبية لا تنفي العوامل المادية:

وليس معنى ما سبق من تأثير العامل الغيبي في حركة التاريخ في النظرية الإسلامية أن الإسلام ينفي دور العامل المادي في حياة الفرد والمجتمع، فإن الإسلام يؤمن بالعامل المزدوج «الغَيبي + المادي» في تفسير التاريخ، ويرفض تفسير التاريخ بالعامل الواحد، سواءً كان هذا العامل مادياً أم معنوياً، والإنسان في التعامل مع الكون يجب أن يتعامل مع كل من هذين العاملين.

العلاقة بين التقوى والرزق:

والآن بعد هذه الجولة في العلاقة بين الغيب والشهود نأتي إلى شرح هذه الفقرة من الحديث القدسي: «لا يؤثر عبد هواي على هواه إلاّ ضمنت السماوات والأرض رزقه». ولا نحتاج بعد التوضيح الذي قدمناه للعلاقة بين عالم الغيب والشهود إلى جهد كثير لنعرف العلاقة بين «تقوى الله» وهي من الامور الغيبية والمعنوية،

---

(١) الأنعام: ٤٤.

و«الرزق» وهو من الامور المحسوسة من عالم الشهود.

وهذه المسألة من واضحات المسائل في الثقافة الإسلامية، فإن التقوى باب واسع من أبواب رحمة الله تعالى، وبالتقوى يستنزل الإنسان الرزق من عند الله، وبالتقوى تنزل الأمطار وتنفرج الأزمات، وبالتقوى يستنزل الإنسان النصر من عند الله تعالى، ويفتح مغاليق الابواب المقفلة، وبالتقوى يجعل الله تعالى للناس فرجاً ومخرجاً من مضايق الحياة، يقول تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيء قَدْراً﴾[١] ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أن السماوات والأرض كانتا رتقاً على عبد ثم اتقى الله لجعل الله له منهما فرجاً ومخرجاً»[٣].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطابه لأبي ذر لما أُبعد إلى الربذة: «يا أبا ذر؛

---

(١) الطلاق: ٢ ـ ٣.

(٢) الطلاق: ٤.

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٥. وروى ابن أبي شيبة هذه الرواية في المصنَّف بالصورة التالية:
حدّثنا ابن علية عن هشام عن الحسن، قال: كتب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفاري، وهو على خراسان، أن أمير المؤمنين (يعني معاوية)، كتب ان يصطفي له البيضاء والصفراء، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضّة. فكتب إليه: بلغني كتابك وأني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وأنه والله لو أن السماوات والأرض كانتا رتقاً على عبد ثم اتقى الله جعل الله له مخرجاً والسلام، ثم قال للناس: أغدوا على مالكم، فغدوا فقسّمه بينهم. المصنَّف لابن أبي شيبة ٧/ ٢٧١.
وروى ابن عبد البر القصة نفسها في الاستيعاب ١/ ٣٥٧، وابن الاثير في أسد الغابة ٢/ ٢٦، وفي الكامل في التاريخ ٣/ ٤٧٠، واعتقد أن الحكم اقتبس هذه الكلمة من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله.

إنك غضبت لله فارجُ من غضبت له، ولو أن السماوات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل له منهما مخرجاً»(١).

وعن علي عليه السلام: «من أخذ بالتقوى عزبت (غابت) عنه الشدائد بعد دنوّها، واحلولت له الامور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الامواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد إنصابها»(٢).

وعن الصادق عليه السلام: «من اعتصم بالله بتقواه عصمه الله، ومن أقبل الله عليه وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، وإن نزلت نازلة على أهل الأرض فتشملهم بلية، كان في حرز الله بالتقوى من كل بلية، أليس الله تعالى يقول: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)»(٣).

وعن الصادق عليه السلام: «إن الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحوّله عما يكره إلى ما يحب ويرزقه من حيث لا يحتسب»(٤).

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٠.

ذكر سبط ابن الجوزي في التذكرة: ١٦٥، أن أمير المؤمنين عليه السلام كتب إلى أبي ذر. والكتاب كما يلي:

أما بعد، يا أبا ذر، إنك غضبت لله، فاخرج من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم، فاترك لهم ما خافوك عليه، واهرب منهم لما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك، وستعلم من الرابح غداً. فلو أنّ السماوات والارض كانتا رتقاً على عبد، ثم اتقى الله، لجعل له منهما مخرجاً. لا يؤنسنك إلاّ الحق، ولا يوحشنّك إلاّ الباطل. (نهج السعادة للشيخ المحمودي ٤/١٢).

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٨. وبحار الأنوار ٧٠/ ٢٨٤.

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٥. وعدة الداعي لابن فهد: ١٨٨ .

(٤) بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٥. الكافي للكليني ٨/ ٤٩، ح/ ٩، وتحف العقول: ٢٤٠.

وكتب الإمام الجوادعليه السلام إلى سعد الخير: «إن الله عزّ وجلّ يقي بالتقوى عن العبد ما عزب عنه عقله، ويجلّي بالتقوى عماه وجهله، وبالتقوى نُجّي نوح ومن معه في السفينة، وصالح ومن معه من الصاعقة، وبالتقوى فاز الصابرون ونجت تلك العصب من المهالك»[١].

إذن، فالذين يؤثرون هوى الله تعالى على هواهم، ويقدمون أمر الله تعالى ونهيه على نزعاتهم وميولهم وأهوائهم... يُضَمّن الله تعالى السماوات والأرض رزقهم، ويتولّى شؤونهم، ولا يكلهم إلى أنفسهم ويرزقهم التوفيق في سعيهم وحركتهم.

ولست بحاجة إلى التنبيه إلى أن هذا كله لا يعني أن «التقوى» تغني عن السعي إلى الرزق، فليس من الإسلام أن يكتفي الإنسان بالتقوى عن السعي إلى الرزق، وإنما التقوى تستنزل «التوفيق» من الله تعالى على عبده، فيكون سعيه وحركته في مواضعه يؤديان به إلى مصادر الرزق من أقصر الطرق.

قصة الثلاثة الذين انقذهم الله بالتقوى:

وبالتقوى يدرأ الله تعالى الأخطار عن عباده، ويفرّج عنهم، ويزيل عنهم الكربات، وينقذهم من المهالك ومضائق الحياة.

روى محمد بن اسماعيل البخاري بسنده عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (**بينما ثلاثة يتماشون، إذ أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطّت على فم غارهم صخرة من الجبل، فاطبقت عليهم، فقال بعضهم**

---

(١) فروع الكافي ٨: ٥٢. وشرح أصول الكافي للمازندراني ١١/ ٢٧٣، وموسوعة الامام الجوادعليه السلام ٢/ ٦٦٢.

لبعض: انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعلّه يفرّجها، فقال أحدهم: اللّهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار كنت ارعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالديّ أسقيهما قبل ولدي، وإنه نأى بي السَحَرُ فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رأسيهما أكره أن أُوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدا بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر: فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فاخرج لنا فرجة نرى فيها السماء، ففرّج الله لهم فرجة حتى رأوا فيها السماء.

وقال الثاني: إنه كانت لي ابنة عم أُحبّها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسَها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله، اتّق الله ولا تفتح الخاتم إلاّ بحقّه فقمت عنها. اللّهم فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها، ففرّج لهم فرجة.

وقال الآخر: اني كنت استأجرت أجيراً بفَرَق أُرُز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقّي فعرضت عليه حقّه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً وراعيها فجاءني فقال: اتّق الله وأعطني حقّي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر وراعَيها، فقال: اتّق الله ولا تهزأ بي، فقلت: إني لا أهزأ بك

فخذ تلك البقر وراعَيها، فأخذها وانطلق بها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما بقي، ففرج الله عنهم)[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب اجابة دعاء من بر والديه ٥: ٤٠ ط مصر ١٢٨٦ هـق فتح الباري للعسقلاني ١٠: ٣٣٨ شرح القسطلاني ٩: ٥ صحيح مسلم كتاب الرقاق باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسّل بصالح الاعمال ٨: ٨٩ ط/ دار الفكر. وشرح النووي ١٠: ٣٢١ وذم الهوى لابن الجوزي: ٢٤٦.

٣ـ وكففت عليه ضيعتة

يحتمل لهذه الجملة معنيان: المعنى الأول: من الكفّ بمعنى الجمع والضمّ، والمعنى الثاني من الكفّ بمعنى المنع والدفع والصرف.

ويكون معنى هذه الفقرة من الحديث: «وكففت عليه ضيعته»: بناءاً على المعنى الأوّل: جمعت شتات أمره، ولملمت عليه ضيعته، وتولّيت شؤونه وضمنت معيشته، يقول ابن الأثير في «النهاية» في معنى «الكفّ»: ويحتمل أن يكون بمعنى الجمع، ومنه الحديث: «المؤمن أخ المؤمن يكفّ عليه ضيعته»أي: «يجمع عليه معيشته ويضمّها إليه»[1].

والمعنى الثاني للكفّ هو: المنع والصرف والدفع، يقال: «كفّه عنه فكفّ، أي دفعه وصرفه ومنعه، فاندفع وانصرف، وامتنع»[2]، ويكون معنى هذه الفقرة من الحديث بناءاً على هذا المعنى: دفعت عنه الضياع وحلت بينه وبين الضياع والتيه، وهديته وأبنْتُ له معالم الطريق.

قال العلامة المجلسي رحمه الله في «بحار الانوار» في تفسير هذه الفقرة من الحديث: «هذه الفقرة تحتمل وجوهاً: الأوّل ما ذكره في «النهاية»: أي جمعت عليه ضيعته ومعيشته، والتعدية بـ«على» لتضمين معنى البركة او الشفقة ونحوهما، أو على بمعنى «إلى»، كما أومأ إليه في «النهاية» فيحتاج إلى تضمين.

الثاني: أن يكون الكفّ بمعنى المنع، وعلى بمعنى في، والضيعة بمعنى الضياع: أي أمنع عنه ضياع نفسه وماله، وكدّه، وسائر ما يتعلّق به، ويؤيده ما سيأتي في

---

(١) النهاية لابن الاثير ٤: ٩٠.

(٢) أقرب الموارد ٢: ١٠٩٣.

رواية «الصدوق» رحمه الله: وكففت عنه ضيعته»[١].

ونحن نختار هنا المعنى الثاني، ونجده أقرب إلى سياق الحديث، وأشبه به، سيّما إذا عرفنا أن «الصدوق»ﷺ يروي الرواية نفسها بالصيغة التالية «وكففت عنه ضيعته» متعدية بـ«عن» مكان «على»، والكفّ كما ذكرنا بمعنى الدفع والمنع والصرف، وهو يختلف عن «الرفع» فإن «الدفع» بمعنى الحيلولة دون حدوث الشيء قبل حدوثه، والرفع بمعنى الازالة بعد حدوث الشيء، والدفع يشبه «الوقاية» والرفع يشبه «العلاج».

والكف بمعنى «الدفع» وليس «الرفع» فإذاً يكون المعنى: أن الله تعالى يحول دون ضياعه، ولا يسمح بضياعه، وهذا نحوٌ من الهداية، فإن الهداية على نحوين: الهداية بعد الضلال، والهداية قبل الضلال، وكلاهما من الدلالة والهداية. لكن الهداية في النحو الأوّل تتم بعد أن يتيه الإنسان ويضيع، بينما الهداية في النحو الثاني تتم دون أن يضلّ الإنسان ويضيع وبها يحفظ الله الإنسان من الضياع، وهو أقوى من النحو الأوّل.

والنصّ ينصّ على «كف الضيعة» وحماية الإنسان من الضياع، وليس على «الهداية» بعد الضلال.

ونتيجة الكفّ عن الضيعة الهداية، ولذلك فهو يأتي بمعنى الايصال إلى الغاية، لا التوجيه والتذكير.

وإليك التوضيح:

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٨٠ ـ ٨١

الهداية بمعنى الايصال والتوجيه

إن الهداية تأتي بمعنيين. بمعنى الايصال إلى الغاية، وبمعنى التوجيه والتذكير والدلالة، والأوّل هو قوله تعالى: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّـهَ يَهْـدِي مَن يَشَاءُ)[1].

ومن الواضح أن الهداية المنفية هنا هي بمعنى الايصال إلى الغاية، وهي التي تختص بالله تعالى وحده... وأما الهداية بمعنى التوجيه والتذكير فهي من مهام رسول الله ﷺ ورسالته إلى الناس، ولا يمكن أن تكون هي التي تنفيها الآية الكريمة وتخصّها بالله تعالى وحده. يقول تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[2].

ومن هذا المعنى في القرآن الكريم كلمة مؤمن آل فرعون: (يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ)[3]. وهذه الهداية هي هداية التوجيه والتذكير والدلالة، لا الايصال إلى الغاية.

والمعنى الذي يناسب هذه الفقرة من الحديث هو الهداية بمعنى الايصال، فان الهداية بالمعنى الآخر لا تكفَ بالضرورة عن الضيعة، ولا تمنع ضياع الإنسان، والهداية بمعنى الايصال هي التي تكفَ ضياع الإنسان وتؤمّن وصوله إلى الله تعالى بشكل قطعي.

كما أن السياق يناسب هذا المعنى، فإن السياق عن افضال الله تعالى الخاصة بالذين يؤثرون هوى الله على هواهم، وهو يناسب الايصال إلى الغاية، أما الهداية

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) الشورى: ٥٢.

(٣) غافر: ٣٨.

بمعنى الدلالة والتوجيه فهي من الرحمة العامة لله تعالى تعمّ المؤمنين وغيرهم، فإن التوجيه والتذكير لا يختصّ بالمؤمنين وحدهم، ولا بالذين يؤثرون هوى الله على هواهم، بل تشمل حتى أولئك الذين يؤثرون هواهم على هوى الله.

كيف يكفَ الله تعالى ضيعة عبده؟

وكفَ الضيعة يتم بالبصيرة، إن الدرجات العالية من البصيرة تكفَ ضيعة الإنسان بصورة قطعية، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً، وأراد أن يكفَ عنه ضيعته، منحه هذه البصيرة التي تكفَ عنه ضيعته، وتؤمّن له سلامة الوصول إليه تعالى، وهذه البصيرة تختلف عن الحركة العقلية إلى الله تعالى بالطريقة المنطقية والاستدلالية، وهي حركة لا يرفضها الإسلام بل يؤكّدها ويركّزها ويعمّقها، ويدعو إليها، فإن مساحة واسعة جداً من الناس يتحرّكون إلى الله تعالى بأداة العقل والمنطق، ولكنها أمر آخر غير التحرك بالبصيرة.

وأما البصيرة فهي وضوح الرؤية من دون غَبش ولا لَبْس، وهذا الوضوح في الرؤية قد يكون ثمرة من ثمرات هذه الحركة العقلية المنطقية، وقد يكون نتيجة لصفاء النفس ونقائها، والإنسان يبلغ هذه الدرجة من البصيرة بأحد هذين الطريقين: اما بالنشاط العقلي، أو بتصفية النفس وتنقيتها.

ولا يغني أحدهما عن الآخر في الإسلام، فلا بدّ أن يمارس الإنسان في طريق التكامل كلاً من هاتين الحركتين: النشاط العقلي، وترويض النفس وتصفيتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا وذاك معاً في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ

﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١]، و«التزكية» هي تصفية النفس وترويضها وتهذيبها، وهي باب واسع من أبواب المعارف الإلهية في حياة الإنسان و«التعليم» الباب الآخر.

وعلى كل، فسواءً كانت البصيرة ثمرة لحركة العقل أو تزكية النفس وتهذيبها أو هما معاً، فإنّ الله تعالى هو مصدر كل بصيرة في حياة الإنسان، ولا توجد عند غير الله، ولا تأتي من عند غير الله، وهذا وذاك بابان وقناتان للبصيرة في حياة الإنسان.

البصيرة والعمل

وعلينا أن نؤكّد مرة أخرى أن الإسلام يُقرّ كلا من «العلم» و«التزكية»، أو «العقل وتصفية النفس» لتحقيق البصيرة، ويأمر بهما، ويؤكّد أن أحدهما لا يغني عن الآخر، إلاّ أن دور عامل التزكية أقوى وأبلغ في تحقيق البصيرة، ولأمر ما يُقدّم القرآن التزكية على العلم: ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

ومن المفيد أن نقف هنا وقفة قصيرة عند كلمة «التزكية» لنجد بِمَ تتحقق التزكية، إنّ التزكية تتم في المذاهب الرهبانية بالاعتزال والفرار من الحياة ليتأتّى لطالب التزكية أن يتجنّب الاهواء والشهوات والفتن، أما في منهج التربية الإسلامية فالأمر يختلف اختلافاً كاملاً. فلا ينصح الإسلام المسلم الطالب للتزكية بالفرار من الفتن وكبت الشهوات والأهواء، وإنّما يوجهه إلى مواجهة الفتن ومقارعتها بدل الفرار، وتعديل الشهوات وتحديدها بدل الكبت.

وهذا المنهج التربوي يعتمد «العمل» أساساً للتزكية، وليس الاعتزال والرهبانية

---

(١) الجمعة: ٢.

والحرمان والكبت، وهذا «العمل» يتحول إلى بصيرة، كما أن «البصيرة» تتحول إلى «العمل»، فما هو «العمل»؟ وما هي «البصيرة؟» وما هي العلاقة بينهما؟

العلاقة بين «البصيرة» و«العمل»

تحدّثنا عن البصيرة بالإجمال، وأما «العمل» فهو كل جهد هادف يقصد به الإنسان وجه الله ورضاه، وهذا العمل له وجهان: حركة «إيجابية» باتجاه طاعة أوامر الله تعالى، وكف «سلبي» للنفس عن ارتكاب المحرمات بأمر الله وكلاهما جُهد في سبيل تحقيق مرضاة الله. إذن مقومات العمل: «الجهد» و«الهدف»، وهو ابتغاء وجه الله.

والعلاقة بين «العمل» و«البصيرة» علاقة تبادلية «جدليّة»، فتكون البصيرة مصدراً للعمل الصالح، ويكون العمل الصالح مصدراً للبصيرة، وهذا التبادل في العلاقة بين «البصيرة» و«العمل» يؤدي إلى تصعيد العمل والبصيرة بصورة تلقائية، فإن العمل الصالح يؤدي إلى زيادة البصيرة، وزيادة البصيرة تؤدي إلى تصعيد العمل الصالح، وهكذا يتصاعد العمل والبصيرة مرة بعد أُخرى حتى يبلغ صاحبهما قمة العمل والبصيرة بهما.

ولنتأمل في هذه العلاقة المتبادلة بين «العمل» و«البصيرة».

الطرف الأول ـ العمل الصالح يصدر عن البصيرة:

العمل الصالح ثمرة البصيرة، والبصيرة النافذة القوية تؤدي لا محالة إلى العمل الصالح، ولا تنفصل عنه، وإنما يكون للإنسان قصور أو تقصير في العمل لقصور أو تقصير في البصيرة، والنصوص الإسلامية تؤكد هذا المعنى، ونحن نقدم للقارئ في ما يلي باقة من هذه النصوص:

عن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عليه السلام: «الموقن يعمل لله كأنه يراه، فإن لم يكن

يرى الله فإن الله يراه»[١].

وعن علي عليه السلام: «يُستدل على اليقين بقصر الأمل، وإخلاص العمل، والزهد في الدنيا»[٢].

وعنه عليه السلام: «التقوى ثمرة الدين، وأمارة اليقين»[٣].

وعنه عليه السلام: «من يستيقن، يعملْ جاهداً»[٤].

الطرف الثاني ـ البصيرة تصدر عن العمل الصالح:

وكما تصحّ العلاقة في المعادلة الأولى فيصدر العمل الصالح عن البصيرة، كذلك البصيرة تصدر عن العمل الصالح، بالمقابل، وهذا النحو من التبادل في العلاقة أمر شائع في كثير من حقول المعارف الإسلامية.

والقرآن الكريم يؤكد علاقة البصيرة بالعمل، ودور العمل الصالح في تكوين البصيرة، وإعداد الإنسان لاستقبال البصيرة من عند الله، يقول تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[٥]، والآية الكريمة واضحة في أن الجهاد، وهو من أبرز مصاديق العمل الصالح من الاسباب التي تعدّ الإنسان لاستقبال الهداية من عند الله (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[٦]. والهداية هي البصيرة.

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ٢١. ومعاني الاخبار للصدوق: ٣٦١، ومشكاة الأنوار للطبرسي: ٤٢٤.

(٢) غرر الحكم للآمدي ٢: ٣٧٦. وجامع أحاديث الشيعة ١٤/ ١٢٨.

(٣) غرر الحكم للآمدي ١: ٨٥ وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٥٢ .

(٤) غرر الحكم للآمدي ٢: ١٦٦. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٤٥٤ .

(٥) العنكبوت: ٦٩.

(٦) رحم الله شيخنا الجليل المجاهد الشيخ عباس علي اسلامي السبزواري كنت أسمع منه كثيراً ما يقول: ان الإنسان لكي يتحرك يحتاج إلى أمرين اثنين لا ثالث لهما، يحتاج أولا إلى من يعينه على ←

وفي الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ: «لا يزال عبدي يتنفّل لي حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي يبصر به، ويده التي بها يبطش»[1].

وهذا حديث معروف، اشتهر بين المحدّثين، ورواه ثقات الرواة ومشايخ الحديث وهو من الأحاديث القدسية، وألفاظ الحديث متقاربة في طرقه المختلفة، والرواية واضحة في أن العبادة من أبواب المعرفة واليقين، ولا يزال العبد يتنفّل حتى يرزقه الله تعالى بصيرة، فيرى بالله ويسمع بالله ويعي بالله، ومن يبصر ويسمع ويعي بالله لا يخطئ في بصره وسمعه ومعرفته.

المعادلة السلبية:

وإذا كانت هذه المعادلة صحيحة في الطرفين، في علاقة العمل بالبصيرة، وعلاقة البصيرة بالعمل في البعد الايجابي، فإن هذه المعادلة نفسها تصحّ في البعد السلبي أيضا من الطرفين، فيؤدي سوء العمل «الفساد» إلى «تردّي البصيرة» و«العمى» و«الصمم»، كما يؤدي «العمى» و«الصمم» و«تردّي البصيرة» إلى «سوء

التحرك ويخفف عنه عبء الحركة ـ ويمنحه من حوله وقوته حولا وقوةً ليواصل الحركة. ويحتاج ثانياً إلى من يهديه ويدله على الطريق لئلاً يضيع ويتيه في الطريق. يحتاج إلى حول وقوة تعينه على الحركة وإلى هدي وبصيرة لتكون حركته في المسير الصحيح وعلى الصراط المستقيم. وقد وعدنا الله تعالى هذين الأمرين معاً في أخر أية من سورة العنكبوت وذلك في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾فالذين جاهدوا في سبيل الله يمنحهم الله أولا دعماً وحولا وقوةً، وهو المعيّة الإلهية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويمنحه ثانياً رؤية وبصيرة وهداية وهو قوله تعالى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

(١) أصول الكافي ٢: ٣٥٢. وقد ذكرنا مصادره بتفصيل في أول الكتاب، فراجع.

العمل والفساد» و«الذنوب» و«المعاصي» و«الظلم».

وها نحن نستعرض النصوص الإسلامية التي تنصّ على الصبغة السلبية لهذه المعادلة في طرفيها، كما تحدثنا قبل ذلك عن النصوص الإسلامية بخصوص هذه المعادلة في صبغتها الايجابية من الطرفين.

فساد العمل يؤدي إلى انعدام البصائر:

وهذا هو الطرف الأول لهذه المعادلة السلبية، والنصوص الإسلامية غنية في هذا الجانب، والقرآن يؤكّد هذه الحقيقة ويركّزها في مواضع كثيرة: يقول تعالى: (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ**)(١).

فالذين يتّخذون من دون الله آلهة، يعبدونهم ويطيعونهم، ويعصون الله ويشركون بالله، يسلبهم الله بصائرهم، ويختم على أسماعهم وقلوبهم، ويجعل على بصائرهم غشاوة، وإذا سلب الله تعالى البصيرة من عبد، فمن يهديه من بعد الله؟

ويقول تعالى: (**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ**)(٢)، وهو في سياق المعنى السابق، وإجمال للتفصيل السابق، ويقول تعالى: (**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**)(٣)، وإن الإسراف يجر الإنسان إلى الضلال، يقول تعالى: (**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**)(٤)، ويقول تعالى: (**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**)(٥).

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) غافر: ٧٤.

(٣) غافر: ٣٤.

(٤) البقرة: ٢٦.

(٥) إبراهيم: ٢٧.

إذن الفسق والظلم يؤدّيان إلى الضلال، والضلال ثمرة لهما، ويقول تعالى: (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[١]، إنّ الذنوب والمعاصي التي يكتسبها الإنسان ويستحصلها بعمله تتجمّع فتكون ريناً وصداً على قلبه، يحجبه عن الله تعالى وعن الحق، يقول تعالى:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[٢] (إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)[٣]، (إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[٤]، (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)[٥]، ويقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)[٦].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا تكثير في كلامكم، وتمزيج في قلوبكم، لرأيتم ما أرى وسمعتم ما أسمع»[٧].

وعن علي عليه السلام: «كيف يستطيع الهدى من يغلبه الهوى»[٨].

وعنه عليه السلام: «إنّكم أن أمّرتم عليكم الهوى أصمّكم وأعماكم وأرداكم»[٩].

إذن الإكثار من الكلام في الباطل والمزج والخلط بين الحق والباطل في القلوب

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) القصص: ٥.

(٣) المائدة: ٦٧.

(٤) المنافقون: ٦.

(٥) غافر: ٢٨.

(٦) الزمر: ٣.

(٧) الميزان ٥: ٢٩٢.

(٨) غرر الحكم للآمدي ٢: ٩٤. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٢٨٣.

(٩) غرر الحكم للآمدي ١: ٢٦٤. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ١٧٣.

يعمى الأبصار ويصم الاسماع:

وعن رسول الله ﷺ: «إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن أزداد زادت فذلك الرين الذي ذكره الله تعالى في كتابه (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم)(١).

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: (بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(٢).

يَكْسِبُونَ)(٢).

وهذا السواد الذي يغطّي القلب حتى يحجبه تماماً هو الذي يسلب الإنسان البصيرة، وهو تعبير عن انعدام البصيرة لدى الإنسان بما يكتسبه من الذنوب والمعاصي.

وعن الباقر عليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه، وأعلاه أسفله».

وعن علي عليه السلام: «إنْ أطعت هواك أصمّك وأعماك»(٣).

---

(١) تفسير نور الثقلين ٥: ٥٣٢، والمجازات النبوية للشريف الرضي: ٤٠٥، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤١٤، ومسند أحمد بن حنبل ٢/ ٢٩٧، والسنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٨٨، وتحفة الاحوذي ١/ ٢٥، والورع لابن أبي الدنيا: ٦٠، وتفسير الميزان للطباطبائي ٢٠/ ٢٣٧.

(٢) تفسير نور الثقلين ٥: ٥٣١. ورسائل الشهيد الثاني: ١٠٥ ط منشورات بصيرتي ـ قم، والكافي للكليني ٢/ ٢٧٢، ووسائل الشيعة ١١/ ٢٣٩ (الإسلامية) وبحار الأنوار ٧٣/ ٣٣٢.

(٣) غرر الحكم للآمدي. وروضة الواعظين للفتال: ٤١٤، والبحار ٧٣/ ٣٤٨.

فقدان البصائر يؤدي إلى فساد الأعمال:

كما كانت هذه المعادلة السلبية تصحّ في الطرف الأول «نشوء الضلال والعمى عن الفساد والمعاصي» كذلك تصحّ في طرفها الآخر «نشوء المعاصي والفساد عن الضلال والعمى» فيؤدّي «العمى» و«الضلال» و«الجهالة» و«انعدام البصيرة» إلى سيئات الاعمال والشقاء والظلم والاسراف، يقول تعالى: (**قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ**)[1]. والآية الكريمة تشير إلى العلاقة بين الضلال والشقاء ونشوء الشقاء من الضلال، ويمكن ان يكون الشقاء والضلال مقترنين مع بعض.

ويقول تعالى: (**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**)[2]. والآية الكريمة واضحة في أن الذين في قلوبهم زيغ ومرض وعمى، يتبعون ما تشابه من القرآن.

ويقول تعالى: (**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ**)[3]. والكفر انعدام البصيرة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ)[4].

وعن علي عليه السلام: «لا ورع مع غيّ»[5]. إن الغي يسلب الإنسان الورع.

ويقول عليه السلام في كتاب له إلى معاوية بن أبي سفيان: «امرئ ليس له بصر يهديه،

---

(١) المؤمنون: ١٠٦.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) النساء: ٧٦.

(٤) الأنفال: ٣٦.

(٥) غرر الحكم للآمدي ٢: ٣٤٥. وعيون الحكم والمواعظ للواسطي الليثي: ٥٣٦.

ولا قائد يرشده، قد دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتّبعه، فهجر لاغطاً، وضلّ خابطاً»(١).

وعنه عليه السلام: «من زاغ ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكر سكر الضلالة»(٢).

إن من نتائج الزيغ ان يفقد الإنسان تشخيص الحسنة من السيئة، فتنقلب عنده الحسنة والسيئة، فتكون عنده الحسنة سيئة، والسيئة حسنة. وهذه الرواية تشير إلى أن انقلاب الأعمال من الصلاح إلى الفساد من انقلاب البصائر.

العلاقة المتبادلة بين «البصيرة» والعمل في السلب والإيجاب:

إذن فيما بين «البصيرة» و«العمل» علاقة متينة وقوية ومتبادلة، سلباً وإيجاباً، بهذه الصورة:

١ - البصيرة تؤدي إلى العمل الصالح.

٢ - والعمل الصالح يؤدي إلى البصيرة والهدى.

٣ - والضلالة وانعدام البصيرة تؤدي إلى الظلم والفجور وسيئات الاعمال والمعاصي والذنوب.

٤ - وسيئات الاعمال والظلم والفجور تؤدّي إلى العمى وانعدام البصيرة.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٧. مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة، مير جهاني) ٤/ ٢٧، وبحار الأنوار ٢٥/ ٣٧٩ و٣٣/ ٧٨، ونهج السعادة ٤/ ٩٣.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة: ٣١. وتحف العقول: ١٦٧، وروضة الواعظين للفتال: ٤٣، والغارات للثقفي ١/ ١٤٢، وبحار الأنوار ٦٨/ ٣٨٤.

النتيجة والخلاصة

والنتيجة التي ننتهي إليها بعد هذه الجولة من البحث عن تفسير هذه الفقرة من الحديث القدسي: «كففت عليه ضيعته» هي: أن الإنسان إذا خالف هواه، وجعل هواه تبعاً لارادة الله تعالى ورضاه، رزقه الله تعالى نوراً وبصيرة وهدى، وأخذ بيده في منعطفات الطريق وظلمات المسير، يقول تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)[١].

ويقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً)[٢].

ويقول تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)[٣].

وروي عن علي عليه السلام: «هُدي من أشعر قلبه التقوى»[٤].

وروي عنه عليه السلام: «هُدي من تجلبب جلباب الدّين»[٥].

وعنه عليه السلام: «من غرس أشجار التُقى، جنى ثمار الهدى»[٦].

والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) الأنفال: ٢٩.

(٣) البقرة: ٢٨٢.

(٤) غرر الحكم للآمدي ٢: ٣١١. وعيون المواعظ والحكم للواسطي: ٥١٢.

(٥) نفس المصدر، وعيون المواعظ والحكم للواسطي: ٥١٢.

(٦) غرر الحكم للآمدي ٢: ٢٤٥. وكنز الفوائد للكراجكي: ١٢٨، وبحار الأنوار ٧٨/ ٩٠.

الفهرس

الفصل الثاني: من يؤثر هواه على هوى الله

الفصل الثالث من يؤثر هوى الله على هواه


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی